

تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية

تأليف

أ.د. محمود السيد

استاذ التاريخ الاسلامي - كلية المعلمين

بالمدينة المنورة (سابقا)

١٩٩٨

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت: ٤٨٣٩٤٧٢ الاسكندرية

المقدمة:-

لعبت مصر بحكم موقعها الجغرافى والاستراتيجى الرائع فى ملتقى القارات الثلاثة أفريقيا وآسيا وأوروبا منذ أن افتتحها العرب فى عام ٢١هـ - (٦٤٢م) دورا سياسيا وحضاريا هاما فى التاريخ الاسلامى وقد فطن العرب الى خطورة هذا الموقع واكتشفوا أهميته العظمى بالنسبة لسلامة دولتهم فاتخذوا من مصر درعا واقيا لممتلكاتهم ، كما اتخذوا منها أيضا القاعدة الرئيسية للحد العربى والانسياح غربا حتى المحيط الأطلسى .

ففى عام ٢٥هـ (٦٤٥م) نقض الروم عهدهم مع العرب وأغاروا على الاسكندرية ولكن العرب تمكنوا من قهرهم ونجحوا فى ردهم على أعقابهم^(١) وكما تعرضت الاسكندرية للغزو البحرى البيزنطى تعرضت دمياط وتيس لغاراتهم البحرية^(٢) فى العصرين الأموى والعباسى . ولما تكررت غزوات الروم للثغور المصرية أمر الخليفة العباسى المتوكل على الله ٢٣٣ - ٢٤٧ هـ (٨٤٨ - ٨٦٤) ببناء الحصون وأنفقت الأموال الطائلة على بناء الحصون الساحلية منذ

(١) عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فوح مصر والمغرب من ١٧٥ ، طبعة ليدن ١٩٢٠ تقى الدين أحمد بن على القرينى ، الواصف والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ط القاهرة ١٣٢٥ هـ - ج ١ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ - د . السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحصلاتها فى العصر الاسلامى حتى الفتح العثمانى ، ص ٤٢ ط ثانية دار المعارف عام ٦٩ .

(٢) القرينى ، الخطوط ، ط ١ - ص ٢٩١ ، ٣١٥ - د . عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية على مصر والشام من ٢٣١ ، ٢٣٩

ذلك الحين حتى العصر الفاطمي^(١) وعندما أخذت الدولة
الفاطمية تتداعى وتضمحل بعد المستنصر بالله بدأت مصر تواجه
الخطر الصليبي^(٢).

وبعد الدور الذى لعبه العرب فى مصر فى عصر الدولتين الأيوبيه
والمملوكية من أهم أدوارهم فى تاريخ مصر الاسلامية ، ومع ذلك
فلم يلق من عناية الباحثين ما هو جدير به من بحوث ودراسات .
فلقد تعرضت مصر فى هذه الفترة من تاريخها لأشد الغزوات
خطرا فى التاريخ من قبل الصليبيين والمغول .

وكان دور العرب واضحا فى الدفاع عن مصر والذب عن
ثغورها ومقاومة المعتدين وردمهم عنها . هذا الدور البارز الذى لعبه
العرب فى تلك الفترة المرحلة من تاريخ مصر الاسلامية كان مدار
بحثى لهذه الرسالة .

وإذا تقصينا بداية الوجود العربى فى مصر منذ الفتح لألفينا أن
هجرة القبائل العربية ارتبطت بالسنين الأولى التى تلت فتح العرب
لمصر فى عصر الخلفاء الراشدين قدمت قبيلة بلخ من الشام عام

(١) المقرئى ، المخطوط ، ص ٣٤٦ - سيرة الكاشف ، مصر فى الاسلام من الفتح العربى
الى تمام الدولة الطولونية ، ص ٨٤ ، ط القاهرة ١٩٤٧

(٢) المقرئى ، المخطوط ، ص ١ ، ص ٦ ، ٣ - د. محمد حدى المناوى ، مصر فى ظل الاسلام
من الفتح العربى الى الفتح الفاطمى ط القاهرة سنة ١٩٧٠

٢٢ هـ (٦٤٤) ثم نزلت جنوب مصر^(١) وفي العصر الأموي وفد
الأزد من العراق بأمر من زياد ابن أبيه والى البصرة (٥٣/٤٥ هـ)
ونزلوا القسطنطين^(٢).

وفي عام ١٠٩ هـ قدمت قبائل قيس عيلان من الحجاز^(٣).
وفي عهد الخليفة المتوكل العباسي وفد إلى مصر أولاد الكنز من
ربيعة ونزلوا بأسوان^(٤).

وأصبح للعرب منذ أن افتتحوا مصر واستقروا بها سلطة الحكم
وقيادة الجيوش.

وكانت القبائل العربية هي العنصر الرئيسي في الجيش ، فقد
قيدت أسماء أفرادها المقاتلة في الديوان .

ومنذ بدأت هجرة قبائل العرب من شبه الجزيرة العربية في بداية
القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) حتى أخذ العرب ينتشرون في

(١) المقرئى ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب مع دراسات في تاريخ العروبة
في وادي النيل ، تحقيق د. عبد الحميد حاتمى ، ط القاهرة سنة ١٩٦٦ ص ٢٦ ، د/مبلى صابر ،
المعمل الشرقي لمصر ، ط القاهرة سنة ١٩٤٦ ، ص ١٠٦

(٢) المقرئى ، البيان والاعراب ص ٦٨ - د. عبد الله عورشد العري ، القبائل العربية في
مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ط القاهرة سنة ١٩٦٧ ، ص ٢٢٢

(٣) الكندى ، الولاء والقضاة ط بيروت سنة ١٩٠٨ ص ٧٦ - المقرئى ، البيان والاعراب
ص ٦٥ - د. عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية - تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام حتى سقوط
الدولة الأموية ، ط الاسكندرية سنة ١٩٧٤ ، ص ٢٨٢

(٤) المقرئى ، البيان والاعراب ، ص ٤٤ .

أنحاء مصر وبشتغلون بالزراعة مثل قبائل قيس^(١) وبالتجارة مثل قبائل جذام^(٢) وبالتجارة والتعدين مثل قبيلتي بلي وجهينة^(٣) ولم يكن لقبائل العرب الذين يشتغلون بالزراعة والتجارة ومال ذلك من حق قيد أسمائهم في سجل ديوان الجيش^(٤).

وفي عهد الخليفة المعتصم العباسي رفعت أسماء العرب من الديوان وأسقط حقهم في العطاء عام ٢١٨ هـ (٨٢٣) فساعد ذلك على زيادة انتشار العرب في ريف مصر واحتراف الزراعة وغيرها طلبا للرزق^(٥) ويسجل ذلك بداية الاندماج بين العنصر العربي وأهل البلاد الأصليين وظهور المجتمع الجديد^(٦).

ثم بدأت حركة الهجرة العربية الى مصر تقل في عصر الطولونيين لتحيزهم لغير العنصر العربي^(٧) ولكنها عادت فنشطت من جديد

(١) القرظي ، البيان والاعراب ، ص ٦٢

(٢) بلقوث الحموي ، معجم البلدان ط بيروت سنة ١٩٥٦ ، ص ١٨٣

(٣) الهقوي ، كتاب البلدان ، ط لندن عام ١٨٩١ ص ٣٣٣

(٤) البلاغري ، شرح البلدان ، ط القاهرة عام ١٩٠٠ ، ص ٤٦٤

(٥) د. سيدة الكاشف ، مصر في عصر الاسلام ، ص ٧٤ - د. عبد الله الري ، القبائل العربية ص ٥٦

(٦) د. شكوي فيصل ، المجتمعات الاسلامية ط القاهرة عام ١٩٥٢ وص ١٥٨ - د. عبد الله الري ، القبائل العربية ، ص ٥٥

(٧) د. عباس حنار ، المدخل التاريخي لمصر ، ط القاهرة عام ١٩٤٦ ، ص ١٠٦

عندما استقر الفاطميون في مصر (١) :

ومن بين القبائل التي نزلت بمصر في العصر الفاطمي بنو هلال وسليم وكانوا أهل بادية بالحجاز ثم نزل بنو سليم قرب المدينة ونزل بنو هلال عند الطائف وكانت لهم رحلات إلى بلاد العراق والشام وكانوا يقطعون الطريق على السابلة والحجاج ، فلما ظهر القرامطة دخلوا في جيوشهم وصاروا جندا لهم في البحرين وعمان ، ثم انتزع القرامطة بلاد الشام من العباسيين وظاهرهم بنو هلال وسليم.

ولما قامت الدولة الفاطمية في مصر استطاع المعز لدين الله انتزاع الشام من القرامطة وردهم على أعقابهم إلى البحرين ونقل أشياعهم من بنى هلال وسليم إلى مصر وأنزلهم بالعدوة الشرقية من النيل ولكنهم تسببوا في الأضرار بالبلاد (٢) .

وظلوا في منازلهم حتى عهد الخليفة المستنصر عندما شق المعز بن باديس عصا الطاعة على الفاطميين متتهزا فرصة الأزمات السياسية

(١) نفس المصدر .

(٢) عبد الرحمن بن علقون ، العرب وديوان البعثة والخمر في أخبار العرب والعجم والغرب وسن عاصمهم من ذوي السلطان الأكبر ط بولاق عام ١٢٨٤هـ ، ج ٦ ، ص ١٢ - أحمد بن محمد الناصري السلاوي ، الاستعانة لابن بطوطة للغرب الأقصى ، ج ١ ص ١٦٥ ط القاهرة عام ١٨٨٢ - المقرئ ، البيان والأخبار ، ص ١٢٨ ، د. محمد العزيز سالم ، الغرب الكبير ، ط عام ١٩٦٦ ، ج ٢ ، ص ٦٦٦ .

والاقتصادية التي تعرضت لها الخلافة الفاطمية في مصر ، بالإضافة الى أن المعز بن باديس كان يميل الى مذاهب أهل السنة ^(١)

ولذا قطع علاقته بالفاطميين في مصر . ^(٢) فلما ولي الحسن بن علي اليازوري الوزارة للمستنصر ولم يكن على وفاق مع المعز بن باديس ، لأن ابن باديس لم يكن يخاطبه بما كان يخاطب به الذين قبله من الوزراء فاستبدل عبارة (عبده) في مخاطبته لليازوري بعبارة (صنيعته) وصار يخاطبه بها استخفافا واحتقارا له لمجرد أنه بن فلاح ولد بفلسطين ولم يكن من أهل الوزارة وأبناء الأمراء . وعندئذ شرع اليازوري يوقع بينه وبين الخليفة وأغرى العرب به ^(٣) .

كانت القبائل العربية من بني هلال وسليم في عهد المستنصر في حروب مستمرة بينهما فأشار الوزير اليازوري على الخليفة المستنصر باصطناعهم واغرائهم بالمهجرة الى بلاد المغرب وبذلك يتخلص من

(١) ابن عطلون ، المعز ، ج ٦ ، ص ١٣ - د. مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب ، ط. اسكندرية ، ص ٨٣ .

(٢) ابن عطار المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق لبيد بروفنسال ، ط. بيروت ، ص ٢٧٧ - المعز ، ج ٦ ، ص ١٤ السلاوي الفاطري ، الاستقصا ، ص ٦٧ .

(٣) السلاوي الناصري ، الاستقصا ، ص ١٦٧ - د. عبد الحميد يونس ، الملاحية في تاريخ والأدب العربي ، ط. القاهرة . عام ١٩٥٦ ، ص ٦٦ .

اضرارهم بالبلاد^(١) ويتنقم في نفس الوقت من العصاة المارقين من
الصنهاجيين^(٢)

واقنع الخليفة المستنصر بالله بوجاهة هذا الرأي وانتدب لهذا الأمر
مكين الدولة بن ملهم لعقد صلح بين قبائل العرب من هلال وسليم
وغيرهم وعرض عليهم المحبرة الى أفريقية وأجزل لهم العطاء
ووعدهم بالعون والمساعدة وأن يكون مايقترحونه من البلاد اقطاء
لهم^(٣).

ثم بعث المازورى الى ابن باديس يتهدده ويتوعده وسير القبائل
الملاحية فاجتازت النيل وعبرت الصحراء . وفي أرض أفريقية تقابل
عرب المشرق من بنى هلال وسليم مع قبائل زناتة وصنهاجة .
يذكر ابن خلدون انه عند التحام الفريقين للقتال انماز العرب الذين
كانوا مع جيش ابن باديس الى اخوانهم العرب الملاحين للعصية
القلبية وانهزمت صنهاجة فبرز لهم ابن باديس في طائفة من عبيده
ولم يلبث ان فر من المعركة والتجأ الى المنصورة^(٤) .

(١) وانظر المازوى في محاولة التغلب على المشاكل الاقتصادية التي نجمت في مصر في ذلك

الوقت . Lane poole . the story of Cairo P.p 146, 147 . London , 1924 .

(٢) السلاوى الاستقصا ن - ج ١ ، ص ١٦٧ - جز عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ص ٦٦٦ .

(٣) ان عطلون ، العرب ، ج ١ ، ص ١٤ - السلاوى الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٦٨ - ج ٢ .

جز عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٦٦

(٤) ابن خلدون المراكشي ، البيان المغرب ، ص ٢٩٧

وقد حاول بن باديس أن يرتبط بعلاقات ودية مع العرب فأباح لهم دخول القيروان للميرة ولكن الحالة لم تلبث أن ساءت من جديد وحدثت اشتباكات بين المالنيين والصنهاجيين حتى استحال الحياة في القيروان . وانتهى الأمر بأن ارتبطت الأسرة الحاكمة المعزية - بعد أن تقلص سلطانها وضعف برابطة المصاهرة مع بعض رؤساء قبيلة بنى رباح أقوى قبائل بنى هلال ^(١) .

وفي العصر الفاطمي الثاني بدأ الوزراء الفاطميون يستعينون بقبائل العرب في حل المشاكل السياسية في البلاد بالقوة ومن أمثلة هؤلاء الوزراء الذين استعانوا بقبائل العرب لنصرتهم على منافسيهم الوزير الفاطمي شاور بن مجير بن نزار السعدى . نسبة الى قبيلة سعد من جذام من القحطانية . ^(٢) وكان الصالح طلائع ابن رزيك قد أسند ولاية قوص الى شاور . وكانت من أكبر الأعمال بعد الوزارة ونجح شاور في بسط نفوذه على الصعيد بحسن سياسته للرعية . وهناك ارتفع شأنه . ويعبر ابن الأثير عن ذلك بقوله : فلما ولى الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم ^(٣) استعان شاور بقبائل العرب من الجعافرة وبنى طلحة والقرشيين للظفر بمنصب الوزارة فلما تم له

(١) ابن خلدون ، العرب ، ج ١ ، ص ١٥

(٢) الفاضلى ، سبج الأملح ط القاهرة ١٩١٤ - ج ٣ ، ص ٣٤٠ - الفاضلى ، نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، ص ٢٨٧ ، ط القاهرة عام ١٩٥٩ م .

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ط القاهرة عام ١٣٠٢ هـ .

ذلك أحزول لهم العطاء (فزاد أهل البرواتب والجرايات عشرة أمثالها)^(١) وكشفت سياسة شاور في الاستعانة بقبائل العرب لتنفيذ أغراض سياسية عن مدى الدور الذي يمكن أن يلعبه العرب في شئون الحكم في البلاد .

الا أن هذه القبائل العربية التي عاونت الوزير العربي شاور في الوصول الى الحكم هي نفسها التي وقفت منه موقف المعارضة الى الحد الذي جعلهم يحملون السلاح عندما أدركوا خطأ السياسة التي سار عليها واساءته السيرة في الرعية^(٢) .

ومن مظاهر ذلك موقف القبائل العربية من الصراع بين شاور وأسد الدين شيركوه في مصر في عهد الخليفة الفاطمي العاضد ٥٥٥-٥٦٧ (١١٦٠-١١٧١) . أما شاور فقد استعان بالصليبيين لتنفيذ خططه السياسية بمصر ، فبعث أسد الدين اليه رسالة ضمنها رغبة أسد الدين في التعاون المطلق وبغير قيود مع شاور ضد الصليبيين والعمل الاسلامي يدا واحدة للقضاء على الصليبيين ، ورفض شاور الرسالة . وكان تعليق أسد الدين على ذلك الرفض قوله لعنه الله - يعني شاور - لو أطاعتني لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج^(٣) .

(١) ابن خلدون ، المعراج ، ص ٧٦ .

(٢) ابن تغري بردي النحوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٦ ط القاهرة

سنة ١٩٢٩

(٣) أبو شامة الروميين في أخبار الدولتين ، ج ١ ص ١٦٨ ، ط القاهرة سنة ١٢٧٨ هـ

كللك عارضت القبائل العربية شاور وأيدت أسد الدين وعاونته
عن طريق انضمامها الى جيشه في صراعه ضد شاور والصليبيين .
وفي ذلك يقول أبو شامة (وسار أسد الدين الى الجزيرة وخيم بها
مقدار خمسين يوما) واستمال قوما يقال لهم الاشراف الجعفرين
والطليحيين والقريشيين (١) وعندما اتجه أسد الدين من قوص الى
الاسكندرية بعد ما بلغه قيام شاور والصليبيين بمحاصرتها (تبعه جماعة
كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد وبلغ ذلك شاور فرحل هو
والفرنج واضطر الى الصلح) (٢)

وكان من بين القبائل العربية التي انضمت الى عسكر أسد الدين
طائفة من لحسم وحزام ومدالج (٣) استبسلت في القتال مع الجيش
النورى الى أن تم النصر للمسلمين (٤)

وهكذا انتصر العرب في مصر شمالها وجنوبها لأسد الدين وابن

(١) نفس المصدر

(٢) نفسه

(٣) المقرئ ، المخطوط حـ من ٢٧٨ - البيان والإعراب من ٩٠٣ ، ٩٠٥ - ابن نقرى بردى
البحر الزاهرة ، حـ ، ص ٣٤٩ - القلقشندي ، كليات الجمان في التعريف بقبائل حرب الزمان رقم
٢٨١ مكروليام .

(٤) ابن نقرى بردى ، البحر الزاهرة ، حـ ص ٤٢٩ ، ٣٥٠

أخيه صلاح الدين^(١) وأيدوهما بالسلاح والرجال . وأعانوهما
 فى الوقوف فى مواجهة شاور والصليبيين . ثم عهد الخليفة العاضد
 الى شيركوه بمنصب الوزارة وسر أهل مصر بذلك^(٢) . وخلقه
 عليها بعد وفاته ابن أخيه صلاح الدين الذى لقب بالملك الناصر .
 وفى عهد وزارته سقطت الدولة الفاطمية وأعيدت الخطبة
 للعباسيين^(٣) . وفى بداية عهده فى هذا المنصب تعرض ثغر دمياط
 لغارة بحرية قام بها أسطول صليبي قوامه ألف ومائتى سفينة ، وقبل
 أن يصل خبر الغزوة الى صلاح الدين كان أهل دمياط ومنهم عرب
 بنى كنانة^(٤) . يستبسلون فى مقاومة الغزاة وصلهم عن دخول
 البلاد . ولم يتردد صلاح الدين فى تعزيز دمياط بالرجال والسلاح
 كما بحث يستنصر بنور الدين فى الشام وترتب على ذلك أن تحذف

(١) أبو شامة ، الرواهة فى أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١٦٨ ، وأظهر فى نوحه صلاح
 الدين فى رجليه الى مصر صحة أسد الدين شريكه *The Oldenbourg* "zoc". *crusades* P.P.378-379 New York 1966 .

(٢) ابن تيرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٥١ - دجمال الدين الشيال ، مجموعة
 الوثائق الفاطمية ، ص ٢٩٠ ، ٤٠١ .

(٣) موسى بن يوسف نزهة الناظرين ليهن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط رقم
 ١٤١٦ ج ، ص ٤٤ ، م . الاسكندرية .

(٤) القريرى ، البيان والاعراب ، ص ١١ وبنو كنانة وهم من البكرين ومعهم طائفة من
 البكرين قلعوا الى مصر فى عهد الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائر وذكر القاضى أنهم
 وحلوا من بنى رزيك ما أرى على الأمل وحلوا عمل النكرمة على مائة الرأى وعائلة المعتد > علائق
 الجمان ، ميكرويليم رقم ٣٨١ - أحمد لطفي السيد ، كمال العرب فى مصر ص ٦٣ .

الفرنج خناقهم على دمياط واضطروا الى رفع الحصار عنها والعودة من حيث أتوا .^(١)

وهكذا تخلصت دمياط من خطر محقق بفضل شجاعة أهلها ومن آزرهم من عرب بنى كنانة . وظل العرب عوناً لصلاح الدين وخلفائه من سلاطين بنى أيوب وشجاء في حلق الاعداء . وكانوا في حقيقة الأمر يمثلون طلائع الجيش ويثولون القيام بالأعمال الفدائية التي تسبق عادة المعارك الحربية والتحام الجيوش المقاتلة .

ومن أمثلة ذلك ما قيل عن دور العرب في معارك مصر الكبرى مارواه المقرئى عندما تعرض لوصف الأعمال الفدائية في دمياط في عهد الملك الكامل الأيوبي ، اذ يقول : (والعربان ^(٢) تتخطف الفرنج في كل ليلة بحيث امتنعوا عن الرقاد خوفاً من غاراتهم ^(٣)) ومن الجدير بالذكر أن العرب ساءروا الدولة الأيوبية ولم يخرجوا عليها . كما أنهم لم يتقلبوا على سلاطينها أو يشوروا عليهم . وكانت سلاطين الدولة الأيوبية من جانبهم يعيشون برسائلهم الى ولاية الأقاليم يدعونهم فيها الى اتباع سياسة رشيدة عادلة ازاء جميع

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ - أبو شامة الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ - المقرئى ، المخطط ج ١ ، ص ٣٤٦ ، ٣٥٥ - د. الشيبان بحمل تاريخ دمياط ، ص ١٧٢ .

(٢) برء في صلبحات التاريخ الاسلامي لفظ العربان للدلالة على العرب الذين زلوا في مصر ، ولا تعنى العربان الأعراب البدو سكان البادية وإنما القبائل العربية التي استقرت في الأرض المصرية .

(٣) المقرئى ، المخطط ج ١ ، ص ٣٤٦

المواطنين بلا استثناء . فى حين افتقد الغرب فى عصر المماليك هذا النوع من العدالة . والظاهر أن السبب فى ذلك يرجع الى أنه عندما أدرك العرب عزم الأمراء المماليك على الاستيلاء على الحكم فى مصر أعلنوا معارضتهم لهذا المبدأ ورفضوا قبوله وطالبوا بأن يكون حكم العرب للعرب .

وهكذا بدأ الصراع بين العرب والمماليك منذ قيام المماليك بحكم مصر . ومن الجدير بالملاحظة أنه الى جانب استمرار العرب القيام بثوراتهم ضد الحكم المملوكى فى مصر كانت هناك ظاهرتان هامتان هما :

أ- أن الهجرة العربية الى مصر توقفت وأخذت على الضد من ذلك تتوجه منها الى الخارج .

ب- حدوث اندماج واضح بين العرب والمصريين نتيجة للصراع العربى المملوكى ومع ذلك فقد شاركت القبائل العربية فى مصر الجيش المملوكى فى جميع المعارك الحربية مشاركة فعالة . ومن أمثلة ذلك معركة عين جالوت عام ٦٥٨ (١٢٦٠) التى استدعى اليها القبائل العربية من عامة أنحاء مصر^(١) للانضمام الى صفوف الجيش المملوكى بقصد الدب عن البلاد وكان أكثر من قدم من العرب من اقليمى الشرقية والغربية^(٢) لقربها من أرض المعارك وفى عين

(١) القزوينى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ق ١ ص ٤٢٩

(٢) ابن الأثير ، نتائج الزهور فى وثائق الزهور ، ج ١ ص ٧٩

حاولت التحم الجيش المملوكي وقد انضمت اليه فرق من قبائل العرب مع حماقل المغول وفيها دارت الدائرة على المغول وانهزموا هزيمة نكراء . ومع ذلك فان الحدود الشمالية لبلاد الشام لم تسلم من اعتداءات المغول المتكررة . حتى اذا كان عام ٦٧٢ (١٢٧٣) خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر الى عسقلان ومن هناك أصدر امره باستدعاء الفرسان المصريين والعرب والتأهب لملاقاة المغول في شمال الشام^(١) ثم أصدر أمرا ثانيا بعبور جماعات مسلحة من الجيش المملوكي ومن قبائل العرب الحدود الشمالية للشام ومهاجمة البلاد المتاخمة بهدف تعقب المعتدين ومنعهم من معاودة الهجوم على الشام . وهكذا انتقل العرب من موقف الدفاع الى الهجوم . كذلك كان للعرب دور رئيسي في الحملات الحربية ضد قبائل البجة في جنوب مصر . ففي احدى هذه الحملات الحربية في الجنوب في عام ٦٧٦ (١٢٨٩) بلغ عدد المشتركين أربعين ألفا من عرب الوجهين القبلي والبحري^(٢) .

وهكذا تبين لنا أهمية الدور الذي لعبه العرب في تاريخ مصر السياسي والاجتماعي والحربي في مصر في العصريين الايوبي والمملوكي .

(١) التقرير ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٦١٠

(٢) التقرير السلوك ، ج ١ ، ص ٣ ، ص ٧٤٦

وقد رأيت أن أقسم بنحى هذا الى أربعة أبواب أفردت الباب الأول لدراسة انتشار العرب فى مصر وأهم أعمالهم . ويتضمن هذا الباب فصلين عالجت فى أولهما التقسيم الاقليمى لمصر ومناطق تجمعات القبائل العربية فى هذه الأقاليم ، فأشرت الى الأسباب السياسية التى أدت الى ظهور تلك القبائل العربية على مسرح السياسة المصرية وأهمية الدور الذى لعبته هذه القبائل فى التمهيد لقيام الدولة الأيوبية فى مصر وقد أوضحت كيف أن هذه القبائل العربية ساندت بنى أيوب نتيجة لموقفهم الصريح . من الصراع ضد صليبي الساحل كما أوضحت كيف أن هذا التعاون الأيوبي العربى ظل مستمرا مع بنى أيوب طول مدة حكمهم فى مصر فلما قامت الدولة المملوكية اتخذت القبائل العربية موقف المعارضة الشديدة ضد الحكم المملوكى ووقع القتال بين الفريقين ، وكان من نتائجه أمران:

الأول :

ظهور تغير واضح المعالم فى خريطة توزيع القبائل العربية فى مصر

الثانى :

تلقى الاتهامات ضدهم .

وتناولت فى الفصل الثانى من هذا الباب بالدراسة موضوع اندماج العرب بأهل مصر وقارنت بين ظروف الاستقرار العربى

وبطء الحركة الاندماجية فى العصر الأيوبي ثم شلتها بعد ذلك عقب ظهور الاضطرابات فى العصر المملوكى .

أما الباب الثانى : وعنوانه القبائل العربية فى خدمة الجيش الأيوبي والمملوكى فقد خصصته للدراسة الدور الذى لعبته القبائل العربية فى مقاومة الأخطار التى كانت تهدد مصر من الشمال والشرق والجنوب ، فقد قسمت هذا الباب الى فصلين خصصت الفصل الأول منهما للدراسة دور العرب الدفاعى عن مصر زمن الأيوبيين . أما الثانى فقد خصصته للدراسة دور العرب الحربى فى الدفاع عن مصر زمن المماليك . وقد أوضحت فى هذا الباب كيف أن قوة الدفاع العربية ممثلة فى الجيش المملوكى شاركت فى جميع المعارك الحربية الكبرى التى دارت على أرض مصر والشام لصد هجمات المغول من الشرق والصليبيين من الشمال . كما أوضحت دور القبائل العربية الفعال فى الدفاع عن حدود مصر الجنوبية ضد غارات البجة . ومن الجدير بالذكر أن بعض المعارك الحربية الكبرى التى لم يشارك فيها فرسان العرب فى مصر انتهت بهزيمة جيوش المماليك ، ومن أمثلة ذلك معركة الريدانية فبعد أن أمر السلطان طومان باى مشايخ العرب باستدعاء جماعة من أشجع فرسان العرب استعدادا للقتال مع الجيش المملوكى ضد العثمانيين ومن بينها قبائل عزالة ومحارب وهوارة^(١) وعلى الرغم من وصول

(١) ابن الأثير ، نتائج الزهور ، ج ٩ ص ١٠٦٨

هذه القبائل بالفعل الى الرميّة للاستعراض فان السلطان عاد وعدل عن ذلك وأمر بمسرحهم ، وكان ذلك نزولا على رأى رآه بعض ممالك السلطان ^(١) وسجلت فى هذا الباب الدور المؤثر لمطوعة العرب فى حماية الثغور مثل دمياط والمنصورة (ومن أمثلة ذلك عرب بنى كنانة فى ثغر دمياط الذين اشتهروا بالشجاعة ^(٢) كذلك سجلت فى هذا الباب دور الفرق الاستطلاعية للكشف عن عورات العدو .

ومن أمثلة ذلك أن الظاهر بيبرس كان يرسل الجنود وفرسان العرب لتتبع أخبار جيش المغول فى شمال الشام ، وتمكن بفضلهم من دحر العدو وهزيمته ^(٣) وكان عدد المطوعة من العرب فى بعض المعارك يفوق عدد الجنود المماليك . وفى إحدى معارك السلطان الأشرف خليل عكا فى عام ١٢٩١ م كان عدد المطوعة يفوق عدد من كان فى الخدمة من عسكر المماليك ^(٤) أما الباب الثالث : فقد خصصته لدراسة الثورات التى قام بها العرب فى العصرين الايوبى

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٧٠

(٢) إسماعيل أبو الفدا ، تاريخ أبي الفدا ، ج ٣ ص ١٨٧ - القريزى ، - السلوك - ج ١ ص ٧ ، ص ٢٢٣ - القريزى ، الخطوط ، ج ١ ص ٢٥٤ - ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ج ١ ص ١ ، ص ٦٩ ، ٧٠

(٣) جمال الدين أبي الحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٩

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٧

والمملوكى وفى الفصل الأول من هذا الباب أوضحت أن هذه الثورات ترجع الى عاملين أحدهما سياسى والآخر اقتصادى .

الأول :

أن العرب رأوا أنهم أحق بالحكم من المماليك لأن المماليك غرباء عن البلاد وأرقاء مجلوبين . بينما العرب أحرار وهم بالاضافة الى ذلك أحفاد العرب الفاتحين . وأنهم حملوا السلاح مع بنى أيوب تماما كما فعل المماليك .

الثانى :

تعرض البلاد لأزمات اقتصادية عنيفة .

وما كان العرب يعانونه من سوء معاملة الولاة وحكام الأقاليم وقبام هؤلاء بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم . وقد بينت كيف أن نتيجة هذا الصراع العربى المملوكى كانت لصالح المصريين اذ أن العرب لجأوا اما الى الهجرة خارج مصر أو الاندماج فى الشعب . وكان ذلك آخر حلقة فى سلسلة تعريب البلاد .

أما الفصل الثانى :

فقد أفردته لدراسة ثورات العرب فى مصر فى بداية العصر العثمانى ، فتحدثت عن ثورة عرب السواحل ودور العرب بين التأييد والمعارضة لنائب السلطان ونتائج ذلك .

أما الباب الرابع :

وهو باب قصير لا يعلو فصلا واحدا فقد أفردته لدراسة النظام الحربي والاجتماعي عند القبائل العربية في مصر فخصته نظام التحاق العرب بالجيش وطرق القتال عند العرب وأنواع الأسلحة التي استخدموها في معاركهم ضد أعدائهم ثم ذكرت دورهم الاجتماعي من حيث قيامهم بتعمير الأراضي عن طريق الزراعة والبناء ، ومعاونتهم للأهالي في الأزمات الاقتصادية ودورهم في تنمية الثروة الحيوانية واشتغالهم بالتجارة . كما تحدثت عن أزيائهم واختتمت دراستي بالحديث عن نشاطهم الثقافي . وقد اعتمدت في دراستي على عدد كبير من المصادر العربية ومن الجدير بالذكر أن هناك اثنان من المؤرخين العرب دونوا للقبائل العربية هما المقرئزي وابن أبياس . وقد عاش كل من هذين المؤرخين في العصر المملوكي ومارس الوظائف الحكومية ^(١) وأهم مؤلفات المقرئزي ٨٤٦ هـ أ: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك وهو أهم المصادر لعصر دولتي الأيوبيين والمماليك ^(٢) وقد ضمنه المقرئزي تحركات القبائل العربية ودورها في الدفاع عن البلاد . وتعرض فيه لذكر ثوراتها . فهو يذكر الأحداث التي عاشتها القبائل العربية وصراعاتها ضد سلاطين المماليك وينفرد هذا الكتاب بذكر تفاصيل لبعض

(١) د. عبد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الهجري ، ط

القاهرة عام ١٩٥٤ ، ص ٨ ، ٥٠٠

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣

الأحداث لم يرد ذكرها فى كتاب آخر غيره وخاصة عن قبائل العرب إلا أنه دون الأحداث على طريقة المنهج الخولى .

ب:- المواقظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . وهذا الكتاب بعد فخر مؤلفات المقرئى ، فقد وصف فيه الفسطاط والقاهرة وتعرض لذكر القبائل العربية وأماكن تواجدها وقد أجهل فى هذا الكتاب ما طرحه تفصيلا فى كتيبه المتقدمة . إلا أنه على الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب يتميز بأنه يحسوى على ذكر أحداث لم يرد ذكرها فى كتب المقرئى الأخرى ومن أمثلة ذلك ذكر تفاصيل انتصار المصريين فى المنصورة على الصليبيين فى حملتهم على دمياط زمن الصالح نجم الدين ووقوع لويس التاسع ملك فرنسا فى أسر المسلمين^(١) وأيضا فى ذكر نسب الأيوبيين . فإن المقرئى اكتفى بذكر تفاصيل هذين الموضوعين فى كتاب الخطط ولم يشر إليهما فى كتيبه المتقدمة^(٢) .

ج:- البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب . وهو أهم المصادر الرئيسية لتاريخ الهجرة العربية فى العصر الأيوهى فى

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٥١

(٢) نفس المصدر - د/ محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر

الميلادى ، ط القاهرة عام ١٩٥٤ ، ص ١١

مصر^(١) وقد تناول المقرئى أيضا فى هذا الكتاب تحركات القبائل فى العصرين الأيوبي والملوكى وأنسابها وذكر فيه أسماء هذه القبائل وبلوطنها ومائشأ بينها من علاقات التحالف أو النسب .

وقد بدأ المقرئى كتابه البيان والاعراب بذكر المهدف من تأليفه وهو الحفاظ على أنساب القبائل العربية التى بقيت بمصر بعد أن أباد الدهر العرب الذين شهدوا فتح مصر^(٢)

وأما مؤلفات ابن اياس ت ٩٣١ هـ فأهمها :-

كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور . وقد أورد فيه ابن اياس أخبار هامة تشير الى دور القبائل العربية فى الدفاع عن مصر وكذلك ثوراتهم ضد الحكام .

ويعد ابن اياس المؤرخ الوحيد تقريبا الذى كتب عن الفترة المتأخرة من عصر دولة المماليك الجراكسة .^(٣) كان ابن اياس يلدون الحوادث شهرا بعد شهر ثم عدل عن ذلك وصار يكتبها يوما بعد يوم مما لم ييسر لغيره من المؤرخين . ووصف فيه أحوال مصر الداخلية فكذب عن الحكام والسلاطين ووصف طغيان المماليك وما صاحب ذلك من ثورات داخلية . ووصف الحياة العامة للشعب وكان له اهتمام بقبائل العرب وذكر أحوالهم وتعليل أسباب ثوراتهم

(١) د. عباس صابر ، المدخل التاريخى لمصر ، ص ١٠٦ ، ط القاهرة عام ١٩٤٦

(٢) المقرئى ، البيان ، ص ٢

(٣) د. محمد مصطفى زمامة ، المؤرخون فى مصر ، ط القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٣

أحيانا ، بما يدل على دقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق
وصرامته في الحكم على الأحداث . وقد اتسم أسلوبه بالصراحة
والصدق . وبالإضافة الى كل من المقرئى وابن اياس اعتمدت على
عدد من المصادر العربية أذكر من أهمها :-

١- ابن الأثير ت ٦٣٠هـ :

الكامل في التاريخ . وقد أورد به أحداث المعارك البحرية في
الثغور المصرية والشامية ودور عرب مصر في الصراع بين شاور
والصليبيين من ناحية وأسد الدين من ناحية أخرى وتحتصر أهمية
هذا المصدر بالنسبة لموضوع الرسالة في أن مؤلفه عاش في العصر
الأيوبي وشاهد أخبارها بنفسه . ويعد ابن الأثير حجة فيما دون
بغير منازع ^(١) .

٢- القلقشندي ت ٨٢١هـ :-

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ويتضمن وصفا لأقاليم مصر
وتوزيعا للقبائل العربية والرسائل والمنشورات الموجهة من السلطان
الى الولاة من حكام الأقاليم في العصرين الأيوبي والمملوكي .
وترجع أهمية هذا المصدر الى ماأورده من الرسائل والمنشورات التي
لم يرد ذكرها في مصادر أخرى .

(١) حاشد أحمد حدى ، الدولة الخوارزمية والغول ، ص ٧ ، ط القاهرة ١٩٤٩

٣- أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ت ٨٧٥هـ:-

ويشمل كتابة النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة على تراجم
لحياة ملوك مصر وسلاطينها والأحداث التى وقعت لهم مع العرب .
وله أيضا كتاب المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى وهو تراجم
لحياة بعض العلماء البارزين فى المجتمع المصرى .

والى جانب المصادر المذكورة اعتمدت على عدد من المصادر
المخطوطة أهمها :-

كتاب قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي
أورد به بعض اضافات لم ترد فى كتاب نهاية الارب بشىء من
التفصيل .

يلى ذلك محمد بن متكلى المصرى ، كتاب التدبيرات السلطانية
فى الفنون الحربية :-

وقد ذكر المؤلف - وكان نقيبا للجيش فى زمن السلطان
الاشرف شعبان - ما كان يقوم به السلطان صلاح الدين والسلطان
الظاهر بيبرس فى ظروف الحرب من بث العيون لرصد تحركات
الأعداء وحث الجند على التفانى فى سبيل الدفاع عن البلاد
ومهاجمة العدو ودحره وحثه على تكرار الذات . وما يجب على
الجندى من الصمت والخلو من مباحثة العدو وحيل التخفى عن
العيون . مع سرد لوصف نماذج من الجند المقاتلين مما يكشف عن
مدى التقدم الكبير الذى كانت عليه الجيوش العربية فى ذلك الحين .

وكتاب نزهة الناظرين ليمان ولي مضر من الخلفاء والسلاطين
للشيخ مرعي بن يوسف بن بكر المقدسي :-

وقد ذكر فيه مؤلفه صوراً من حياة حكام مصر من السلطين
ومآثرهم وما وقع منهم من أخطاء . وقد أشاد بالدور الذي قام به
السلطان صلاح الدين ضد الصليبيين بعد أن استقرت له الأمور في
مصر . قال " ثم تجردت همته رحمه الله تعالى لغزو الأفرنج ويسر
الله له فتح البلاد التي كانت بأيديهم ففتح الشام وبيت المقدس " .
وذكر من مآثر العزيز عثمان أنه جاء إليه رجل يسعى في قضاء
الاسكندرية ودفع له أربعين ألف دينار فردها عليه ولم يقبلها ،
وقال والله لأبيع دماء المسلمين وأموالهم بملء الأرض ^(١)

ومما ذكره عن مساوئ السلطان قنصوه الغوري أنه كان إذا مات
أحد أخذ ماله كله وترك ورثته فقراء . كما أنه اتخذ لنفسه ممالك
كثيرة فظلموا الناس وأظهروا الفساد وأخسروا العباد . ^(٢) وكتاب
المواقف الشريفة في تحقيق معنى الخليفة محمد بن علي القادري
ويعالج هذا المخطوط العلاقة بين الخليفة - والسلطان الذي استولى

(١) الشيخ مرعي بن يوسف ، نزهة الناظرين ليمان ولي مضر من الخلفاء والسلطين ،
مخطوط رقم ١٤١٦ ج ، م ، الاسكندرية ، ص ٤٤ ، ٤٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٦

على السلطة قهرا وذكر كيف أن ذلك يرجع كما زعم هؤلاء
الحكام الى أنهم يحكمون نيابة عن الخليفة ^(١).

وهذا من أسباب احياء الخلافة العباسية في مصر في العصر
الملوكي ^(٢) ويلي ذلك في قائمة المصادر الرئيسية مجموعة المصادر
الثانوية تضمنت بعض الحقائق التاريخية الهامة التي استندت عليها في
اعداد الرسالة فخص بالذكر منها "صبح الاعشى للقلقشندي"
وزبدة كشف الممالك "لابن شاهين الفطاهري" و"حسن المحاضرة"
للسيوطي ، وبعض كتب الطبقات كوفيات الاعيان لابن خلكان ،
والطبقات الكبرى للشعراني .

وبالاضافة الى هذه القائمة من المصادر اعتمدت على عدد كبير
من المراجع الحديثة من أهمها المخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك ،
وقبائل العرب لأحمد لطفى السيد ومعجم قبائل العرب لعمر كحالة.

(١) محمد بن علي القادري ، المواقف الشريفة في تحقيق معنى الخلافة م. اسكندرية مخطوط

رقم ٢٨١٦ ج

(٢) ذلك أن الحكم الملوكي تولى من أول عهد معارضة شنبه من المصريين والعرب فلما
تولى الظاهر بيبرس حرش السلطة سعى جاهدا الى اكتساب صفة الشرعية لنفسه بأن استقبل الخليفة
العباسي الذي ير من بغداد بعد سقوطها في يد العار والفسول وجمع له رجال الدين والدولة عام
٦٥٩هـ (١٢٦١ م) وأثبتوا نسبه الشريف ثم باعوه على الخلافة في نفس العام . ثم قام الخليفة
العباسي بعودة بتقليد الظاهر بيبرس بطيعة السلطة . وقد ظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر بعد ذلك
- وكانت اسمية - واستمرت حتى نهاية العصر الملوكي في مصر . (ابن تقي برهوي ، النجوم
والزمر ، ص ٧٠ ، ص ١٠٩)

ولا يفوتنى فى ختام مقدمتى أن أسجل كلمة شكر ووفاء
وعرفان لأستاذى المشرف الدكتور السيد محمود عبد
العزیز سالم على ما بذل من جهد فى الاشراف على اعداد
هذه الرسالة وما قدمه لى من عون وتوجيه كان له أعظم
الأثر فى اتمام هذا البحث .

"الباب الأول"

(انتشار العرب في مصر وأهم أعمالهم)

الفصل الأول

(القبائل العربية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي)

- ١ - أقاليم مصر في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية .
- ٢ - توزيع القبائل العربية في مصر في عصر الدولة الأيوبية .
 - أ - في الصعيد
 - ب - في الوجه البحري
- ٣ - القبائل العربية وتوزيعها في عصر المماليك .
 - أ - في الصعيد
 - ب - في الوجه البحري

أقاليم مصر: في عصر دولتي الأيوبيين والمماليك

كانت مصر قبل العصر الأيوبي تنقسم الى عدة أقاليم ولكل اقليم منها وال يعين من قبل السلطان وكان أكبر هذه الأقاليم وأهمها سبعة : ثلاثة منها بالوجه القبلى هي : قوص والبهنسا والاشمونين وأربعة بالوجه البحرى هي : الشرقية - والغربية - والمنوفية - والبحيرة .^(١)

وقد لعبت ولاية هذه الأقاليم دورا هاما في العصر الفاطمى ففى نهاية هذا العصر اشتد التنافس على منصب الوزارة وساعد على ذلك صغر سن الخلفاء أمثال الظاهر بأمر الله والفائز بنصر الله والعاقد لدين الله. وكثر الطامعون من ولاية الأقاليم البارزين أمثال: رضوان بن ولخشى وكان واليا على الغربية^(٢) وعلى بن السلار والى

(١) المقطبيدى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج١ ، ص ٥ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ط القاهرة ١٩٢٠ .

(٢) القرينى ، المواقف والامصار بذكر الخطط والآثار ، ج١ ، ص ٣٥٧ ، ج١ ، ط بغداد .

البحيرة والاسكندرية^(١) والصالح طلائع بن رزيك والى الاشونين،^(٢)
وشاور الى قوص^(٣) وغيرهم .

كان تاج الدولة بهرام الأرمنى وزيرا للخليفة الحافظ لدين الله
وقد ولى الوزارة اثر مصرع الحسن بن الحافظ عام ٥٢٩ (١٣٤١)
فعمل على الاكثار من أهل جنسه من الأرمن القادمين من تل باشر
فى وظائف الدولة حتى أسخط عليه العامة والخاصة . واستتجد
المصريون برضوان بن ولخشى صاحب الباب فتمكن رضوان من
حشد جمع كبير من عرب الغربية واتجه بهم الى القاهرة واستولى
على الوزارة فى ٥٣١ - ٥٣٣ (١١٣٦ - ١١٣٨) .^(٤) ثم أخذ
رضوان بن ولخشى - وكان سنى المنصب - فى شغل مناصب
الدولة بمعارفه واسقط المكوس مما أوغر صدر الخليفة منه وتغير له ،
وانتهى الأمر بخروج رضوان من الوزارة سنة ٥٣٣^(٥) وفى عهد
الخليفة الظاهر بأمر الله ولى الوزارة سليم بن مصال عام ٥٤٤
(١١٤٩) ولم يلبث أن ثار على بن السلال والى البحيرة ضده

(١) ابن تقي الدين ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ، ص ٢٩٥ ط القاهرة

١٩٣٨

(٢) المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٧

(٣) ابن بطون ، المعر ج ٤ ، ص ٧٧ ، ط القاهرة ، المقرئ ، اتعاط الخطط ج ٣ ، ص

٢٥١ ، ٢٥٥ .

(٤) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، ج ٤ ص ٣٥٦ ط القاهرة ، ابن بطون ، ج ٤ ص ٧٢ -

المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٧ ، اتعاط الخطط ج ٣ ، ص ٢٤١ .

(٥) ابن بطون ، الغرر ج ٤ ، ص ٧٢ - المقرئ ، اتعاط الخطط ، ج ٣ ، ص ١٧١

وأرغمه على الخروج من القاهرة فدخلها ابن السلار وتقلد الوزارة وتلقب بالعدل وكان نسباً شافعي المذهب - ^(١) ولعل ذلك كان سبباً في عدم رضا الخليفة عنه على الرغم من أنه يملك غاية جهده في الاخلاص له ومباشرة عمله مجد .

وظل ابن السلار يباشر أعمال وظيفته حتى قتله نصر بن عباس بن باديس ^(٢) بايعاز من الخليفة الظافر وأسندت الوزارة الى عباس بن باديس ^(٣) الذي كان والياً على الغربية ^(٤) قبل ان يلى منصب الوزارة ولما ساءت سياسة عباس وانتشرت الشائعات حوله واتهم بقتل الخليفة الظافر هو وولده نصر سنة ٥٤٩ هـ ^(٥) بعثت نساء القصر بشعورهن الى والى الاشمونين والبهتسا طلائع بن رزيك واستنجدت به ضد عباس وولده نصر . خرج ابن رزيك من الصعيد ومعه جمع عظيم من العرب واتجه بهم الى القاهرة ^(٦) دخلها واستولى على

(١) ابن عسكان نوفاات العباد وأنباء ابناء الزمان ، ج ١ ، ص ٢٧٧ هـ ط القاهرة .

(٢) ابن عسكان ، المعز ، ج ٤ ، ص ٧٤ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٩٥

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٨٨ (٥) - نلس المصنوع ، ص ٢٩٥ .

(٤) نلس المصنوع ، ص ٢٩٥ .

(٥) ابن القطان فى نظم الجمان ، ص ٢٣٧ ، تحقيق الدكتور عمود على مكى ، الرياض .

(٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤٤ ط القاهرة - تعاضد الحنقا ، ج ٣ ، ص ٢١٧ .

(٦) ابن عسكان ، نوفاات الاصلان ، ج ١ ، ص ٣٢٨ ، ابن عسكان ، المعز ، ج ٤ ، ص ٧٣ المصنوع ، تعاضد الحنقا ، ج ٣ ، ص ٢٥٣

الوزارة . ٥٤٩ ، ٥٥٦ (١١٥٤ - ١١٦٣) . ثم استبد ابن رزيك بالأمر كله لنفسه وحجر على العاضد مما أوغر صدور من بالقصر من حاشية الخليفة . و انتهى الأمر - بمقتل طلائع ابن رزيك عام ٥٥٦ (١١٦٣) بإيعاز من السيدة ست القصور أخت الظافر فاستدعى العاضد رزيك بن طلائع وولاه الوزارة عوضا عن أبيه ^(١) ولقبه بالعدل ثم حسنت له بطائنه صرف شاور بن بجر السعدى عن ولاية قوص ، فأرسل اليه كتابا بعزله من منصبه فعز ذلك على شاور وعزم على خلع العدل . وجمع لذلك جيشا كبيرا من العرب ودخل بهم القاهرة واستولى على الوزارة . ٥٥٨ - ٥٦٤ (١١٦٣ - ١١٦٩) ^(١) ولم يكن شاور فى الحكم بأحسن حال من سابقه ، اذ أساء السيرة فى الرعية وتطور الصراع بين الوزراء بغية الاحتفاظ بمنصب الوزارة الى الاستعانة بالقوى الخارجية فاضطر الخليفة العاضد فى سبيل التخلص من جور وعسف الوزير شاور الى الاستعانة بنور الدين زنكى . فبعث اليه هذا الأخير بقائد جيشه أسد الدين شيركوه الذى تمكن من عزل شاور من الوزارة . و انتهى الأمر بمقتل شاور وتولى أسد الدين الوزارة . ثم خلفه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين ^(٢) .

(١) ابن الأثير - الكنز ، ج ١ ، ص ١٢٩ - ابن خلكان - وفيات الأعيان - ج ١ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، غير ج ٢ ، ص ٧٧ - التبريدى ، تعاضد الخليفة ، ج ٣ ، ص ٧٥٧ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، ١٥٨ ، ابن الأثير ، الكنز ، ج ١ ، ص ١١١ ، ط القاهرة . القمى ، بن يوسف الكرمى . نزعة الظاهرين ليهن ولى مصر من المماليك ، رقم ١٤١٦ عن طوط بنون تاريخ الاسكندرية .

وفي عصر الدولة الأيوبية :-

ظل التقسيم الإقليمي لمصر على حاله فلم يطرأ عليه أى تغيير .
فلما قامت دولة المماليك فصلت أسوان عن ولاية قوص وأصبحت
الولاية الرابعة للوجه القبلى . غير أنه ترتب على الصراع القائم بين
العرب والمماليك فى الصعيد فى أواخر العصر المملوكى أن تقلص
ال عمران وضعف شأن هذه البلاد . فلم يبق إلا رسوم قبلى الولاية
الجهدى فى محوها .^(١) باستثناء ولاية أسوان (محافظة أسوان حالياً)
التي استحدثت فى العصر المملوكى . فمدينة قوص التي كانت
أكبر حواضر الصعيد أصبحت بحيرة مدينة صغيرة ثم أحرقت
تعدلات فى الولايات الصغرى بالوجهين القبلى والبحرى وأغلبها
استحدثت فى الروك الناصرى^(٢) فاستند بعضها الى موظفين أقل رتبة
من سابقهم . ومن أمثلة ذلك :

أ- ولاية الجيزة التي أصبح واليها برتبة أمير عشرة .

وكان قبل ذلك أمير طبلخاتاه .

(١) المقرئ ، الخط ، ج ١ ، ص ٢٠٧

(٢) ابن نجرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٩ ، ٤٠ بالقلم .

ب- منفلوط

”وقد عين عليها وال برتبة ”أمير عشرين“ وهذه الرتبة تقارب مع رتبة أمير عشرة اذ أن كل رتبة دون الأربعين تعد قى العشرات ^(١) وكان واليها قبل ذلك أمير طبلخاناه .

ج- اطيح .

وكان واليها برتبة أمير عشرة ^(٢) .

وضمت أخيم الى قوص وأصبحت ولاية واحدة .

أما أسيوط فقد كانت مقرا لوالى الولاية وبذلك فلم يعين لها وال وكان والى الفيوم برتبة أمير طبلخاناة ثم استقرت كشفا ^(٣) .

وفى الوجه البحرى : عين وال برتبة أمير عشرة على كل من الولايات الصغرى الآتية :-

قليوب - وأشموم - طناح - ودمياط - وقطيا ^(٤) .

وانتهى التقسيم الاقليمى لمصر زمن خليل الظاهرى الى (١٤) اقليما منها بالوجه القبلى سبعة أقاليم وبالوجه البحرى سبعة هى: ^(٥) .

(٧) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

(١) القلقشندى صبح العلى ، ج ٤ ، ص ٤٣

(٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٦

(٣) نفس المصدر ص ٢٧

(٤) خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك ص ٣٧ ، ٣٥

الوجه القبلى : الجزيرة - الألفيحية - الفيوم - البهنساوية -
الأشمونين - السيوطية - القوصية .

الوجه البحرى : القليوبية - الشرقية - الدقهلية - دمياط -
الغربية - المنوفية - البحيرة .

توزيع القبائل العربية فى مصر فى عصر الدولة الأيوبية :-

أولاً: فى الوجه القبلى (الصعيد)

أ - قوص - استقر فى قوص فى بداية عصر الدولة الأيوبية عدد
من القبائل العربية هى :- ١ - بلى ٢ - جهينة ٣ - وبنو هلال
٤ - وبنو كنفز الدولة

١ - بلى :- هم بلى بن عمر بن الحاف بن قضاة من القحطانية
سكنوا الصعيد وكان منهم الأمراء (المقرئى ، البيان والاعراب ،
ص ٢٩ ط القاهرة سنة ١٩٦١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ،
ج ١ ، ص ٣١٦ ، القلقشندي ، قلائد الجمان فى التعريف بقبائل
عرب الزمان ، ميكروفيلم رقم ٣٨١) .

٢ - جهينة :- وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن
أسلم بن لحاف بن قضاة من القحطانية . وكانت بلى وجهينة
متجاورتين ثم حدثت بينهما الشحنة ولم يلبث أن عاد بينهما الوئام
وكانت جهينة أكثر عرب الصعيد (المقرئى ، - البيان والاعراب ،
ص ٣٢ ، القلقشندي فى نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ،
ص ٢٢١ ، ط القاهرة ، القلقشندي ، قلائد الجمان رقم ٣٨١) .

٣- بنو هلال :- هم بنو هلال بن عامر بن قيس عيلان من العدنانية (المقرئى البيان والاعراب ص ٢٨) . كان قلوب أول جماعة منهم الى مصر فى ولاية الوليد بن رفاعه فى عام ١٠٩ هـ . يذكر الكندى أن عبيد الله بن الحبحاب وفد على الشام - فسأل أن ينقل اليها أبياتا من قيس فأذن له هشام فى الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على ألا ينزلهم القسطنطين . ففرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم فأنزلهم الخوف الشرقى وفرقهم فيه وأمرهم بالزراع وتربية الخيول . وكان من بينهم " مائة أهل بيت من بنى عامر " (محمد بن يوسف الكندى ، الولاة والقضاء ، ص ٧٦ ، تحقيق رفن جست ، ط بيروت ١٩٠٨) ، بنو هلال من القبائل التى وفدت الى مصر ضمن من قدم من بنى عامر " الدكتور عبد الله خورشيد البرى القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ص ١١١ ، ط القاهرة ١٩٦٧) فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله وبأمر منه هاجرت جماعات كبيرة من بنى هلال وسلم من الشام الى مصر وأنزلهم فى الصعيد بالعدوة الشرقية من النيل وكانوا أهل بلاد الصعيد كلها الى عيذاب ولكنهم أحدثوا شغباً وأضرارا بالبلاد فأغرامهم الفاطميون فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، بالمجرة الى بلاد المغرب لمحاربة الصنهاجيين العصاة لاختصاصهم فهاجروا من مصر الا قليلا منهم (العبر ، ج٦ ، ص ١٤ ، الاستقصا ، ج١ ص ١٦٧ ط القاهرة ١٨٨٢ ، البيان والاعراب ص ٢٨ ، ١٢٧ ، ط القاهرة ١٩٦١ ، معجم كحالة ج٣

ص ١٢٢١ ، ط بنحوت. ١٩٦٨ ، المغرب الكبير ص ٦٦٦ ، ط القاهرة ٦٦) لكن بنى. كنز الدولة ^(١) لم يلبثوا أن انسحبوا من قوص الى السودان بعد مقتل زعيمهم كنز الدولة أثناء صراعه مع صلاح الدين . وتفصيل ذلك أن صلاح الدين قام بمنع اقطاعات من أرض الصعيد الى بعض أمراء دولته فعارض كنز الدولة ذلك التقسيم ورفض الاذعان للنظام الجديد . ثم تزعم كنز الدولة حركة العصيان ضد السلطان مستندا على جماعة السودانين فى مصر ، ولم يلبث أن اشتبك هو وحلفاؤه مع الأيوبيين فقتلوا عدة من أمراء الدولة وشرعوا فى الانجاء الى - القاهرة مستهدفين اسقاط الدولة الأيوبية . لم يجد صلاح الدين بدا من مقاتلة كنز الدولة فسير لهذا الهدف جيشا أوقع به الهزيمة وانتهت المعارك بمقتل كنز الدولة وانسحاب بنى الكنز من الصعيد جنوبا الى السودان . ^(٢)

أما القبائل العربية الأخرى المستقرة فى قوص ، وأعشى بها بلى وجهينة وبنى هلال وهى قبائل يمنية ، فيبدو أنها لم تنضم الى قبيلة بنى الكنز وهى قيسية من ربيعة - فى صراعها ضد الدولة الأيوبية اذ

^(١) بنو الكنز : هم من ربيعة بن نفل بن معد بن عدنان وبنو الكنز هؤلاء كان لهم دور فى حماية الحدود المصرية لمصر قبل العصر الأيوبي . (البيان والاهراب - ص ٤٧) .

^(٢) أبو الفدا ، تاريخ أبو الفدا ج ٣ - ص ١٥٩ ، ابن بطون ، مصر ج ٥ ، ص ٢٨٨ القرطبي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ص ٥٧ ج ١ ، ٢ ، ط القاهرة .

أن حمرة تلك القبائل العربية (بنى وجهنة وبنى هلال لم تتم الا في
عصر لاحق ^(١)

والظاهر الحقيقية من الصراع بين العصبتين اليمنية والمغربية الذي
يلغ ذروته في العصر الأموي كانت مازال تعكر صفو الصلات بين
هاتين العصبتين ولعل ذلك كان سببا في أن - القبائل اليمنية لم
تلتحق جاثبا في الصراع بين بنى الكنز وبين الأيوبيين .

ب- الأشمونين :-

استقر بالأشمونين في الصعيد الأوسط عدد من القبائل العربية هم
الجعافرة والطلحيون والقرشيون وكانت تجمع بين هذه القبائل
الثلاث صلة نسب وقرابة ربطت بينها فكانت بدا واحدة . وقد
أجمعت هذه القبائل الثلاث على تأييد الأسرة الأيوبية فحاربت مع
نبي أيوب في مصر ضد الصليبيين ^(٢) .

وفيما يلي توزيع للمناطق التي نزلتها هذه القبائل في العصر
الأيوبي :-

١- الجعافرة :-

والجعافرة الذين سكنوا الأشمونين هم :

(١) أحمد لطفى السيد ، قبائل العرب في مصر ، ص ٤٩ ، ط القاهرة .

(٢) أبو شامة ، الرواديين في أخبار الدولتين ص ١٦٨ ، ١٧٠ ، ط القاهرة .

بنو جعفر بن أبي طالب وقد نزلوا المنطقة الواقعة ما بين متفلوط
وسمالوط ^(١) بنو جعفر الصادق . وهم بنو اسماعيل بن جعفر الصادق
بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ويعرفون
أيضا بأولاد الشريف ^(٢) . ويذكر القلقشندي أن للمنطقة الممتدة
من متفلوط الى سمالوط كانت منزلا لبني جعفر الصادق ^(٣) في حين
- يشير المقرئى الى أنهم سكنوا أسبوط ^(٤) .

والظاهر أن اندماجا بين القبيلتين تم في نهاية العصر الأيوبي بحيث
أصبح بنو جعفر بن أبي طالب وبنو جعفر الصادق يعرفون جميعا
باسم الجعافرة وذلك بعد أن سيطر الأمير حصن الدين ثعلب على
بلاد الصعيد وأصبح أميرا للجعافرة . وقد احتفظ الجعافرة -
بالزعامة على عرب مصر طوال العصر الأيوبي ^(٥)

(١) المقرئى ، البيان والاعراب ، ص ٣٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠ .

(٣) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ١٧٤ .

(٤) المقرئى ، البيان والاعراب ، ص ٤٠ .

(٥) البيان والاعراب ، ص ٣٨ - صبح الاعشى ، ص ٤٤ ، ص ٦٨ - أحمد لطفى السيد بماتل

٢- الطليحيون :

ويتألفون من بنى طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق وقد سكنوا بالرحيين وطحا بالاشمونين^(١) بنى طلحا بن عمر من بنى نعيم بن مرة . وقد سكنوا كذلك بالرحيين وطحا . وهم أيضا أقارب بنى طلحة بن عبد الله^(٢) وأطلق عليهم جميعا اسم بنى طلحة^(٣) وكان بنو طلحة أو الطليحيون كما يسميهم أبو شامة - بدا واحدة مع بنى الزبير إحدى بطون قريش والجعافرة .^(٤)

٣- القرشيون :-

حارب القرشيون مع أسرة بنى أيوب فى مصر ضد الصليبيين^(٥) - والقرشيون الذين أشار اليهم أبو شامة هم : بنو زهرة وبنو مخزوم وبنو أمية . وبنو بدر من الزبيريين . وكانت منازلهم بالاشمونين^(٦)

(١) البيان والاعراب ، ص ٤٠ - القلقشندي ، نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ، ص

٢٢٤

(٢) نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ، ص ٢٩٢ .

(٣) صبح الامشى فى صناعة الانشا ، ج ١ ، ص ٢٥٢

(٤) البيان والاعراب ، ص ٣٥

(٥) التوضيحين ، ج ١ ، ص ٢٦٨

(٦) البيان والاعراب ، ص ٤٠ - صبح الامشى ، ج ١ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٥ ، نهاية الارب

ص ٨٥ .

ج- البهنسا :-

وتتألف القبائل العربية الضاربة في البهنسا من بني الزبير وبني مصلح وبني رمضان وبني شمية ويعرفون بجماعة نهار وهم قرشيون^(١) وكانت الرقاسة في العصر الأيوبي في البهنسا في بيت من لواته المتعربين هما أولاد زعازع وأولاد قريش^(٢).

ثانيا :- في الوجه البحري :

أ - الشرقية :

من الحقائق التاريخية الثابتة أن أولى القبائل العربية التي نزلت بالشرقية هي :-

- جزام اليمنية ويقال أنها مضرية ثم نسبت الى قبائل سبأ الجنوبية بعد هجرتها الى اليمن .^(٣) وقد نزلت جلام بادئ ذي بدء

(١) البيان والاعراب ، ص ٤٠ ، ٤٣ - صبح الاعشى ، ج١ ، ص ٢٥٥

(٢) البيان والاعراب ، ص ٥٥ - صبح الاعشى ج١ ، ص ٦٧

أسرته وهوائه : قبائل مغربية جاءت مع جمع الفاطميين الى مصر واستوطنتها واستقرت في المنطقة الواقعة بين مصر والإسكندرية واحتلّت قبائل العرب وخاصة القيسية وطبعت نفسها اليهم (ابن خلدون العرب ، ج١ ، ص ٦ ، - أحمد لطفي السيد ، قبائل العرب في مصر ص ٥٣).

(٣) زعم نسابه مصر ان جلاما مصرية وان نسبة جلام الى اليمن انما جاءت بعد هجرة جلام لرض اليمن (القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٦ .

بالفسطاط ثم استقرت بأرض الخوف في ^(١) عصر الدولة الأيوبية .
وفي عام ٥٦٥ (١١٦٩) أصدر صلاح الدين أمره إلى عرب حذام
بالشرقية بالانتقال إلى البحيرة وذلك لعدم رضائه عن اشتغالهم
بالتجارة مع الفرنج . ومع ذلك فإن جماعة منهم ظلت تسكن
بالشرقية بدليل أن حملة عسكرية وجهت إلى الشرقية . في عام
٥٨٠ (١١٨٤) لاجتماع فتنة وقعت بين عرب حزام ^(٢) وبدليل وقوع
اشتباك بين عرب - حزام و ثعلبة في عام ٩٣٦ (١٢٣٨) أدت إلى
تجريد حملة لإعادة الأمور إلى نصابها . وهكذا تبين لنا أن حزاما
ظلت تسكن الجانب الغربي من منطقة الشرقية بالرغم من إحلال
ثعلبة كلها بأمر من السلطان صلاح الدين . ^(٣)

٢ - ثعلبة وجرم :

بنو ثعلب بطن من طى من القحطانية فينسبون إلى ثعلبة بن
سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طى من القحطانية . ^(٤) أما
بنو حرم وينسبون إلى ثعلبة بن عمرو بن الغوث بن طى من
القحطانية ثم قدموا إلى مصر في عصر الدولة الأيوبية ونزلوا بأمر

(١) الكندي ، كتاب الولاية والتبصرة ، تحقيق ركن حسنة ، ص ١٥١ ، ط بيروت ١٩٠٨ .

(٢) القزويني ، السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ٨٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٨٢ .

(٤) البيان والأمراء ، ص ٣ ، ٥ - القحطاني ، نهاية العرب ، ص ١٩٤ ، ٢٠٩ .

صلاح الدين في منطقة الشرقية ^(١) وبذكر القلقشندي أن بكل من
ثعلبة مصر والشام قوم من ختلف وقيس ومراد ^(٢) .

ب - المنوفية :-

سكنت المنوفية قبائل لواته التي ، كانت تنسب نفسها الى العرب
- فذكروا أنهم من قيس عيلان . وقد اختلف المورخون في اثبات
صحة نسبهم الى العرب ^(٣) . ومن الثابت أنهم يبرر ثم تعربوا
بسبب اختلاطهم بقبائل العرب في مصر قبل عصر الأيوبيين
وانتسبوا الى قبيلة قيس عيلان ^(٤) .

ج - البحيرة :-

ونزلها من قبائل العرب .

١ - بنو سنيس :

وهم بطن من القحطانية ^(٥) . فعندما قامت للدولة الأيوبية
في مصر كان قد مضى على هجرة بنى سنيس من فلسطين الى مصر
واستقرارها في اقليم البحيرة مايقرب من قرن وربع قرن من الزمان .

(١) البيان والاعراب ، ص ٦ ، ٧ ، ١١٧ ، ١١٨ - القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٦٩٥ .
٧٢٠ .

(٢) البيان والاعراب ، ص ٤٩ ، ٥٠ - القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٤١١ .

(٣) البيان والاعراب ، ص ٤٩ ، القلقشندي ، نهاية الارب ، ٤١١ .

(٤) العرب ، ص ٨ .

(٥) البيان والاعراب ، ص ٧ - القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٩٦ .

وبقيت سبب في اقليم البحيرة طوال العصر الأيوبي وتحالفت مع قبائل ثعلب من الجعافرة وتخضعت لزعامة حصن الدين ثعلب^(١).

٢- هواره :

وهم بربر متعربون يتسبون الى عرب اليمن . وقد اختارت - هواره اقليم البحيرة منذ نزوحهم الى مصر قادمين من بلاد المغرب قبل قيام الدولة الأيوبية . وظلوا ينزلون باقليم البحيرة طوال العصر الأيوبي^(٢).

٣- لواته وبنو عوف :-

نزلت باقليم البحيرة طوائف من لواته المتعربين ومن بني عوف^(٣).

القبائل العربية وتوزيعها في عصر المماليك

عندما اعتلى عز الدين أيلك عرش السلطنة في مصر ٦٤٨-٦٥٥ (١٢٥٠ - ١٢٥٧) مؤسساً بذلك دولة المماليك البحرية رفض العرب الخضوع لسلطان هذه الدولة الجديدة ويشير المقرئى الى هذا الموقف العربى المعارض بقوله " وأنفت مصر من تملكه عليهم كذلك بذكر بن تغرى يردى أن أيلك أطلق مدة سلطته من الأموال

(١) البيان والاعراب ، ص ٩ - التلخيص ، نهاية الأرب ، ص ٩٧

(٢) العرب ، ص ٥ - البيان والاعراب ، ص ٥٨ ، نهاية الأرب ص ٤٤

(٣) البيان والاعراب ، ص ٢٨ ، ٢٨ .

والخيول وغير ذلك مالا يحصى كثرة حتى رضى الناس بسلطان قد
مسه الرق . وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك ^(١) . ولم تلبث
المعارضة العربية أن تحولت الى ثورات عارمة ضد سلاطين المماليك
بدأت تنشب منذ ٦٥١ (١٢٥٢) التي ثار فيها العربان ببلاد الصعيد
والوجه البحرى ويضيف المقرئى قائلا " واجتمع العرب وهم
يومئذ فى كثرة من المال والخيول والرجال الى الامير حصن الدين
ثعلب وأتوه من أقصى الصعيد وحلقوا له كلهم فبلغ عدة الفرسان
اثنى عشر ألف فارس وتجاوزت عدة الرجال الاحصاء لكثرتهم ^(٢)
ولكن العرب لم يلبثوا أن انهزموا عند اللقاء وأدى ذلك الى تفرقهم
فى أنحاء مصر ، فتعقبهم المماليك فى كل ناحية واستولوا على جميع
ممتلكاتهم فتبدد ثملهم وهدمت جمرتهم من حينئذ ^(٣) .

وترقب على تفرقهم أن تغيرت خريطة توزيع القبائل العربية فى
مصر بعد ذلك مباشرة وواصل العرب ثورتهم ولم يتحولوا عن
موقف المعارضة للحكم المملوكى الا فى الظروف التى تعرضت فيها
البلاد لخطر الغزو الخارجى .

(١) ابن تقيى بردى ، النجم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨٧ .

أولا : فى الوجه القبلى

أ- قوص :

١- أولاد الكنز :

كان بنو كنز الدولة قد انسحبوا من أسوان بعد هزيمتهم أمام الأيوبيين ، ألا أنهم عادوا الى الظهور مرة أخرى فى العصر المملوكى . وكانوا فى هذه المرة عوناً للدولة ضد أعدائها : ففى عام ٦٨٦ (١٢٨٨) قامت حملة عسكرية من مصر لشاديب سامون ملك النوبة لخروجه على طاعة قلاوون سلطان - مصر . وجاء ذكر أولاد الكنز فى جملة القبائل العربية التى خرجت مع الحملة ^(١) وظل أولاد الكنز يقيمون بالصعيد الى أن نشب القتال بينهم وبين هواره التى لجأت الى الصعيد بعد أن اضطرها السلطان برقوق الى الانسحاب من البحيرة بعد معارك عام ٧٨٢ (١٢٨٠) والاقامة فى جرجا التى كانت تتبع اقليم قوص بالصعيد الأعلى . ففى عام ٨١٥ (١٤١٢) زحفت هواره الى اسوان وحاربت بنى الكنز وهزمتهم فاضطروا الى الانسحاب الى السودان واستقروا هناك ^(٢) .

(١) ابن بطون ، المعر ، ص ٤٠٦ ، التبريزى . الخطط ، ص ١٤ ، ص ٣٢١ ، السلوك ، ص ٢ ، ص ٧٣٦ .

(٢) التبريزى ، البيان والامراب ، ص ٥٨ .

٢- بنو هلال :

شارك بنو هلال فى الحملات الخيرية ضد السودان ^(١) وظهروا أيضا فى معارك الصعيد الداخلية . وفى عام ٧٥٢ (١٣٥١) هاجم بنو هلال عرب عرك (بطن من جهينة) بتحريض من سلاطين المماليك الذين كانوا يعملون على اضعاف القوى العربية بالصعيد . وفى عام ٧٥٣ (١٣٥٢) عاد المماليك الى استغلال الصراع القائم بين عرب عرك الجهينة وعرب هلال القيسية عندما دعوا فرسان بنى هلال الى قتال عرب عرك ، ثم قبضوا عليهم واستولوا على خيلهم وأسلحتهم ووثبوا عليهم قتلا ونهباً فى منفوط وأسيوط ^(٢) .

ب- الأشمونين والبهنسا :-

١- هرك :-

وهم بطن من جهينة من عرب اليمن جنحوا الى الهدوء بالصعيد فى عهد السلاطين قفلز وبيرس وقلاورن ، الا أن حركاتهم - الثورية التى قاموا بها فى أعوام ٧٠١ ، ٧١٣ ، ٧٣١ فى عهد الناصر محمد بن قلاورن دفعته الى استخدام العنف ضدهم ^(٣) .

(١) السلوك ، ج١ ق ٣ ، ص ٧٣٦

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ق ٣ ، ص ٩١٨ ، ج١ ق ١ من السلوك ص ١٢٨ ، ج٢ ق ٢ ، ص ٣٢٤ ، ابن الهيثم ، بلاتع الزهور ج١ ص ١٣٤ ، ج٢ ط الشعب .

(٣) ابن خلدون المعر ، ج٥ ، ص ٤٥٠ - المقرئى ، السلوك ج٢ ق ٣ ص ٩١٠ ، بلاتع الزهور ، ج٢ ، ص ١٧١ .

وفى عام ٧٥٤ (١٣٥٣) فى عهد الصالح صلاح الدين بن قلاوون ثار محمد بن واصل الأحمد شيخ عرب عرك على الماليك واجتمع معه عرب الصعيد ^(١) . ولكن الثورة أسفرت فى النهاية عن هجرة كثير من القبائل العربية التى تقطن مصر العليا الى السودان ^(٢) ومن بين هذه القبائل بلو وجهينة وهى قبائل يمنية ^(٣) هاجرت فى العصر المملوكى من مصر الى السودان حيث استقرت وانتشرت وتملكت هذه البلاد بعد ذلك ^(٤)

أما العرب الذين آثروا البقاء فى مصر ولم يهاجروا فقد دفعت بهم الظروف الى الاندماج مع المصريين فى علاقات نسب ومصاهرة فارتفع عدد من دخل فى الاسلام من أقباط مصر نتيجة لذلك . ويشير المقرئى الى أن فى عام ٧٥٥ (١٣٥٤) تحول عدد كبير من المصريين الى الاسلام ^(٥) ومن نتائج تلك الثورات العربية أيضا أن قبائل العرب تداخلت انسابها وأصبحت أكثر ارتباطا بالأرض فصاروا ينسبون اليها فكان العربى ينسب منذ ذلك الحين الى الاقليم

(١) بلاتح الزهور ، ج ٢ ص ١٧٢

(٢) البيان والاعراب ، ص ٢٩ ، ٣٢

(٣) أحمد لطفي هاشم ، قبائل العرب ص ٤٨ ، ٤٩ ، Encyclopaedia , I , P. 106 & mac. 138

(٤) السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٨٥٠ ، ٨٩٦ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٩١١ .

الذى يعيش فيه . مثل قولهم (عرب الصعيد) و (عرب منفوط)
(عرب المراغة)^(١)

٢- فزارة :-

وهم من قيس عيلان ، ويذكر المقرئى أنهم كانوا أحلاقا لبنى
ثعلب من الجعافرة^(٢) وكانت فزارة أيضا على حد قول خليل بن
شاهين ممثلة فى الجيش المملوكى^(٣) .

جـ - الجيزة :-

١- محارب :-

وهم من بنى سليم من القيسية كانوا ينزلون فى المنطقة المشدة
ما بين الاسكندرية والعقبة^(٤) وقد اشتركت جماعة من فرسان محارب
فى حملة فرسان القبائل التى أمر السلطان طومان باى باستدعائها
للاضمام الى قوة الجيش المملوكى المتجه الى الشام . ويشير ابن
اياس الى اشتراك هؤلاء العرب فى قتال العثمانيين بقوله وفى يوم
الأربعاء سابع ذى القعدة (٩٢١) ١٥١٥ حضر الى الأبواب

(١) السلوك ، ج ٢ ، ص ٢ ، ص ٨٥٠ ، ٨٩٦

(٢) البيان والاعراب ، ص ٣٦ ، ٤٩ - أحمد لطفي السيد ، قبائل العرب ، ص ٥٤ ، مصر
كمدالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ج ٢ ص ٩١٨ ، ط بيروت ١٩٦٨

(٣) فرس الدين خليل ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والسالك ، ص ١٠١
ط ١ ط باريس عام ١٨٩١ .

(٤) البيان والاعراب ، ص ٧٦

الشريفة جماعة من طوائف العربان من عزالة ومحارب ومن عربان
هواره . وكان السلطان - الزم مشايخ العربان أن يأتوا وصحبتهم
جماعة من فرسان العرب ممن هو أشجعهم حتى يتوجهوا صحبة
التجريدة مع العسكر^(١) . وقد ورد اسم عزالة في النص السابق
مقرونا باسم محارب ، ومن المعروف أن عزالة كانت تسكن الجزيرة
وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستنتج أن بني محارب كانوا يتزلون
أيضا بهذه المنطقة أو قريبا منها .

٢- بنو عدى :

وهم بطن من لخم ، منهم بنو موسى وبنو محارب كانوا يسكنون
الجزيرة^(٢) وقد ثار بنو عدى عام ٨٧٤ (١٤٦٩-١٤٧٠) في عهد
السلطان قايتباي ، وعلى الرغم من أن ثورتهم ترجع الى أسباب
اقتصادية فان الممالك قابلوا ثورتهم بالعنف^(٣)

(١) بلقيع الزهور ، ج ٩ ، ص ١٠٦٨ ، زينب كشف الممالك في ١٠٣

(٢) البيان والاعراب ، ص ٩٠ ، القلقشندي - نهاية الارب ص ٣٥٨ ، القلقشندي ، كلائد
الجمان ، ميكروغرام ٢٨١ .

(٣) بلقيع الزهور ، ج ٤ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

٣- حرب العزلة :-

وهم حتى من العرب كان يقطن حيزة مصر^(١) ولكن ابن ايلس يذكر أنهم ثاروا في عام ٩٠٤ (١٤٩٨-١٤٩٩) على كاشف البحيرة مما يؤكد أنهم كانوا يسكنون البحيرة ، ثم توجهوا الى القاهرة واشتبكوا مع قوة من المماليك السلطانية في منطقة المعصرة فسقط من المماليك السلطانية همسون قتيلًا ، ثم انسحب - عزلة بعد ذلك والتجأوا الى الصعيد .^(٢) ولم يلبث المماليك أن شنوا عليهم بالصعيد هجوما مباغتًا واعتقلوا منهم نحو ثلاثمائة أنزلوا بهم أشد أنواع العقاب .^(٣) والظاهر أنهم عادوا الى الثورة على المماليك بعد ذلك بسنوات . ففي عام ٩١٨ (١٥١٢) في عهد السلطان الأشرف قانصوه الغوري - فخرجت حملة عسكرية من المماليك الى الصعيد وعادت بعد اعدام ثمانية من عرب عزلة^(٤)

ولقد كانت ثورات عزلة وانتقام المماليك الجراكسة منهم سببا في أن عرب عزلة وقفوا من المماليك موقفا يختلف عن موقف بقية القبائل العربية منهم رفضوا أن يتعاونوا مع المماليك ضد العثمانيين حاول السلطان طومان باي استمالة عرب عزلة الى جانبه الا أنهم

(١) ابن ايلس ، منابع الزمور ، ج٢ ص ١٠٦٨ ، مورخا كمال ، معجم قبائل العرب ج٢ ص ٧٧٧ .

(٢) منابع الزمور ، ج٢ ، ص ٦٤٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤٩ .

(٤) نفسه .

رفضوا الانضمام اليه بحجة عدم وثوقهم من قدرتهم على الانتصار على العثمانيين . ولكن المؤكد أن عرب عزالة لم يتمكنوا من التخلص مما علق في نفوسهم من مشاعر البغض والكراهية للمماليك بسبب سياستهم التعسفية نحوهم وضروب الاضطهاد الذي تعرضوا له على أيديهم^(١) .

٤ - هواره :-

وهم من قبائل العرب المتعربين وكانوا يسكنون الصعيد منذ أن انتقلوا اليه في عهد المنصور على بن شعبان عام ٧٨٢ (١٢٨٠) . وقد نشطت هواره بزراعة الأرض وصناعة السكر وكثرت أموالها ، وامتد سلطانها منذ عام ٨١٥ (١٤١٢) فشمل إقليم الصعيد كله ، - وأصبحت لهم الزعامة على سائر عرب الصعيد^(٢) وكانت الرئاسة في الصعيد لا على لاولاد عمر من هواره وفي الصعيد الأوسط لاولاد غريب وهم من هواره أيضا . وبالرغم من أن هواره كانت في جملة القبائل الممثلة في جيش مصر المملوكي^(٣) إلا أنهم ثاروا على المماليك في عام ٨٨٢ (١٤٧٧) بزعامة يونس بن عمر بسبب سياسة المماليك التعسفية ويعبر ابن اياس عن ذلك فيذكر أن عرب هواره قاموا بثورة عنيفة فقتلوا فيها جماعة من جنود

(١) ابن زيل الرمال ، تاريخ السلطان سليم ط القاهرة ص ٧٩ .

(٢) القلقشندي ، سبج الاعلى ، ج٤ ، ص ٦٨ - القلقشندي ، نهاية الارب ص ٤٤١ ،

٤٤٢ .

(٣) مطول بن شاهين ، زينة كشف الممالك ، ص ١٠٢ .

أي لهذا الأخير وعزم على التوجه بنفسه

بين داود بن عمر على عرب هواة
لك فقد عاودت هواة الثورة من
١ . وبالرغم من تكرار ثورات عرب
الجيش المملوكي حتى عام ٩٢٢
جملة ما أورده من أخبار عن أحداث
ضرب إلى الأبواب الشريفة جماعة من
رب ومن عربان هواة وكان السلطان
عسجتهم جماعة من فرسان العربان ممن
محببة التجريدة مع العسكر . فلما
ها الجسم الفقير من العربان ثم دخلوا
م السلطان بالميدان ^(٢) وظلت الإمارة
بأية العصر المملوكي وبداية العصر

٥- بنو كلب :-

وهم بطن من العرب من قضاة سكنوا الصعيد ^(١) ويدلوا أنهم كانوا من الكثرة بحيث أنه عندما وقعت الفتنة بينهم وبين بني عدي في عام ٩١٦ (١٥١٠) كان يخشى بسببها منهم على كل بلاد الصعيد . ^(٢)

ثانيا : في الوجه البحري

أ- الشرقية :

١- بنو حرام :

وهم بطن من حزام من القحطانية ^(٣) وكانوا يسكنون إقليم الشرقية ، وقد ثار بنو حرام في ٨٧٦ (١٤٧١) في جملة من ثار على قايتباي من عرب الشرقية وتفصيل ذلك أن قايتباي أمر في ٨٧٢ باعتقال عدد من أشقاء العرب صدرت ضدهم أحكام بالاعدام توسطها كان بعضهم ينتمي الى قبائل بني حرام وبني سعد

(١) القلقشندي ، نهاية الارب ص ٤٠٨ ، القلقشندي ثلاث الجمان مبكرو ص ٢٨١ .

(٢) ابن اهل ، نتائج الزهور ، ج ٧ ، ص ٧٩٧ .

(٣) القريري ، البيان والاعراب ، ص ٦٢ ، القلقشندي نهاية الارب ص ٢٣١ عصر كماله ، معجم قبائل ط ١ ، ص ٢٥٧ .

وبنى وائل بالشرقية ، ولهذا السبب هاجت نائرة عرب الشرقية على السلطان وحكومته ^(١)

٢- العائد :-

وهم بطن من حزام من القحطانية ومن أقدم القبائل العربية في مصر وقد سكنوا في المنطقة الممتدة بين بلبس والعقبة بفلسطين وكانوا يتولون حراسة القوافل في هذه المنطقة ^(٢) ومن زعماء العائد في العصر المملوكي محمد بن عيسى الذي يرجع اليه الفضل الأعظم في إعادة السلطان شعبان الى الحكم ٧٦٤ - ٧٧٨ - (١٣٦٢ - ١٣٧٦) وكان قد أبعد بتدبير من بعض أمراء المماليك ولكن لم يتهبأ لهذه الخطة أن تنجح بسبب معارضة أحد الأمراء من أفراد حاشية السلطان . يذكر ابن اياس أن محمد بن عيسى شيخ العائد قابل السلطان بعد مؤامرة خلعه من الحكم وقال له " آخذك وأتوجه بك من هنا (العقبة) الى غزة فتقيم بها حتى تتسامع بك العساكر وتجتمع عليك العرب وترجع الى القاهرة وتأخذ الملك بالسيف ^(٣) وأغلب الظن أن قوة المعارضة ضد السلطان كانت السبب في رفض أرتون شاه الأمير المملوكي قبول تلك الخطة وتنفيذها . ولكن

(١) ابن اياس ، بستان الزهور ، ج ٤ ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٥ .

(٢) البيان والأعراب ص ١٩ ، ١١٨ ، القلقشندي ، نهاية الأرب ص ٣٢٣ ، معجم ق ج ٧ ، ص ٧١٥ .

(٣) بستان الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٠١ .

لايستبعد أن يكون هناك سبب آخر هو بغض أمراء المماليك للعرب وخوفهم منهم اذ أن العرب كانوا يمثلون المعارضة للحكم المملوكى.

٣- بنى صيرة :-

وهم من بنى حرام بن حزام^(١) وقد سكنوا بركة الحجاج التى كانت تسمى ببركة الجب من ضواحي شمال القاهرة . ومنها كانت تخرج قوافل الحجاج ، وكان بنو صيرة يتولوا حراستها فى هذه المنطقة^(٢) كما كانوا يقومون بحراسة منطقة سرياقوس احدى ضواحي القاهرة^(٣) فى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (٧٤٨ - ٧٦٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٦٠ م) .

٤- بنو سعد :-

وبنو سعد هم من بنى حرام بن حزام . وقد سكنوا الشرقية يذكر القرينى أن لجزام خمسة سعود وان الخمسة اختلطت بمصر منهم أكثر مشايخ البلاد وخفراؤها ، وان لهم مزارع^(٤) . وكان لعرب الشرقية دور رئيسى فى الدفاع عن البلاد بالمال وبالنفس^(٥) .

(١) البيان والامراب ج١ ، معجم قبائل ج١ ص ٢٥٧ .

(٢) القرينى ، البيان والامراب ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٣ .

(٣) القرينى ، السلوك ج٢ ق ٢ ص ٧١٨ .

(٤) القرينى ، البيان ، ص ٢٠ ، القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٢٨٧ ، القلقشندى علاء الجماعة مذكرو رقم ٣٨٩ ، ص ٢٠٠ ، ص ٢٠١ ، ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٣ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ، ص ٥٥٨ .

٥- بنو وائل :-

وهم بنو وائل بن عوف بن ثعلبة بن سلامان بن طيء من القحطانية ^(١) ومن المعروف أنه وقعت بين وائل وبنى حرام معارك في عام ٩٠٢ (١٤٩٧) ترجع في الظاهر الى عوامل اقتصادية فان ابن ابياس يذكر أن السلطان الاشرف قايتباي "صادر جماعة من أعيان التجار ومن تجار الارياف " ورمى على البلاد التي في الشرقية. شيئا يقال له الخمس بسبب خيالة تخرج مع التحريشة الى ابن عثمان " ومنها أنه كان ولي جماعة من مماليكه عوضا عن مشايخ العربان فجاروا أيضا على الفلاحين وأخذوا منهم غير العادة أضعاف . وكذلك الكشاف يقرر عليهم الاموال فيجورون على البلاد ^(٢) .

ومن الجدير بالذكر أن ما وقع باقليم الشرقية من قبيل المصادرات وزيادة الضرائب وما استولى عليه الممالك الذين ولاهم السلطان على البلاد بدلا من مشايخ العربان فضلا عما ذكره ابن ابياس من جور الكشاف . كل ذلك كان عبئا ثقيلا لم يحتمله عرب الشرقية . وبالإضافة الى ذلك فقد كان لبعض أمراء الممالك دور في افساد العلاقات بين قبائل العرب بعضها ببعض . وقد أدرك بنو حرام دور الأمير أقردي في قيام الفتنة بينهم وبين بنى وائل فانقموا منه

(١) القحطاني ، نهاية العرب ، ص ٤٤٦ ، القحطاني ، تلخيص المسامحة ٣٨١ عبر كسافة
معجم قبائل العرب ج ٣ ، ص ١٢٤٤ .

(٢) ابن ابياس ، نتائج الزهور ، ج ٦ ، ص ٩٧ .

وكادوا أن يقتلوه . يقول ابن ابلس " وسبب ذلك أنه سيطر عليهم
بنى وائل وقتل منهم فى مدة المعركة مالا يحصى " (١) . والواقع ان
الفتن التى قامت بين أمراء المماليك كانت تتعكس آثارها على
العرب ، وان ابن ابلس يؤكد أنه لما وقعت عصر الفتن بين الأتراك
وقعت أيضا بين العربان (٢) . وذلك لما كان للمماليك من نفوذ
وسلطان ، هذا بالإضافة الى كثرة مؤثراتهم فيما بينهم فيلحق
العرب جانب من ذلك الموقف المضطرب . كذلك واجه العرب
المتاعب من جانب الكشاف حتى أنه فى عام ٩٠٧ (١٥٠١) رفض
عرب الشرقية استقبال الأمير قانصوه ابن سلطان الذى عينه السلطان
كاشف على الشرقية ، فاضطر الى الإقامة بها نحو من أربعين يوما
ورجع من غير طائل . (٣)

ب- القليوبية :-

هذا الاقليم من الأقاليم المستحدثة فى عهد الناصر محمد بن
قلاوون بعد أن أراك البلاد المصرية سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥) الروك
المعروف بالناصرى ، وأجرى التعديلات فى نظام تقسيم الأراضى

(١) ابن ابلس ، ملحق الزهور ج ٦ ، ص ٦٢٤

(٢) نفس المصدر ص ٦٢١

(٣) نفسه ، ج ٧ ، ص ٦٩٩

واعداد توزيع الاقطاعات الزراعية ، - قيد أدى ذلك الى فصل هذا الاقليم عن الشرقية تحت اسم " الاعمال القليوبية " (١) .

١- بنو فزارة : وهم من قيس عيلان قد سكنوا القليوبية (٢) .

٢- بنو بدر : وهم من بني فزارة وقد سكنوا القليوبية ويذكر القلقشندي أن " لبني بدر الرياسة والقوة والغلبة " (٣) . وبنو فزارة من القبائل التي كانت ممثلة في الجيش المملوكي (٤) .

جـ المنوفية :-

١- لواته المتعربين : وقد سكنوا المنوفية ، ورغم المعارك التي قامت بين العرب والمماليك فقد ظلت بقية من لواته تقيم بالمنوفية (٥) الى أن انضموا الى عرب الغربية (سنابس) وحاربوا المماليك ، فانتصر هؤلاء عليهم وأدى ذلك الى انسحاب العرب من أقاليم الصراع وتفرقوا في أنحاء مصر . (٦)

(١) ابن تيمر بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٢٩ ، ٤٢

(٢) القريزى ، البيان والاعراب ، ص ٤٨ ، ٤٩ - القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٣٥٧ - عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب ، ج٢ ، ص ٩٩٨ .

(٣) القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ١٧٥ - عمر كحالة - معجم قبائل ، ج١ ص ٦٩

(٤) خليل بن شاهين ، زينة كلف الملك ، ص ١٠٣

(٥) القريزى ، البيان والاعراب ، ص ٢٨ ، ٦١

(٦) نفس المصدر ، ص ١٠

ثم بقيت بقايا من لواته فى المنوفية بعد عام ٦٥٢ (١٢٥٢) وأعتاد عرب المنوفية الانضمام الى عرب الغربية فى كل ثورة عربية تقوم ضد حكام الماليك . وكانت الزعامة تسند فى جميع الثورات التى قامت فى أقاليم الوجه البحرى عامة الى واحد من عرب قبائل لواته مثل بلر بن سلام والجويلى وغيرهم ^(١) ويستمر دور عرب المنوفية وتضامنتهم مع بقية قبائل العرب فى البحيرة والشرقية والغربية حتى عام ٩١٨ (١٥١٢) . بذليل أن ابن اياس يذكر فى احداث عام ٩١٨ (١٥١٢) أن سبع قبائل تحالفت ضد حكام الماليك وانهم طردوا كاشف المنوفية وغيره من البلاد ^(٢) .

د- الغربية :-

بنو سنيس :- هم بطن من القحطانية سكنوا اقليم الغربية بعد هجرتهم اليه من البحيرة فى أعقاب ثورة عام ٦٥١ . ويذكر القلقشندي أن الأمرة فى العصر المملوكى كانت فى أولاد يوسف . من الخزاولة من سنيس ^(٣)

(١) وما هو جدير بالذكر أن قبائل لواته كان لها دور يذكر فى الصراع الذى نشب بين طوائف الجيش أيام وزارة ناصر النولة بن جفان فى عهد المستعبر إذ انضموا اليه مع القبائل العربية فى حراسته ضد طوائف الجيش الأخرى من السركدان .

Lane poole history of Egypt P. 1/16 London 1901.

(٢) ابن قيس ، نتائج الزهور ، ج ٨ ص ٨٤٥

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧٠ ، عصر كحلانة ، معجم قبائل ج ٢ ص

٢- البحيرة :-

١- لبيد :- وهم بطن من سليم من العدنانية - وكانت تسكن في المنطقة الممتدة ما بين الاسكندرية والعقبة ^(١) ويذكر ابن ابياس أن لبيد هاجمت اقليم البحيرة مرتين الاولى عام ٨٦٥ (١٤٦٠) ^(٢) والثانية عام ٨٧٤ (١٤٧٠) ^(٣) ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن هاتين الثورتين وقعتا عقب ظروف اقتصادية غير طبيعية ^(٤) ففى الأولى كانت الأحوال فاسدة والأمور مضطربة ^(٥) وفى الثانية عم الغلاء مصر والشام ^(٦).

٢- جابر ومرديس :-

ذكر ابن ابياس أنهما طائفتان من العرب كانوا ينزلون فى اقليم البحيرة ثم وقعت الفتنة بينهما فى عام ٦٩٩ (١٢٩٩) ، وترتب عليها انتشار الاضطرابات العنيفة فى الاقليم وتبع ذلك بطبيعة الحال

(١) القريزى ، البيان والاصراب ص ٧١ - القلقشندي ، علاء الجمان رقم ٢٨١ ميكرو فيلم .

(٢) ابن ابياس ، بلاتع الزهور ، ج ٤ ص ٢٧٢

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٢٢

(٤) يذكر ابن ابياس أن وباء الطاعون ظهر عام ٨٦٤ (١٤٩٥) ويصف شدته قائلا أن " كان طاعونا عظيما جدا مات فيه ثلث الممالك والأطفال والجوارى والعبيد والغرياء وان استمر عاملا نحو خمسة أشهر " (بلاتع الزهور ، ج ٤ ص ٣٦٩) . كذلك يصف الغلاء الذى عم البلاد عام ٨٧٤ (١٤٧٠) ويقول " وسمت هذه القلة سائر البلاد حتى البلاد الشامية وفوها " (نفس المصدر ص ٤١٦)

(٥) بلاتع الزهور ، ج ٤ ص ٣٧١

(٦) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤١٦

قيام حملة مملوكية من القاهرة لقمع هذه الفتنة وأرغمت هاتين الطائفتين على الانسحاب غربا الى الجبال . ويذكر ابن خلدون عن بنى جابر : أنهم من جشم^(١) وجشم من جزام^(٢) ولكن ابن خلدون يستدرك قائلا عن بنى جابر أنهم ربما كانوا من القبائل المغربية زناته أو لواته ، ويذكر أيضا أن بأرض مصر والصعيد منهم كثير أما القلقشندي فيذكر أن بنى جابر من جزام القحطانية وأنهم كانوا ينزلون في غزة بفلسطين^(٣) . أما مرديس فبطن من جزام القحطانية .^(٤)

٣- هواة :-

ظلت هواة تقيم في إقليم البحيرة طوال العصر المملوكي الى مايقرب من عام ٧٨٢ (١٣٨٠) في عهد المنصور على بن شعبان ٧٧٨ - ٧٨٣ (١٣٧٦ - ١٣٨١) حينما قامت ثورة بزعامة بدر بن سلام انتهت بهجرتها الى الصعيد .

ويذكر القلقشندي أن هواة ظلت تنزل بإقليم البحيرة الى أن " غلبهم على البحيرة زنارة وخلفاؤها وبقية عرب البحيرة فخرجوا

(١) ابن خلدون ، المعر ، ج٦ ، ص ٣٠

(٢) القريزي ، البيان ص ١٣

(٣) القلقشندي ، نهاية الارب ص ٢٠٢

(٤) القلقشندي ، تلخيص الجمل ٣٨١ ، القلقشندي ، نهاية الارب خطوط ١٦٩ نقلا عن

عمر كماله معجم ، ج٣ ، ص ١٠٧٥

منها الى الصعيد^(١) ولكن أحوال البحيرة لم تتغير بعد هجرة هواره
منها الى الصعيد ، بل ظلت الأوضاع على ما كانت عليه منذ ثورة
بلر بن سلام . وذلك أن أسباب الثورات لم تكن ترجع الى سلوك
قبيلة بعينها وإنما كانت ترجع الى أسباب ذات صبغة اقتصادية بحتة .

(١) التلخيص ، نهاية العرب ، ص ٤٤١ .

(الفصل الثالث)

اندماج العرب بأهل مصر

١- اندماج العرب بالأهالي واختطافهم بأعمال الزراعة وتوليهم

المناصب الرئاسية .

٢- الظروف التي أدت الى الاندماج .

(١)

اندماج العرب بأهل مصر واشتغالهم بأعمال الزراعة وتولى المناصب الرئاسية

قدر للقبائل العربية أن تلعب دورها في تعريب مصر مرحلة اثر
مرحلة ، حتى عصر الماليك الجراكسة . واذا كانت ثورات
الدميين في مصر دفعتهم الى الدخول في الاسلام - نتيجة تعرضهم
لظروف اقتصادية صعبة ^(١) فان ثورات العرب ضد الماليك التي
وقعت في نفس الفترة حتى تحدث عنها المقرئى قد دفعت بالعرب
ايضا الى الاندماج في شعب مصر بعد أن أرهقهم الصراع ضد
الماليك .

ويعلق تقى الدين المقرئى على انتشار الاسلام بين أقباط مصر
وما يرتب على ذلك من ارتباط العرب بالمصريين بعلاقات النسب
والمصاهرة وتعلم المصريين للغة العرب حتى كان منهم القضاة
والعلماء فيقول " من حينئذ اختلطت الأنساب بأرض مصر فتكح
هؤلاء الذين أظهروا الاسلام بالأرياف المسلمات واستولدوهن ثم
قدم أولادهم الى القاهرة وصار منهم قضاة وشهود وعلماء ^(٢) فكان

(١) روى ذلك يقول المقرئى في أحداث عام ٧٥٥ (١٣٥٤) . فلما عظم البلاء على
النصارى وقلت أرزاقهم رأوا أن يدخلوا في الاسلام فقلنا الاسلام حلة نصارى أرض مصر (السلوك
ج ٢ ق ٣ ص ٩٢٧) .

(٢) نفس المصدر .

لهذا الاندماج النهائي لتلك التجمعات العربية الهائلة الذي تم على
مراحل مبتدئا بمصر شمالا وممتدا الى السودان جنوبا . كما سبق أن
امتد غربا الى بلاد المغرب العربي ، هذا الاندماج كان له تأثير
روحي عميق في الكيان الاجتماعي لأهل مصر .

لقد ساعدت الظروف على زيادة التقارب والاندماج بين قبائل
العرب وشعوب تلك البلاد وترتب على هذا الاندماج الذي تم بمصر
بصفة خاصة في العصر المملوكي تلهف المصريين على التعرف على
دين العرب ولغتهم . وتبعاً لذلك جند الكثير من العرب أنفسهم
لمهمة نشر علوم الدين واللغة . وهكذا أصبحت لغة العرب تمتد من
مصر غربا بطول الساحل الأفريقي للبحر الأبيض حتى المحيط
الأطلسي وجنوبا الى السودان .

ويرجع سبب انتشار اللغة العربية بادئ ذي بدء الى غلبة العرب
وسيطرتهم على تلك المناطق الشاسعة المتزامية الأطراف . ويعبر ابن
خلدون عن ذلك بقوله " اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون
بلسان الأمة والجيل الغالب عليها أو المختطين لها ولذلك كانت
لغات الأمصار الاسلامية كلها بالشرق والمغرب لهذا العهد (عصر
المماليك) . عربية ^(١) وكان من أبناء القبائل العربية من حمل رسالة

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٧٩ .

نشر اللغة العربية وعلومها: وبفضل هؤلاء وفضل جهودهم بقيت اللغة العربية في مصر والشام والمغرب .^(١)

ومن قبائل حزام ولخم وبنى كنانة ومن العلويين والجعافرة وغيرها من القبائل - العربية في مصر ظهر العلماء في فروع علوم اللغة العربية وآدابها وحملوا لواءها ، "عملوا على نشرها وتثبيتها حتى صارت لغة العرب بجهودهم رمزا لوحدة شعوب تعيش على أرض تمتد مساحتها شرقا من الخليج العربي بأرض العراق الى بلاد المغرب الأقصى عند شواطئ المحيط الأطلسي في أقصى الغرب .

ومن حمل لواء نشر اللغة العربية وعلومها في مصر الأيوبيّة والملوكيّة أو تولى الوظائف العامة من أبنائها الذين ولدوا على أرضها وعملوا على توثيق الصلة بين العرب والمصريين :-

١- ابراهيم بن هبة الله بن علي القاضي نور الدين الاسناني الحميري عاش في القرن السادس الهجري . درس علوم الفقه والنحو على نخبة من من العلماء واشتغل بالافتاء والفقه واختصر شرح بعض مؤلفات العلماء مثل ألفية ابن مالك وكتاب الوسيط للامام أبي حامد محمد الغزالي فضلا عن علوم الجبر وعلوم الطب . كما ولي القضاء بعدة أقاليم بمصر .^(٢)

(١) في ذلك يقول ابن خلدون "ورعا بقيت اللغة المصرية بمصر والشام والمغرب لبقاء الدين عليها لما استقلت بعض الشيء (نفس المصدر ، ص ٣٨٠)

(٢) ابن تغري بردي ، المنهل المبلى ص ١٧٠

٢- (بهاء الدين) أبو الحسن بن علي بن هبة الله سلام اللعني المعروف بابن الحميدى ٥٥٦ - ٦٤٩ (١١٦٣ - ١٢٥١) تلقى علومه على الامام الشاطبى ^(١) واشتغل بالتدريس فقدم اليه طلاب العلم من مختلف البلاد وولى مشيخه العلماء بمصر ^(٢)

٣- شمس الدين بن محمد بن الحسين بن محمد الحسينى الأموى المصرى المعروف بقاضى العسكر . عاش فى القرن السابع الهجرى ودرس الفقه واشتغل به وصار اماما فقيها ثم ولى نقابة الأشراف والقضاء العسكرى .

٤- أحمد بن المنير :- هو أحمد بن محمد بن منصور الجذامى القاضى ناصر الدين المنير الاسكندراني ٦٢٠ - ٦٨٣ (١٢٢١ - ١٢٨٤) شغل منصب القضاء وبرع فى الخطابة والكتابة وتنسب اليه تصانيف فى علوم الشريعة وفنون الأدب والشعر والخطابة . أخذ عن جماعة منهم جمال الدين ابن الحاجب ^(٣) وقد قال عنه شيخ

(١) الشاطبى : هو الفقيه الزاهد نزيل الاسكندرية أبو عبد الله بن محمد بن سليمان الملقب بالشاطبى أحد أولياء الله الصالحين المشهورين فى الفقر بالعبادة وكان يجمع بين العلم والعمل والورع والرحمة والانتفاع الى الله تعالى والتعالى عن الناس ، والنسك بطريقة السلف وقد انقطع لعبادة الله فى رباط سرار بالاسكندرية بركة استافه أبى العباس المرسى وتوفى فى الاسكندرية فى رمضان ٦٧٢ ودفن بركة شبيهة المجاورة لزاويته .

(٢) عبد الرحمن السيوطنى ، حسن المحاضرة ج١ ، ص ١٧٣

(٣) حسن المحاضرة ج١ ص ١٢٧ انظر دور طائفة الصوفية بالاسكندرية فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر د. محمد زغلول سلام . الأدب فى مصر صلاح الدين ص ١٧٩ ط الاسكندرية ١٩٥٩ .

الاسلام عز الدين زين عبد السلام "ديار مصر تفخر برجلين في
طرفيها ابن المنير بالاسكندرية ^(١) وابن دقيق العيد بقوص ^(٢) ومن
مأثر بن المنير تعمير المناطق الخالية وزراعتها وانتشار أسباب عمارتها
حتى تصبح بلدا عامرا يسكنه الأهالي ويتفخرون بخيراته ^(٣).

٥- زين الدين علي بن محمد بن منصور الجذامي . ولي القضاء
بالاسكندرية بعد أخيه أحمد بن المنير المتوفى عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٤)
وكان من الأئمة المجتهدين وله شرح في صحيح البخاري ^(٤) .

٦- ابن دقيق الصيد : ٦٢٥ - ٧٠٢ (١٢٢٧ - ١٣٠٢) .
هو محمد بن علي بن وهب القشيري النفلوطي الأصل المصري
القوصي المنشأ عاش في القرن السابع الهجري وتلقى العلم في
القاهرة ثم رحل الى دمشق وأخذ على علمائها ثم عاد الى القاهرة
زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث تولى في ٦٩٩ هـ
منصب قاضي القضاء الشافعية ^(٥) .

(١) محمد بن شاكم الكفي ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٧٢ ، السيوطي حسن المحاضرة ج ١
ص ١٧٢ - د. عبد العزيز سالم تاريخ الاسكندرية ص ٢٨٠ .

(٢) عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى ؛ ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) السيوطي حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٧ .

(٤) نفس المصدر ص ١٢٨ .

(٥) ابن الجلس ، بدائع الزهور ج ١ ، ص ١٩٨ .

ويقول عنه ابن الشوكاني " وخضع له أكابر الزمان وطار صيته واشتهر ذكره وأخذ عنه الطلبة وصنف التصانيف الفارقة منها "الالمام في أحاديث الأحكام" وشرع في شرحه فخرج منه أحاديث يسيرة في مجلدين أتى فيها كما قال الحافظ بن حجر بالعجائب الدالة على سعة دائرته في العلوم والاستنباط" (١)

وقد بلغ ابن دقيق العيد الغاية من تقدير أهل عصره له . فقد كان العلماء يعتزون بشهادته ويلذكرون من أقواله ما يستدلون به من صدق الخير (٢) وكان على حد قول شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام أحد رجلين تفخر بهما مصر أحدهما ابن المنير (٣)

٧- ابن الصيرفي :- هو شرف الدين الحسن بن علي بن عيسى اللخمي المصري توفي عام ٦٩٩ (١٢٩٨) وكانت له عناية بالأحاديث النبوية (٤) .

٨- عمر بن عيسى بن نصر وينتهي نسبه الى كعب بن سعد بن تميم الشمسي ٦٨- ٧٢١ (١٢٤٠- ١٣٢١) درس الفقه والنحو والحديث على جماعة من العلماء ولاه أستاذه تقى الدين قاضي

(١) ابن الشوكاني ، اللؤلؤ الطالع بحسن من بعد القرن التاسع ، ج٢ ، ص ٢٩٩ ، ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة ص ٩١ ط الهند ١٣٤٩ .

(٢) ابن تغري بردى اللؤلؤ الصافي ، ص ٣٣٦

(٣) ابن شاكر الكلبى نفوس الزواجر ، ج١ ص ٧٢ - السيوطي حسن المحاضرة ، ج١ ص ١٢٧ .

(٤) السيوطي حسن المحاضرة ، ص ١٦٢ ، ١٦٣

القضاة النظر على رباح الأيتام . ثم تخلى عن هذا المنصب بعد وفاة
أستاذه وعاد الى بلده قرص حيث توفي ^(١) .

٩- بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنائى
٦٣٩ - ٧٣٣ (١٣٣٢ - ١٢٤١) من فقهاء الشافعية اشتغل
بالافتاء والتأليف فى عدة فروع من العلوم والفنون وشغل منصب
قاضى القضاة بمصر ^(٢)

١٠- على بن يوسف بن جرير اللخمي ٦٤٤ - ٧١٣
(١٢٤٦ - ١٣١٣) من فقهاء الشافعية تولى وظيفة شيخ الأقراء
بمصر وبالجامع الأزهر واجتمع عليه كثير من طلبة العلم ^(٣)

١١- ابراهيم الدسوقي : (٦٧٦ هـ - ١٢٧٧ م) .

هو ابراهيم بن أبى محمد بن قريش من الجعافرة ^(٤) عاش فى القرن
السابع الهجرى ، كان لابراهيم الدسوقي جهود كبيرة فى جمع كلمة
المسلمين والدعوة الى اتباع القرآن والسنة - والابتعاد عن البدع .
وكان يدعو الى التكافل والتضامن ويحث على الاهتمام بالوقت
وعلم التفريط فيه باضاعته فيما لا يعود بالفائدة فهو يقول "

(١) كمال الدين حعفر بن أغلب ، الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلا المصنف .
ص ٢٥٠ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣٨ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢١٦

(٤) على مبارك ، المخطوط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٨ .

ولالتفت قط الى صحبة من يتكرم بضياع أوقاته أو أنفاسه في الغفلات فان صحبته هلاك لك " ويقول أيضا " من لم يكن عنده شفقة على خلق الله لا يرقى مراقي أهل الله " (١) ولم يكن الشيخ الدسوقي يغفل قط عن مجاهدة النفس والهوى والشيطان حتى مات (٢)

١٢- يحيى بن أحمد بن عبد العزيز الامام شرف الدين أبو الحسين الصواف الجذامي الاسكندراني ٦٩٠ - ٧٥٠ (١٢٩١ - ١٣٤٩) . وكان من فقهاء الشافعية ومن تلاميذه البزالي وابن سيد الناس والسبكي . وقد أصبح هؤلاء من العلماء البارزين في علوم العربية (٣)

١٣- (ابن عقيل) بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل ٦٩٨ - ٧٩٦ (١٢٩٨ - ١٣٦٧) . من ولد عقيل بن أبي طالب وهو من أئمة اللغة والنحو . تولى القضاء والتدريس والتفسير بمصر وله مؤلفات فيها شرح الفية ابن مالك (٤) .

(١) عبد الرهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٧٣ - المخطوط الترمذية ، ج ١١ ، ص ٨ .

(٢) الشعراني ، الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٨١ .

(٣) السيوطي حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٣١ .

١٤- إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي المصري ٧١٥ -
 ٧٩٠ (١٣٨٨ - ١٣١٥) . ولد بالفربية في قرية تسمى أميرط ثم
 درس على جماعة من العلماء صحيح البخاري وصحيح مسلم
 والسيرة لابن اسحاق وسند ابن ماجه وجامع الأصول لابن الأثير
 وسنن الشافعي ورحل الى دمشق ثم اشتغل بالفقه وولى منصب
 نائب الحكيم عن قاضي قضاة القاهرة أبي البقاء السبكي ثم انتقل الى
 مكة وتوفي بها عام ٧٩٠ (١٣٨٨) ^(١) .

١٥- أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله القلقشندي ٧٥٦ -
 ٨٢١ (١٤٤٨ - ١٣٥٥) وينسب الى قبيلة بنى بلر من فزارة ،
 ولد بقلقشنده بالقلايوية ^(٢) . وقال عنه ابن تغري بردي " أحد
 مؤلفي الدست - ديوان الانشاء - ونواب الحكيم . كان اماما
 فقيها بارعا في العربية مشاركا في الفقه والفرائض . ناب في
 الحكم سنين . وكتب في الانشاء وكان ماهرا في ذلك وله نظم
 ونثر ومصنفات . من ذلك كتاب " صبح الأعشى في صناعة
 الانشا . " جمع فيه جمعا كبير مفيدا وصنف في الفقه أيضا وغيره
 وكان له فضل وأفضال وقورا في الدولة " ^(٣)

(١) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ص ١٩٤ .

(٢) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص (٧)

(٣) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ص ٣٣٠ ، محمد مصطفى حلمي ، ابن الفارض ص

ومن مؤلفات القلقشندي أيضا حلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم ونهاية الارب في معرفة أنساب العرب . " قلائد الجحمان في التعريف بقبائل عرب الزمان " .

١٦ - عمر بن الفارض :-

هو عمر بن علي بن مرشد ٥٧٦ - ٦٣٢ (١١٨٠ - ١٢٣٤) . من قبيلة بني سعد العربية ولد بمصر وولى أبوه عدة وظائف كان آخرها نيابة الحكم واشتغل عمر بالتصوف وله دواوين وقصائد صوفية اشتهر بها منها قصيدته البائية التي أعجب بها الملك الكامل الأيوبي عندما سمعها وعلق عليها قائلا هذا نفس محب . وكان مولعا بالشعر والشعراء . وبلغ به الإعجاب . الى أنه طلب مقابلة ابن الفارض وبعث اليه بمبلغ ١٠٠٠ دينار ولكن ابن الفارض رفض قبولها . كما اعتذر عن مقابلة السلطان وبالغ في الاحتجاب عنه فرحل الى الاسكندرية متخفيا ^(١) اشتهر بلقب سلطان العاشقين . وعلى الرغم من انقطاعه للعبادة والتصوف فقد كان وطنيا يحب بلده مصر ويثني باسمها ومن ذلك قوله :

وطني مصر وفيها طرى ولنفسى مشتهاها مشتهاها ^(٢)
نال ابن الفارض قلرا كبيرا من الإعجاب ومحبة الكثيرين له والشغف حوله جماعة كثيرة من المعجبين بمنهجه في التصوف ، فأوغر هذا

(١) السيرطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٢١

(٢) د. مصطفى حطّى " ابن الفارض ، ص ٥٤ ، ٥٦ .

الفوز صدور بعض الناقمين والجاسدين على ابن الفارض - وحاولوا النيل منه . ولكن ردهم الله على أعقابهم خاسرين^(١) فلم يتالوا منه شيئا .

(٢)

الظروف التي أدت الى الاندماج العربى المصرى فى عصر دولة المماليك

ارتبطت مصر بروابط ودية مع الأيوبيين منذ اليوم الأول الذى وفد فيه صلاح الدين الى مصر برفقة عمه أسد الدين شيركوه ولذلك فان أحوال العرب والمصريين فى مصر عند قيام الدولة الأيوبية سارت على أسس مرضية ، بمعنى أنه لم تحدث ثورات ولم يتم تحالف قبلى ضد الدولة الأيوبية ، ومن هنا فان حركات الاندماج بين العرب والمصريين لم تأخذ دورا بارزا أو ملحوظا .

ولم يلبث الوضع أن تغير منذ قيام الدولة المملوكية . فبعد أن تولى السلطان عز الدين أيبك سلطنة مصر فى ربيع الآخر ٦٤٨ (١٢٥٠) قامت المعارضة العربية ضد الحكم المملوكى ، ولكن المماليك تمكنوا من فرض نفوذهم على البلاد . وفى عهد المعز أيبك أول سلاطين المماليك وبالذات منذ زواجه من شجرة الدر فى عام ٦٥٢ (١٢٥٤) وظهر معارضة البيت الأيوبي لاستيلاء المماليك

(١) ابن ابيس ، ح ٤ ، ص ٤٢٢

على الحكم في مصر وقع الخلاف بين الامراء المماليك بزعامة فارس الدين اقطاي وبين المعز ايبك ، وأصدر ايبك أمره بالقبض على معارضية من أمراء المماليك وجمع عرب الصعيد تخشية مماثلتهم للأيوبيين^(١) وكان الأهالي يغيضون المماليك بسبب سوء معاملتهم فلما ظهرت بوادر النصر للأيوبيين في أول الأمر أظهر الأهالي في مصر فرحتهم وتعاليت هتافاتهم للملك الناصر صلاح الدين الذي خرج من الشام قاصدا مصر بعد مقتل توران شاه ، كما خطبوا في مساجد مصر للملك الناصر ، فلما انتصر المماليك زادت اساءاتهم للمصريين أبلغ الاساءة^(٢) واشتدت معارضة القبائل العربية بقيام دولة المماليك في مصر واجتمعوا على رأى واحد وهو أن العرب أحق بالحكم من المماليك^(٣) . وأصبح الموقف كما يلي :-

أولا :-

اعتبر المماليك أنفسهم أصحاب حق في ملك مصر بعد انتصارهم على الفرنسيين في المنصورة .

(١) القرطبي . السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٠٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٠ .

(٣) القرطبي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٦

ثانيا :-

اعتبر العرب أنفسهم أحق من المماليك فى حكم مصر لأن المماليك دخلاء على البلاد خرجوا على الدولة . أما العرب فكانوا مجاهدين مع بنى أيوب لم يخرجوا عليهم .

وصار الموقف بين العرب والمصريين من ناحية والمماليك من ناحية أخرى . موقف عداء سافر . فالعرب والمصريون لم يتفقوا بغضهم للمماليك وتطور الموقف فقامت ثورة العرب بزعامة الأمير العربى حصن الدين ثعلب وحاولوا انتزاع السلطة من المماليك بالقوة . ووقع القتال بين الفريقين ، وانتصر المماليك فى نهايته وكان من نتائج تلك المعارك اندماج العرب فى شعب مصر .

الباب الثاني

القبائل العربية في خدمة الجيش الأيوبي والمملوكي

الفصل الأول :-

دور العرب الحربي في الدفاع عن حدود مصر زمن الأيوبيين

١- في عهد صلاح الدين .

٢- في عهد خلفاء صلاح الدين .

الفصل الثاني :-

دور العرب الحربي في الدفاع عن مصر زمن المماليك

الفصل الأول

دور العرب الحربي في الدفاع عن حدود مصر زمن الأيوبيين

(١)

في عهد صلاح الدين

(أ) مساهمة العرب في الدفاع عن دمياط:-

عندما أسند الخليفة العاضد الفاطمي منصب الوزارة الى القائد صلاح الدين يوسف بن أيوب ولقبه بالسيد الأجل الملك الناصر وفقا لما ورد في السجل الصادر عن الخليفة المذكور في أواخر جمادى الآخرة عام ٥٦٤ (مارس ١١٦٩) ^(١).

وبعد أن تمكن صلاح الدين من استمالة قلوب الناس اليه والسيطرة الكاملة على العسكر الشامي والمصري والقضاء على قوة الجند السودان الذين كان يعتمد عليهم الخليفة الفاطمي تمهيدا لانسقاط الخلافة الفاطمية ^(٢) استشعر الصليبيون بالشام بالخطر

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الأول وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشهاب ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦٧٦ .

(٢) الباز العربي مصر في عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٥ ، ٤٠٨ - ج. سعيد صيد الفلاح عاشور ، الناصر صلاح الدين ، سلسلة اعلام العرب ، عدد ٤٩ ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٦٢ .

Lane poole , saladin and the fall of the king dom of jerusalem, Beirut, 1964,P.98-99

الاسلامى المائل ^(١) وأحسوا أنهم وقعوا بين شقنى رحى ^(٢) واستبد بهم الشعور بالخطر المحدق بهم فبعثوا الى حكام صقلية يستحثونهم على غزو مصر وامثلاكها قبل أن يتم أمر هذه الوحدة ^(٣) ولكن اضطراب الأحوال السياسية فى غرب أوروبا بالإضافة الى النزاع القائم بين البابوية والامبراطورية حال دون تحقيق آمال الصليبيين ، فاضطر عمورى الأول الى التوجه الى الدولة البيزنطية واستصراخها ولم يسع الامبراطور البيزنطى مانويل كوين الا تلبية النداء فحشد عددا كبيرا من سفنه البحرية ^(٤) أبحرت الى صور ثم الى عكا مستهدفا التعاون مع الفرنج لغزو مصر . ولم يلبث الأسطول البيزنطى أن أقبل الى دمياط فى حين زحفت القوى الصليبية برا من عسقلان الى الفرما ثم الى دمياط فى صفر ٥٦٥هـ (١١٦٩) شرعت القوة البيزنطية الصليبية فى احكام الحصار حول دمياط ، ولكن الأهالى هبوا للدفاع عن مدينتهم . واشتد حصار العدو لدمياط برا وبحرا ولكن أهالى المدينة بينهم عرب بنى كنانة ظلوا يحاربون الفرنج فى عزم وثبات حتى وصل الخبر الى صلاح الدين فبادر بارسال الامدادات من الرجال والسلاح الى المدافعين . كما بعث فى نفس الوقت الى نور الدين فى الشام يستعين به على قتال

(١) ابن واصل ، مروج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠

(٢) د. سعد ماهر ، الناصر صلاح الدين ، ص ٧٥

(٣) ابن واصل مروج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

(٤) بلغ عدد القطع لمؤلف وماتى سفينة .

العدو على أرض دمياط . فقام نور الدين بالغارات المفاجئة على مدن فرنج الساحل وبعث بالامدادات والتجديدات ارسالا الى مصر عونا لصالح الدين^(١) وقد أخذ ذلك كله بأقوات العدو واضطروا الى الانسحاب عن دمياط فخلوليين بعد أن أغرق المصريون لهم ثلاثمائة قطعة حربية أثناء قيامهم بحصار دمياط مدة خمسين يوما .

٢- اشراك العرب في الدفاع عن الاسكندرية :-

في ذى الحجة عام ٥٦٩ (يوليو ١١٧٤) قام وليم الثاني النورماندى ، ملك صقلية بهجوم بحرى على الاسكندرية بأسطول مكون من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثين ألف مقاتل تنفيذاً للمخطط واسع النطاق الذى اتفقت عليه العناصر الموالية للفاطميين مع ملكى بيت المقدس وصقلية بهدف احياء الخلافة الفاطمية فى مصر ورد الدعوة العلوية الى ماكانت عليه . وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الاسكندرية فى ١٦ ذى الحجة بعد أن انكشفت المؤامرة وقضى على المتآمرين فى الداخل من جهة وبعد وفاة عمورى الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية . وشرع

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ص ١٨٠ ، ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ١٥٧ ، القرطوبى ، المنطق ، ج ١ ، ص ٣٤٦ - وتتلخص من حياة صلاح الدين منذ نشأته فى بلاط نور الدين محمود وحتى انتصاره فى واقعة حطين .

Gibb (A.R) the Rise of Saladin , in Kenneth M. Setton (ed) A History of the crusades . PP. 503 - 589 , philadelphia. 1958 .

النورمان فى مهاجمة الاسكندرية . ونجحوا فى اغراق بعض
المراكب المصرية التى كانت راسية على الساحل ^(١) .

ثم نزلت قوات الأسطول الصلى الى الشاطئ وتقدمت فى
مواجهة أهالى المدينة من العرب والمصريين الذين تصدوا لهم وثبتوا
أمام محماتهم وتقاتلوا فى الدفاع عنها حتى سقط منهم الشهداء. ^(٢)

ثم تمكن المهاجمون من اقامة ثلاثمائة خيمة لهم وشرعوا فى حصار
المدينة ، وواصل الأهالى مقاومتهم للغزو ثلاثة أيام الى أن وصلت
أخبار ذلك الغزو الى صلاح الدين ^(٣) فبادر بالسير الى الاسكندرية
على رأس قوة من عسكره ، ونجح فى إيقاع الهزيمة بالنورمان
وأرغمهم على الانسحاب بسفنهم بعد أن أغرقت قواته بعضها
واستولت على بعضها . وفر النورمان تاركين كميات هائلة من
الغنائم الحربية . وفى ذلك يقول المقريزى " وأقلع باقى الفرنج
مستهل منه سبعون " ^(٤) ومن ورائهم سفن المسلمين تطاردتهم ^(٥)
ولاشك أن عرب الاسكندرية الذين ساهموا فى الدفاع عنها هم من
القبائل اليمنية التى استقرت بالمدينة منذ ولاية عمرو بن العاص

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج١ ، ص ٢٣٠ ، المقريزى ، السلوك ج١ ق ١ ، ص ٥٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٠ ، المقريزى ، السلوك ، ج١ ق ١ ص ٥٥ .

(٣) المقريزى ، السلوك ج١ ق ١ ، ص ٥٥ .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ج١ ، ص ٢٣٠ ، المقريزى ، السلوك ج١ ق ١ ص ٥٥ .

(٥) ابن شداد ، الدرر السلطانية ، تحقيق د. الشبال ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٨ ، ٤٩ ،

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ - ص ١١ - ١٢ .

بقصد الرباط والجهاد ، ومنهم لخم وخدام وكندة والأزد وحضر موت وخزاعة والمزاغنة ، فكانت لخم تنزل في الموضع المعروف بكوم الدكة ، وخدام في "بركة جدام" وكندة بالبراكل والأزد بحارة الأزدي " وحضر موت بشارع الحضارمة ، في حين استقرت خزاعة والمزاغنة بناحية أبي قبر شرقي الاسكندرية بقصا حراسة ميناءها .

ويذكر النويري السكندري أن ذرية هذه القبائل كانت موجودة في زمنه حتى سنة ٧٧٦ التي كتب فيها كتابه "الالمام بما قضت به الأحكام" وأنهم كانوا يعرفون فيها بالقبائل وإن عدد مقدميهم بلغ ثلاث وأربعون مقدا لكل منهم جماعة من القبائل لم يخرجوا عن طريق ملبوس العرب .^(١)

ج - صلاح الدين بعد معركة الاسكندرية :

بعد هذا الانتصار الذي حققه أهل الاسكندرية ومن انضم اليهم من عرب اليمن ، عزم صلاح الدين على تدعيم الوحدة الاسلامية وتأليف جبهة اسلامية متحدة تضم مصر والشام تمهيدا للجهاد الأعظم ضد الصليبيين ، لأنه رأى بثاقب بصيرته أنه لا نجاة للعرب الا في وحدتهم ، وقد نجح في تحقيق هدفه نجاحا لم يكن في

(١) النويري السكندري ، الالمام بما قضت به الأحكام ، صورة لحسية من مخطوطة المند ، ص ٧٧ ب ، د / عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٩٧ .

الحسبان - ومنحه الخليفة العباسي تفويضا بحكم مصر والشام واليمن والمغرب وغيرها . (١) .

ثم عقد صلاح الدين بعد ذلك العزم على الجهاد الأعظم ضد قوى الفرنج فغادر مصر للمرة الأخيرة الى الشام عام ٥٧٨ سنة (١١٨٢) بعد أن وطد نفوذه بها واستقرت له الأحوال ، وقدر له أن يبقى ببلاد الشام حتى وفاته .

وفي يوليو سنة ١١٨٢ أغارت قواته على إقليم الغور المحيط ببيسان واحتلت قواته بيسان عنوة . وانضم معه في صفوف الجيش عدد كبير من قبائل العرب يحاربون الصليبيين معه ، وقد أغار العرب على جنين واللجون وسهول يافا حتى قاربوا مرج عكا . (٢) ومن استشهد من أمراء العرب في فلسطين زامل ومظرف وحجي (٣) من آل ربيعة وهم بطن من طيء من القحطانية . (٤)

ولزم صلاح الدين الشام وهو في جهاد متواصل ضد الصليبيين وحقق انتصارات متتالية حتى عام ٥٨٨ (١١٩٢) انتهت باسترداد معظم ممتلكات الصليبيين في بيت المقدس والساحل باستثناء ساحل

(١) المقرئ ، السرك ، ج ١ ق ١ ، ص ٥٥

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، (حوادث عام ٥٧٨ هـ)

(٣) عماد الدين الكاتب الأصفهاني ، الفتح القس في الفتح المقدسي ، ١٣٨

(٤) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ١٠٠

ضيق يقع بين صور ويافا . ثم وانفاه الأجل بدمشق في صف ٨٩
(١١٩٢) . (١)

(٢)

في عهد خلفاء صلاح الدين

لم تلبث الجبهة الاسلامية التي حقق صلاح الدين وحدتها أن
تفككت بعد وفاته ، وتمزقت الوحدة التي قضى معظم حكمه
يرعاها ويتعاملها . ووجد الخلف بين حكامها من أبناء وأخوة
صلاح الدين (٢) فضعفت شوكة الاسلام في عهد خلفائه .

ومن هنا قوى عزم الفرنج على استرداد ما كانوا فقدوه في عهد
صلاح الدين .

١- مهاجمة اسطول الفرنج لمدينة دمياط عام ٦١٥ (١٢١٨) ودور
العرب في الدفاع عنها :-

عندما رأى الفرنج تفكك الوحدة الاسلامية في أعقاب وفاة
صلاح الدين اتجهت جهودهم الى توحيد صفوفهم واعداد العدة
لتحطيم قوة المسلمين . فبدأوا بالاجوم على بيت المقدس في عام

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٥١ . ابن ابيس - بقاتع الزهور ، ج١
ص ٥٨ ، ٥٦ .

(٢) القلقشنلي ، صبح الاعشى ، ج٣ ، ص ٤١٢ .

٦١٤ (١٢١٧) ثم سطوا عن مهاجمة بيت المقدس عندما رأوا ضرورة البدء بالاستيلاء على مصر . فأتجهوا بسفنهم الى دمياط فى الحملة المعروفة بنجاح دى بربين فى صفر ٦١٥ (مايو ١٢١٨) ، ونزلوا على البر الغربى لها . وكان النيل يحول بينهم وبين دمياط . ثم بدأوا فى مهاجمة حصن دمياط حتى استولوا عليه وكانت تمتد من هذا الحصن سلسلة ضخمة تتصل بسور دمياط لتمنع السفن القادمة من الشمال من الوصول الى داخل البلاد .^(١) فقطعوها فاسرع المصريون وأقاموا جسرا يبدل السلسلة ليمنعهم من عبور النهر ولكنهم استولوا على الجسر أيضا فأغرق المصريون عدة سفن بعرض النهر - لتعترض العدو من الوصول الى الداخل .

ثم لجأ العدو بعد ذلك الى خليج قديم كان يجرى فيه النيل فحفره وعبروا بسفنهم الى أن وصلوا الى مكان يسمى "بورة" ليقفوا فى مواجهة القوة المصرية المدافعة التى كانت تنزل فى البر الشرقى عند المنزلة أو العادلية^(٢) .

وحين ورد الخبر بموت الملك العادل بالشام وخلفه ابنه الملك الكامل عماد فى حكم مصر . وعند ذلك لجأ قائد الجيش وهو

(١) ابن الأثير الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٤٨ - الخطط ، ج ١ ، ص ٢٤٧

(٢) نفس المصدر ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٩٤ - ٢٠٢

عماد الدين أحمد بن علي ويعرف بابن المشطوب إلى تدبير مؤامرة لخلق الكامل وتولية أخيه الفائز بدلا منه طمعا في السيطرة عليه ^(١) . وأحس الملك الكامل بما يدبر ضده في الخفاء فانسحب ليلا من منزله واتجه إلى شوم طناح وهي التي عرفت باسم المنصورة فيما بعد . فلما علم ابن المشطوب انسحب هو الآخر بقواته إلى حيث عسكر الملك الكامل تاركا دمياط بغير دفاع . فلما علم الفرنج بما حدث عبروا البر الشرقي إلى دمياط في ذي القعدة على ٦١٥ (١٢١٨) . ثم شرعوا في بناء سور حولهم وحفروا خنادق ليتحصنوا خلفه ثم هاجموا المدينة . ولكن استبسل الأهالي في الدفاع عنها . كان الفرنج يتناوبون القتال لكثرتهم بينما كان عدد المدافعين عن المدينة من الأهالي لا يسمح بمثل ذلك بينهم ومع ذلك فقد ثبثوا في مواقعهم . وواصلوا الصمود مدافعين دون أن يتطرق اليأس إلى نفوسهم رغم ما أدى إليه الحصار من قلة الأقوات مدة الحصار من ذي القعدة عام ٦١٥ (١٢١٨) إلى شعبان ٦١٦ عندما تمكن العدو من اعتلاء الأسوار والاستيلاء على المدينة ^(٢) .

كان للانسحاب رد فعل سلبي فانتشرت أعمال السلب والنهب في بعض الجهات نواحي دمياط نتيجة لاضطراب الموقف بعد

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ١٤٩ - الخطط، ج١، ص ٣٤٩، السلوك، ج١، ق ١، ص ١٩٤ - ٢٠٢

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ١٥٠ - القرطبي، الخطط، ج١، ص ٣٥٠، السلوك، ج١، ق ١، ص ١٩٤ - ٢٠٢

الانسحاب المفاجئ^(١) . ونسبت أحداث هذا الاضطراب الى قبائل العرب فى تلك النواحي وقيل أنهم فعلوا ذلك استخفايا بالسلطة لانشغالها بالدفاع عن البلاد .

من المؤكد وبحكم طبيعة الظروف أن جرائم السرقة تزيد نسبتها فى الحرب عنها فى زمن السلم . ومما هو جدير بالملاحظة أن الأمور سرعان ما عادت الى طبيعتها بعد أن قام رهط من العلماء ورجال الدين بتوعية الأهالى فسرى الحماس فى نفوس الكثير من الأهالى العرب والمصريين وتنافسوا على حمل السلاح واللود عن شرف البلاد ويعبر المقرئى عن ذلك بقوله " فاجتمع عالم لا يقع عليه حصر " ويقول أيضا " واجتمع الناس من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحي ما بين أسوان الى القاهرة " (٢) .

ب- اشراك العرب فى الدفاع عن دمياط واسودادهم لها .

ما ان حملت الأنبياء الى الملك الكامل الأيوبي نزول الفرنج بالجانب الغربى من دمياط حتى أمر بالاستعداد لمواجهة العدو والدفاع عن البلاد ، وتذكر المصادر العربية بأنه أمر والى الغربية " بجمع العربان وسار فى جمع كبير وخرج الأسطول فأقام تحت دمياط

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٤٩ - المقرئى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٢٥١ المقرئى

السلوك ، ج ١ ق ١ ص ١٩٤ - ٢٠٢

(٢) المقرئى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٢٥١ - السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ٢٠٢

ونزل السلطان بمن معه من العساكر بمنزل العادلة " (١) . وينوه المقرئى بالدور الرائع الذى قام به العرب أثناء حصار الفرنج لدمياط فيقول " والعربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة بحيث منعهم ذلك من الرقاد ويخوفوا من غاراتهم فتكالب العرب عليهم حتى صاروا - يختطفونهم نهارا ويأخذون الخيم بمن فيها " (٢) .

كان التعاون كاملا بين قبائل العرب من بنى كنانة وبنى مدالج وبنى عدى وغيرهم وبين الجيش الأيوبي للدفاع عن دمياط . لقد أكد المقرئى أن السلطان بعث الى شارمساح " ألفى فارس فى آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج وبين دمياط " (٣) ثم قامت بعض قطع الاسطول الأيوبي بالتعاون مع الجيش فى عملية تطويق العلو بدمياط فانقطعت عنه المؤن والزخيرة برا وبحرا (٤) . ومما يروى فى هذا الصدد أن الملك الكامل عندما أحس بخطر الهجوم الصليبي على دمياط ، وكان كتب الى الحكام العرب فى سوريا والعراق وغيرهما (٥) وقبل أن يتمكن منه الهاس كانت النجيدات العربية قد وصلت الى مصر . وفى ذلك يقول المقرئى " وتتابع بحج

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٤٩ - السلوك ، ج ١ ق ١ ، ١٩٤ ، ص ١٩٥ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ٢٠٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٣ .

(٥) ابن الأثير ، المكمل ، ج ١٢ ، ص ١٥٠ .

الملك حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس ^(١) وقد قوى عزم المصريين بالنجيدات العربية التي وصلت الى مصر . ورغم ذلك فقد كان حماس أفراد الشعب من المصريين والعرب في مهاجمة العدو بدمياط يفوق حماس العسكر . قال المقرئى أن المصريين والعرب كانت تكرر على الفرنج أكثر من العسكر . ^(٢)

وقال أيضا أن عدد المتطوعين من شعب الاسكندرية ومنهم بطبيعة الحال قبائل العرب من لخم وحذام وغيرهم بلغ ثمانية آلاف مقاتل ^(٣) . وبينما كانت النجيدات العربية تتوالى على مصر كانت المساعدات الاوربية تصل الى العدو في دمياط ارسالا . ذلك ان سقوط دمياط في يد الفرنج كان له دوى هائل في أنحاء أوروبا . وظن الفرنج أنهم بدمياط يستولون على مصر كلها . فقدمت أعداد هائلة من المقاتلين من دول الغرب الى دمياط واشتد طمعهم في غزو مصر . ثم بدأ الخطر يظهر من الشرق أيضا من جانب التتار ^(٤) ثم تقدم العدو من دمياط وواجه المصريين في المنصورة . وكان يحجز بينهما بحر أشموم ، واستمرت المواجهة كان التهل قد

(١) المقرئى ، السلوك ، ج١ ق ١ ، ص ٢٠٣ - ابن الهيثم ، بتائع الزهور ج١ ، ص ٦٤

(٢) السلوك ، ج١ ق ١ - ص ٢٠٦ (هذه العربية المقاتلة وخاصة بنى الكتانة صرف أفرادها بالمدحاة الفاتحة في القتال والجرأة على الأعداء والقدرة العالية على استعمال أسلحة الكر والفر في قتالها مع العدو . كذلك صرف فرسان العرب من لخم وحذام القتال المشي الكثر) .

(٣) المقرئى ، الخطوط ، ج١ ، ص ٣٥١

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص ١٥١ - المقرئى ، السلوك ، ج١ ق ١ ، ص ٢٠٣

بدأ في الزيادة تمهيدا للفيضان النوبي فتقدم جماعة من التطوعين العرب وعمروا الى الأرض التي يحتلها العدو وفتحوا ثغرة في النيل فتفجرت منها المياه الى العدو فمنعته من الوصول الى دمياط وانقطعت طرق الاتصال بينهم وبين قاعدتهم دمياط . وتعذر عليهم الحصول على المؤن والأسلحة التي كانت في معسكراتهم في دمياط وتخلوا عنها عندما زحفوا ظنا منهم أنهم سوف لا يحتاجون اليها لقوتهم وضعف المدافعين وقتلهم . وازاء هذا الوضع المتحرج اضطروا الى طلب الصلح على أساس الانسحاب من دمياط فأجيبوا الى ذلك وفي ١٩ رجب عام ٩١٨ تم انسحاب الفرنج من دمياط يجرؤن وراءهم أذيال الخيبة والفشل^(١) .

ج - حملة لويس التاسع على دمياط ودور العرب في الدفاع عنها

في عام ٦٤٦ (١٢٤٨) وردت الأنباء الى مصر بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد عزم على غزو مصر ، فأصدر الملك الصالح نجم الدين أيوب أوامره بإعداد الجيوش للدفاع عن دمياط برا وبحرا وأسند قيادة الجيش الى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وفي المحرم من ٦٤٧ نزل الصالح بأشعوم طناح بالقرب من دمياط رغم مرضه للاشراف على سير المعركة بنفسه ، وفي صباح يوم الجمعة ٩ صفر قدمت الحملة الى مصر وأرست بأسطولها على ساحل دمياط . وكان فرنج الساحل قد انضموا الى الحملة بحيث

(١) القزويني، المعركة، ج ١، ص ٧٠٣

بلغ عددهم نحو خمسين ألف مقاتل ^(١) أما سفنهم فقد بلغ عددها على حد قول ابن اياس " مائتى سفينة " ^(٢). وفى يوم السبت نزل العدو الى البر . ووقع القتال بين الفريقين واستشهد وفى يوم الأحد قرر قائد الجيش الانسحاب من دمياط وتبعه الأهالى فاستولى عليها العدو . ووصلت أخبار الانسحاب من دمياط الى الملك الصالح ، فتوجه فى شهر صفر الى المنصورة ^(٣) وأمر باصلاح أسوارها وبتزول الأسطول الى مياهها لمواجهة العدو والتصدي له . ثم أمر بجمع العربان فاجتمع منهم عددا لا يتركه الحصر . ويذكر المقرئ أن المتطوعين من العرب والمصريين من جميع أنحاء مصر بدأوا يقاتلون العدو بالهجوم عليه فيقتلون ويأسرون. ففى أول شهر ربيع الأول بدأت الأعمال الفدائية ضد العدو فوقع فى يد الفدائيين العرب ستة وثلاثين أسيرا كان من بينهم اثنان من فرسان العدو ، أوسلا الى القاهرة مكبلين بالحديد ^(٤) .

ثم تتابعت الأعمال الفدائية ضد العدو وتتابع أيضا سقوط مزيد من الأسرى . فسقط فى اليوم الخامس من نفس الشهر تسعة وثلاثين أسيرا ثم اثنان وعشرون فى اليوم السابع وخمسة وأربعون

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ١٢ ص ١٥١ - المقرئ السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٠٢ المقرئ ،

المخطوط ، ج ١ ، ص ٣٥٣ - السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٧

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٨

(٣) المقرئ ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٣٥٣ - السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٢٢

(٤) المقرئ السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٢٢٧ - بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٩

فى اليوم السادس عشر من بينهم ثلاثة من فرسان العدو . وبلغ عدد الأسرى فى شهر جمادى الأولى خمسين أسيراً . وفى شهر رجب كان عدد من أسر من الفرنج سبعة وأربعين جندياً ، وأحد عشر فارساً ، كذلك استولى المسلمون على مركب حربى وأسروا جنوده (١) .

ثم توفى الملك الصالح فى ١٤ شعبان ٦٤٧ وكنتم حصر موته ولم يدع الا بعد مضى اسبوع من موته . ولما علم الفرنج بخبر موت الملك زحفوا من دمياط الى فارسكور فى ٢٥ شعبان فى محاذاة المصريين بالمتصورة . وشرعوا فى مناوشتهم . فى اليوم التالى أعلن الجهاد المقدس من فوق منبر الجامع الأزهر وسرعان ما انتشر نداء الجهاد فى أنحاء مصر كلها . واشتد حماس الجماهير فى مصر للتطوع للجهاد . فخرج الناس من القاهرة - وسائر الأعمال "فاجتمع عالم عظيم" لايقع عليه حصر (٢) واستمر تقدم الفرنج فوصلوا الى شاربساح فى أول رمضان ثم الهرمون فى السابع من الشهر نفسه ثم صاروا فى مواجهة المتصورة يوم ١٣ منه . ولم يكن يفصل بين القوات المتحاربة غير النهر (بحر اشمون) ثم قام الفرنج بانشاء الأسوار وحفروا الخنادق لحماية معسكرهم بالهرمون

(١) القريزى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٣٥٥ - السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٧ - بتاريخ الزهور ، ج ١ ، ص ٦٩ .

(٢) القريزى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٣٥٦ ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٧ - محمد صيد العلى ، أمى الفتح ، تاريخ الاسماعيلى ، ص ١٨٠ .

من هجمات الفدائيين العرب . ثم صوبوا أسلحتهم فى مواجهة المصريين بالمتصورة وواجهت سفن الفرنج سفن المصريين فى بحر الشوم . ثم بدأ القتال بين الفريقين فى البر والبحر . وفى نفس الوقت أخذ الفدائيون من العرب والمصريين يهاجمون معسكر الفرنج وعملوا على ازعاجهم ومنعهم من الاستقرار والراحة .

ويصف القرىزى هذا الدور العظيم الذى قام به الأهالى من العرب وغيرهم ضد الفرنج فيقول "وأبلى عوام المسلمين فى قتال الفرنج بلاء كبيرا وانكوهم نكابة - عظيمة وصاروا يقتلون منهم ويأسرون" ^(١) . ومن أطرف مذكره القرىزى عن الدور القلائى للأهالى دفاعا عن المتصورة قوله أن الفدائيين من الأهالى كانوا "يتحلبون فى اختطاف الفرنج بكل حيلة ولا يهابون الموت حتى ان الانسان قور بطيخة وحملها على رأسه وغطس بها فى الماء حتى حاذى الفرنج فظنه بعضهم بطيخة ونزل حتى يأخذها فنخطفه وأتى به الى المسلمين" ^(٢) .

واستمرت مضايقة العرب للفرنج وانزعاجهم حتى سببت لقيادتهم الشعور بالفرع والارتباك . ^(٣) مما دفع أحد كبار القادة هو الكونت أرتوا شقيق الملك لويس التاسع قائد الحملة الى القيام

(١) القرىزى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٣٥٦ - السلوك ج ١ ق ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) القرىزى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٢١٩ - ٢٢٢ - السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٥١ .

بمغامرته المعروفة التي بدأها بالهجوم على معسكر المصريين بالتنصويرة والتحم القتال بين الفريقين ورجحت كفة الفرنج بعد أن تمكنوا من قتل بعض القادة المالكي والوصول إلى قصر السلطان . لولا أن القائد المملوكي ركن الدين بيبرس البندقداري أسرع بقواته وقاتل الفرنج المهاجمين واستطاع أن يردهم عن قصر السلطان . فلما تراجعوا عن القصر قفلوا السيطرة على المعركة . وبدأ الموقف - يتحول لصالح المصريين ، حتى انتهى اليوم بانتصارهم وهزيمة الفرنسيين .

ويذكر ابن اياس دور الأهالي الكبير في معركة التنصويرة فقال "ركب الأمير بيبرس البندقداري والأمير لاجين وغيرهما من الأمراء وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلاحين ومنهم قبائل العرب من بني كنانة وبني مدلج وبني عدي وفي أيديهم المقاليع والحجارة^(١) وهجم المالكي البحرية وفي أيديهم السيوف والدبابيس والرماح ومنهم طائفة يرمون بالنشاب فحملوا على الفرنج حملة واحدة^(٢) "وقد سقط الشهداء من الأهالي - والمالكي جنبا إلى جنب دفاعا عن مصر .^(٣)

(١) د/ علي إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المالكي البحرية ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص

(٢) السلوك ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٣٥٠ ، ابن اياس ، نتائج الزهور ، ج ١ ، ص ٧٠

(٣) السلوك ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ١٤٩ - ٣٥١ - نتائج الزهور ، ج ١ ، ص ٧٠

وترجع أسباب النصر المسلمين في دمياط الى العوامل التالية :-

١ - وحدة مصر والشام . فان يشائر النصر لاحت منذ وصول الجيوش الشامية الى مصر .

٢ - الدور الفعال الذي قام به الأهالي واستبسالهم في القتال الثماسا للشهادة بتوجيه ايجابي من العلماء ورجال الدين الذين نجحوا في اقناع الأهالي بخطورة الموقف وأهمية النظام وحفظ الأمن وإثارة المشاعر الوطنية وما أعقب ذلك من تدفق الجماهير القادرة على حمل السلاح . فارتفعت الروح المعنوية . وكان لهم دور بارز في مضايقة العدو واضعاف معنوياته .

٣ - جهل العدو بطبيعة الأرض المصرية وطبيعة نهر النيل

٤ - معرفة المصريين لطبيعة الأرض المصرية واستخدام هذه الطبيعة في قتالهم مع العدو باغراقه في مياه النيل عندما حل موسم الفيضان.

الفصل الثمانى

دور العرب الحربى فى الدفاع عن مصر زمن المماليك

١ - اشتراك العرب فى الوقائع الحربية الهامة فى عصر المماليك .
يتميز عصر دولة المماليك بوقوع أشهر المعارك الحربية وأخطرها فى تاريخ مصر الاسلامية . وأول هذه المعارك الحربية التى وقعت حوادثها قريبا من الحدود الشرقية لمصر وعلى أرض الشام بفلسطين معركة عين جالوت . التى وقعت بين المسلمين والتتار فى عهد السلطان المظفر سيف الدين قطز سنة ٦٥٨ (١٢٥٩) ثم تكرر وقوع المعارك الحربية بين العرب والمغول بعد معركة عين جالوت على أرض سوريا عى عهود سلاطين المماليك . الظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون والناصر محمد بن قلاوون أما بالنسبة للصليبيين فقد استمر الصراع قائما بين المماليك والفرنج الى أن تمكن الاشرف خليل من القضاء عليهم نهائيا فى الشام هذا وقد امتد أمد الصراع بين قوى المسلمين والصليبيين من جهة وبين التتار والمغول من جهة أخرى ، من منتصف القرن السابع الى منتصف القرن الثامن الهجرى حيث تخللتها حروب خارج حدود مصر كتب النصر فيها للمسلمين على أعدائهم المغول والصليبيين على السواء .

أما الفترة التى تخللت المدة ما بين عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى معركة مرج دابق وتبدأ من طليعة القرن الثامن الهجرى على

وجه التقريب الى بداية العقد الثانى من القرن العاشر . فتتميز
بظهور مشاكل داخلية هامة ترجع الى أسباب سياسية واقتصادية .

وفيما يلى دراسة مقتضبة لمعركة عين جالوت وغيرها من المعارك
التي خاضها المماليك ضد قوى المغول وتقييم بالدور الذى قام به
العرب .

معركة عين جالوت

عين جالوت قرية صغيرة من قرى فلسطين تقع بين نابلس وبيسان
التقت فيها جيوش الاسلام مجتمعة على جيوش المغول وفيها دارت
الدائرة على قوى المغول فى ١٥ رمضان ٦٥٨ - (أغسطس
١٢٦٠) .

وموقعة عين جالوت من المواقع الحاسمة فى التاريخ العام العالمى .
ففيها نجح المماليك وخلفاؤهم فى إيقاف سيول المغول الجارفة التى
اجتاحت حدود العالم الاسلامى والعرب من الشرق الى الغرب
آلاف الأميال دون عائق أو ممانع ومكنتها الظروف من نسج
استطورة القهر الى أن قوضها المماليك فى عين جالوت . وأصبحت
القاهرة بعد بضع سنوات من تحقيق هذا الانتصار قاعدة الاسلام
ومقر الخلافة العباسية .

(أ) - الموقف قبل معركة عين جالوت

عندما فشلت حملة لويس التاسع على مصر وانسحبت من دمياط في عام ٦٤٨ (١٢٥٠) عمد لويس التاسع الى الاتصال بالمغول في الشرق وأرسل اليهم كتابا يعلن لهم فيه عن رغبته في عقد تحالف معهم ضد العرب بقصد الاستيلاء على بيت المقدس .

أما هيثوم ملك أرمنيه وبوهيموند السادس أمير انطاكية فكانا يدفعان الجزية للمغول ، كما بعثا برسائلهما بهدف اقامة حلف صليبي مغولي ضد الاسلام . ولكن لم يكتب للصليبيين أن يلعبوا دورا في المعارك الحربية التي دارت بعد ذلك بين المسلمين والشار . وذلك بسبب الضعف الذي لحق بالصليبيين نتيجة للخلافات الداخلية التي وقعت بينهم حين ذاك .^(١) وبالفعل عقد تحالف صليبي مع مانجوخان القائد المغولي ٦٤٦ - ٦٥٥ (١٢٤٨-١٢٥٧) . وما أن تحالف الصليبيين مع المغول حتى سير مانجوخان أخاه هولاكو الى العراق للقضاء على الخلافة واستعد لهذا الهجوم بأن زود جيشه بألف مهندس للتخطيط في اقامة الاستحكامات الحربية واعداد الذخيرة قبل بدء القتال وتجهيز المون واصلاح الطرق (٢) ولم تلبث بغداد أن سقطت في أيدي المغول في المحرم - سنة ٦٥٦

(١) حافل أحمد حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٣٧ ، د/ مختار العبادي سلسلة محاضرات لطلبة الهندسة سنة ١٩٥٨ .

(٢) د/ حافل أحمد حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٣٧ ، د/ مختار العبادي سلسلة محاضرات لطلبة الهندسة سنة ١٩٥٨ .

وتبع ذلك ماتبعه من مصرع الخليفة العباسي المستعصم و المذابح
الرهية التي قام بها الغزاة المتوحشون وفي صفر ٦٥٨ (١٢٦٠) ثم
سقوط حلب وفي جمادى الآخرة من نفس العام سقطت دمشق
وواصلت جيوش المغول تقدمها الى مصر فنزلوا في غزة بفلسطين
قرب الحدود المصرية استعدادا لغزوها وأرسلوا سفارة بكتاب تهديد
الى مصر طالبوا فيه السلطان بتسليم البلاد لهم . أما في مصر فقد
عقد مجلس حرب بالقلعة في عام ٦٥٧ (١٢٥٨) حضره ابن
العديم سفير الملك الناصر صاحب الشام الى مصر . وفي هذا
الاجتماع تقرر وضع خطة الاستعداد للحرب ^(١)

(ب) انضمام العرب الى جيش المماليك في المعركة

في عام ٦٥٨ أعلن الجهاد العام وصدرت الأوامر للعرب في
مصر للمشاركة في الدفاع عن البلاد . واجتمعت قبائل العرب من
لخم وحذام وسنيس وبصفة خاصة عرب الشرقية والغربية لقربها من
موقع المعركة " فاجتمع من العساكر مالا يحصى " ^(٢) وفي ١٥
شعبان عام ٦٥٨ (١٢٦٠) خرجت جيوش المماليك ومن انضم
اليهم من أجناد العرب من القاهرة يريدون الصالحية ^(٣) ثم بعثوا

(١) القرطبي ، السلوك ، ج١ ق ٢ ، ص ٤٩٦ - ٤٢٨ - ابن الأثير ، بلاتع الزهور ، ج١
ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) القرطبي ، السلوك ، ج١ ق ٢ ، ص ٤٩٦ - ٤٢٨ - ابن الأثير ، بلاتع الزهور ، ج١
ص ٧٩ ، ٨٠ .

بطلائعهم بقيادة ركن الدين بيبرس البندقدارى الى غزة للاستطلاع .
وكان بها جموع من جيش هولاكو يقودها قائبا هولاكو كتبغا
وبيدرا فانسحبوا ودخلتها الطلائع المصرية ثم لحق المفطر قطز بغزة
فى طريقه الى عكا . وفى عكا طلب من الصليبيين الالتزام بالحياة
وعدم التدخل . فى المعارك القادمة بين المسلمين والمغول . ثم
تقدمت الطلائع بعد ذلك الى عين جالوت وتقابلت مقدمة الجيش
الملوكى مع مقدمة الجيش المغولى فى قتال عنيف انتهى بانتصار
المالِك وفى ٢٥ رمضان التَّحَمَّ الجيشان فى معركة فاصلة فى عين
جالوت انتهت بهزيمة التَّار وانتصار المسلمين ^(١) ثم تابعت
انتصارات المسلمين على التَّار بعد عين جالوت . فتكررت هزيمتهم
فى بيسان وتحررت دمشق فى آخر رمضان من عام ٦٥٨
(١٢٦٠) ^(٢) . وفى شوال واصلت جيوش المملك تقدماتها من
دمشق الى حمص ثم الى حلب وتم تحرير بلاد الشام من سيطرة
المغول الى الفرات .

ومما لاشك فيه أن عرب مصر الذين خاضوا غمار المعركة أبلوا
بلاء حسنا واستبسلوا فى القتال ولعبوا دورا هاما فى تحقيق النصر
فقد كانوا ما يزالوا شوكة الاسلام ودرعه الواقى فى مصر وكانوا
يهبون للدفاع عن البلاد والذب عن الاسلام فى اللحظات الحاسمة

(١) نقي الصغر ، ص ٤٣١ - بلقيع الزهور ج ١ ص ٨٠ .

(٢) نفسه . ٤٣٢ ، ابن اياس ، بلقيع ، ج ١ ، ص ٨٠ .

وكان فرسانهم أهم مقومات القوة العربية الضاربة ولهذا كان لفرسان العرب أثر عميق فى تنفيذ النصر .

(ج) - دور العرب بعد عين جالوت

اعتلى الامير ركن الدين بيهرس البندقدارى كرسى السلطنة المملوكية فى مصر على أثر خلاف وقع فى صفوف أمراء المماليك . عقب انتصارهم على التتار فى عين جالوت . وتأثرت الأحوال السياسية فى البلاد المصرية والشامية بهذا الخلاف ، وقد شجع ذلك التتار على معاودة الكرة وهم يتوهمون ضعف الموقف الداخلى فى مصر اعتقاداً منهم أنه فى ظل هذه الظروف الجديدة يمكنهم تحقيق نصر سريع الانتقام يحسون به وصمة عار عين جالوت . فبادرت جيوش التتار الى الهجوم على البلاد الشامية . وفى عام ٦٥٩ (١٢٦٠) شنوا هجوماً على شمال الشام حتى حمص ، الا أن أصداء الانتصارات المملوكية كانت لا تزال تنزدد فى أحواء البلاد ، كما أن انتصار المسلمين على أعدائهم قضى على اسطورة القوة المغولية التى لا تقهر فأصبحوا لا يهابون أعداءهم - فلما عاود التتار هجومهم لم يتمكنوا رغم كثرتهم العددية من الصمود أمام قوة العرب ويعبر المقرئ عن ذلك بقوله " وفى عام ٦٥٩ اجتمع من التتار ستة آلاف فارس وقاموا بحمص فبرز اليهم الملك الأشرف موسى ابن شيركوه صاحب حمص والملك المنصور صاحب حماه واجتمع اليهما قدر ألف وأربعمائة فارس وقدم زامل بن على أمير

العرب فى عدة من العريان ، وواقعوا التشار يوم الجمعة الخامس من المحرم على الرسن (١) فافنؤهم قتلا وأسرا . ووردت البشارة الى مصر بذلك . وكانت التشار فى ستة آلاف والمسلمون فى ألف وأربعمائة (٢) ثم وقعت معركة حلب وهزم فيها التشار شر هزيمة (٣) ثم واصل الظاهر بيبرس سلطان مصر معاركه ضد التشار واستعان بعرب مصر فى معاركه جميعا ضد التشار والصليبيين على السواء (٤) ففى جمادى الاولى من عام ٦٦٣ (١٢٦٤) قامت جماعة من التركمان ، والعريان بمهاجمة أبواب عكا وأسروا جماعة من الفرنج وفى عام ٦٧٢ (١٢٧٣) قامت حملة حربية لمطاردة التشار شمال الشام وتبعهم فى الشمال الشرقى حتى خارج الحدود السورية. وقد اشترك فى هذه الحملة فرسان من مصر من العرب تلبية لأمر السلطان بيبرس ، بأن يخرج جميع العرب وكل من له فرس فى مصر للحرب.

وبعد معركة عين جالوت شارك عرب مصر فى معارك لا تقل فى أهميتها عن معركة عين جالوت ، فى عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ٦٧٩ - ٦٨٩ (١٢٨٠ - ١٢٩٠) تعرضت سوريا

(١) تقع الرسن فى منتصف الطريق بين حماه وحمص (السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٤٢ هـ ٤ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧١ ، ص ٢٠٣ .

(٢) القبرى ، السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٤٤٢

(٣) نفس المصدر - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٤ - ١٠٩

(٤) انظر - (Wiet : I. Egypte Arabe, P. 421)

لخطر الهجوم المغول ووردت الأخبار الى مصر بأن المغول قد أعدوا لهذه المعركة على نحو ' سبق أن أعدوا مثيلا له منذ عشرين عاما وأن عددهم بلغ ثمانين ألف جندي وأنهم وصلوا الى مشارف الشام في جمادى الاولى من عام ٦٨٠ (١٢٨١) وكانوا يتقدمون في ببطء وتؤده على غير عادتهم في الهجوم فعند ذلك قامت مصر باعداد جيشها وانضم الى الجيش المملوكى عرب مصر والعراق والشام وصاروا جيشا واحدا في مواجهة جيش المغول والشار .

ويشير المقرئى الى ذلك بقوله فشرع السلطان فى عرض العساكر واستدعى الناس فحضر الأمير أحمد بن حنبل من العراق فى جماعة كثيرة من آل مرا تكون زهاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح . وقدمت عساكر مصر وسائر العربان ثم توجه الجيش بعد ذلك الى حمص فى ١١ رجب من نفس العام ^(١) ثم بدأ السلطان قلاوون فى تنظيم الجيش قبيل بدء المعركة . وجعل فى رأس اليمين الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مرا وعربان الشام ومن انضم اليهم . وفى ١٤ رجب ٦٨٠ (١٢٨١) . بدأت معركة حمص فالتقى الجيشان وواجهت اليمين العربية أعنف هجوم وصمدت اليمين ثم اندفعت فى الهجوم الى ميسرة جيش المغول واختزقت صفوفها وواصلت تقدمها الى قلب الجيش المغولى ، وفى

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٨٥ - ٦٩٢ - ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ،

ج ٧ ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

نفس يوم ١٤ رجب انتهت معركة حمص بانتصار ساحق للعرب^(١) وفي عام ٧٠٢ (١٣٠٢) . (في عهد الناصر محمد بن قلاوون) عاود التتار الهجوم على مدن الشام في أكثر من مائتي ألف وجاءت الأخبار الى مصر بوصولهم قرب حماء ولكن مصر كانت قد أعدت عدتها لمثل ذلك الهجوم واستدعى السلطان عرب الشرقية والغربية ، واحتشدوا بالريدانية .

ومن هناك خرجت القوات المقاتلة من العرب والمماليك متجهة الى مرج راهط . وفي مرج راهط شرقي القوطة اشتبك الجيشان الاسلامي والمغولي في أول رمضان ٧٠٢ (١٣٠٢) وكان عدد المغول يتجاوز مائتي ألف والعرب في نحو هذا العدد واستمر القتال بين الجيشين ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع حلت الهزيمة بجيش المغول

ووقعوا في أيدي العرب بين قتيل أو أسير وجريح^(٢) كما قتل نحو ألف وخمسمائة من المماليك غير من قتل من العرب . أما الأسرى الذين بلغ عددهم نحو ثلث جيش المغول فقد دخلوا القاهرة مكبلين في الحديد في ١٣ شوال عام ٧٠٢ (١٣٠٢) .^(٣)

(١) نفس المصدر - ابن أبيهاس ، بستان الزهور ، ج١ ، ص ٩٦

(٢) ابن أبيهاس ، بستان الزهور ، ج٢ ، ص ١٢١

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٣

دور العرب الدفاعة في عصر دولة المماليك الجراكسة

في عام ٨٠٣ (١٤٠٠) وردت الأنباء الى مصر بوصول جيش تيمورلنك الى قرب حدود الشام الشمالية الا أن رد الفعل عند السلطان فرج جاءت ٨٠١ - ٨٠٨ (١٣٩٨ - ١٤٠٥) بطيعة الى الحد الذي أتاح لتيمورلنك بالتمكن من البلاد ومهاجمة حلب في ١١ ربيع الأول . وفي ٣ ربيع الآخر تحرك الجيش المملوكي من مصر فوصل الى دمشق في ٦ جمادى الأولى وحدث في ذلك اليوم اشتباك بين طلائع من جيش تيمورلنك بلغ عددها ١٠٠٠ فارس وبين طلائع من جيش الحرس السلطاني وكانوا نحو مائة فارس تمكنوا من إيقاف الهزيمة بفصائل الحدود التيمورية وأرغموها على الفرار ^(١) .

كذلك اشترك قبائل العرب في بلاد الشام في المعارك الضارية ضد جيش تيمورلنك . وكثيرا ما كانوا يتغلبون عليه ويهزمونه فيفر المغول مدبرين ^(٢) . ولم تلبث قوة جيش تيمورلنك أن ضعفت بعد مقتل أحد أبنائه وانسحب كثير من جنوده ولبأوا الى معسكر السلطان فرج بقصد الدخول في خدمته . ^(٣)

(١) ابن الجيس ، بلقيع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٩

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفسه ..

غير أن خلافا وقع في معسكر السطبان فرج اضطبره الى العودة الى مصر ، والظاهر أنه قرر العودة لتدعيم قوته بعناصر عربية بدليل أنه جهز جيشه بعدد كبير من العرب فقد بلغ عدد من تقرر اشتراكهم من قبائل العرب مايلي :-

سنة آلاف فارس من عرب البحيرة وألفان وخمسمائة فارس من عرب الشرقية وألف وخمسمائة فارس من عرب بنى وائل - وبلغ عدد فرسان عرب جبل نابلس خمسة آلاف ^(١) .

ومن عجائب الأمور أنه رغم الاستعداد العسكري وشجاعة المدافعين عن الشام من عرب مصر والمماليك ، فإن تيمورلنك استطاع التسلل الى بلاد الشام ، فدخلها بغير قتال . ويرجع السبب في ذلك الى أنه بعد أن ضعف موقف تيمورلنك وانسحب جيشه الى خارج حدود الشام ، قفل الجيش المملوكى هو الآخر عائدا الى مصر ، ولم يكن ذلك بسبب انسحاب جيش تيمورلنك فقط وإنما بسبب فتنة وقعت في الجيش المملوكى اضطرب السلطان على أثرها الى الانسحاب والعودة الى مصر .

فانتهاز تيمورلنك فرصة انسحاب الجيش المملوكى من الشام وبدأ خطة جديدة قوامها مفاوضات أهل الشام والظاهر بطلب الصلح ، ونجح العدو في خطته وتمكن من دخول البلاد بالخدعة ، فكان يبعث جنوده ارسالا حتى لا يلحظ ذلك أحد الى أن تمكن من

(١) ابن الأثير ، مفتاح القصور ، ج ٢ ، ص ٢٨٨

السيطرة على البلاد . وعندئذ أطلق جنوده تحصد أرواح الأبرياء وتستولي على الممتلكات فلما وصلت أنباء ذلك المحجوم الى مصر بدأ السلطان يتأهب من جديد للعودة الى الشام . ولكن تيمورلنك لم يلبث أن انسحب بجميشه في ٢ شعبان أى بعد ثلاثة شهور من احتلاله للأراضى الشامية .^(١)

د - دفاع العرب فى الريدانية

بعد أن هزم المماليك أمام العثمانيين فى مرج دابق فى رجب ٩٢٢ هـ وقتل السلطان الغورى فى ساحة المعركة . تولى نائبه طومان باى الحكم فى مصر . ثم بدأت المعارك بين العثمانيين والمماليك فى مصر بعد ذلك .

فى أول عام ٩٢٣ (١٥١٧) كان العثمانيون قد وصلوا الى الريدانية . وبدأ العرب والمصريون دورهم فى الدفاع عن مصر فقاموا بالمحجوم على العثمانيين فى معسكرهم بالريدانية . واستخدموا القلاع والحجارة من أسلحة القتال . وقاموا بدور فعال فى المعركة الى جانب الجيش . وفى الخامس من المحرم فاجأ الأشرف طومان باى العثمانيين بالمحجوم عليهم وتطويقهم فاضطربت أحوال السلطان سليم للغاية وأيقن بالأسر . وأشيع أنه هجم عليه بجمال محملة ساسا وأطلق فيها النار فاحترق بعض خيام من وطاقه وأوقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر العثمانيين مالا يحصى

(١) نفس المصدر ص ٢٨٩ ٢٩١٠ .

عندهم . واحتشدت لقتال العثمانيين مجموع هائل من الزعر وعياق
بولاق من النواتية وغيرهم . وأخذوا يرمون فى الوطاق بالمقاليح
والحجارة " واستمروا على ذلك الى أن طلع النهار فلاقاهم الأسير
علان الدوادار من الناصرية عند الميدان الكبير فاسعفهم " (١) -

رواصل العرب وأهل القاهرة محومهم على معسكر العثمانيين
فاقتحموا المعسكر واستولوا على الغنائم (٢) وكان لذلك أعظم الأثر
فى اضعاف روح العثمانيين المعنوية . وفى القاهرة دارت المعارك
من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت وكانت الحرب سجالا بين
الطرفين ، وكان العرب والمصريون عوناً لطومان باى (٣) وظل
المماليك والأهالى يقاتلون حتى أعيدت الخطبة فى المساجد باسم
طومان باى بعد مضى أسبوع واحد من اقامتها باسم السلطان
العثمانى .

وهكذا تحول الموقف لصالح المصريين مرة أخرى بفضل تعاون
الجيش والشعب فان الأهالى وان لم يتبع لهم القيام بدور رئيسى فى
المعركة الا أنهم قاموا فى المقاومة بدور فعال ولكن المماليك خرجوا
على خطة طومان باى فى اللحظة الأخيرة فأدى ذلك الى الابتعاد

(١) ابن أبى ، بتاريخ الزهور ، ج ٩ ، ص ١٠٨١

(٢) ابن أبى ، بتاريخ الزهور ج ٩ ، ص ١٠٨١

(٣) نفس المصدر .

عن الهدف الذى كان قد خطط له من قبل . ومع ذلك فقد استمرت الأحوال فى التحسن لصالح طومان باى فترة اسبوع واحد حتى استولى الشعب والارهاق على الجنود المماليك فبدأوا يضعفون عن المقاومة وينسحبون من المعركة ^(١) . واضطر الأهالى من العرب والمصريين الى مقاومة العثمانيين ومواجهتهم وحدهم . واشتشهد منهم كثير . ثم لجأ السلطان طومان باى الى الصعيد حيث ساندته عرب الصعيد ونجحوا فى منع ارسال القمح الى القاهرة تمكينا للضغط على الجيش العثمانى بالقاهرة .

وبفضل تعاون عرب الصعيد تمكن طومان باى من استعادة مركزه العسكرى . ثم أمدته الاسكندرية بالدخيرة ووصلت أخبار هذا الانتصار المملوكى الى القاهرة فأثار ذلك مخاوف العثمانيين . ويعبر ابن اياس عن ذلك بقوله " وفى يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باى قويت شوكته والثف عليه جماعة كثيرة من العربان واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجرم الكثير وأشيع أنه وصل اليه من ثغر الاسكندرية . زردخاناه ما بين نشاب وقسى وبارود . فلما تحقق السلطان سليم شاء ذلك أخذ حذره من الملك الأشرف طومان باى. ^(٢)

(١) نفسه .

(٢) ابن اياس ، بتاريخ الزهور ، ج ٩ ، ص ١٠٨٧ .

استغل طومان باي حالة التحسن النسبية التي طرأت على موقفه العسكري فيادر بالاتصال بالعثمانيين ليفاوضهم في عقد صلح وألح طومان باي الى ما عنده من قوة عربية مكونة من العرب والمماليك فبعث الى السلطان العثماني وقال له " ولا تحسب أني أرسلت أسالك في أمر الصلح عن عجز فان معي ثلاثين أميرا مابين مقدمي ألف وأربعينات وعشروا ومعي من المماليك السلطانية والعرب نحو عشرين ألف" ^(١) وأضاف طومان باي في تلك الرسالة التي وجهها الى العثمانيين قوله أنه إنما يهدف الى حقن دماء المسلمين ، فهو حين طلب الصلح نبه اهتمام العثمانيين الى قدرته على مواجهتهم بما لديه من قوة وعناد من كبار القادة المماليك الذين كانوا لا يزالون تحت امرته وطوع اشارته فضلا عن الفرسان العرب الذين بلغ عددهم مع المماليك السلطانية نحو عشرين ألف ^(٢) .

وقد بلغ طومان باي هدفه بهذه الرسالة واستجاب له السلطان العثماني فأرسل وفدا مكونا من القضاة الأربعة على رأسهم الخليفة العباسي ومعهم كتاب الصلح وفقا لما أعلنه طومان باي . وقد توجه القضاة الأربعة بأمر من السلطان العثماني الى طومان باي بالصعيد وتخلف الخليفة العباسي وأرسل دوا داره يرد بك نهاية عنه .

(١) نفس المصدر .

(٢) نفسه .

وهكذا يتكشف دور العرب فى المعارك التى دارت بين العثمانيين والمماليك من القاهرة الى الصعيد . فهم قد مكثوا طومان باى من استعادة قوته الحربية ، فبعث يطلب الصلح من مركز قوة الا أن خطة طومان باى فى الصلح أحبطها جماعة من الأمراء المماليك الجراكسة المعارضين بالصعيد حين تعرضوا لوفد الصلح العثمانى وقتلوا بعض أفرادهم ، وهكذا ضاعت فرصة الصلح مرة أخرى وكانت معركة الجيزة التى انتهت بهزيمة المماليك . ويصور ابن اياس معركة الجيزة بقوله " وفى يوم الأحد سادس عشر ربيع الأول عدى السلطان سليم الى بر الجيزة بسبب قتال الأشرف طومان باى وقد بلغه أنه وصل الى المنوات ومعه من العربان والعسكر ومن المماليك الجراكسة الجحش الكثير ^(١) . وفى هذه المعركة أحرز المماليك النصر على العثمانيين أكثر من مرة ولكن البنكية كان دورها حاسماً فى انتهاء المعركة لصالح العثمانيين ^(٢)

(١) ابن اياس بدائع الزهور ، ج ٩ ، ص ١٠٩٠

(٢) ظهرت البنكية فى دول الغرب الا أن استعمالها كان شائعاً بين العرب المغاربة أيضاً ، وقد ظهر استعمال البنكية فى مصر عندما أسر السلطان قايتباى باستعمالها فى الجيش المملوكى ، الا أن استعمالها تركف بعد ذلك فى الجيش . ثم جاء أحد المغاربة فى عهد السلطان الغورى وقدم البنكية باعتبارها من الأسلحة المستحدثة والتى شاع استعمالها بين الروم والمغاربة . ومن العجيب حقاً أن السلطان الغورى يرفض استعمالها فى الجيش بحجة أنها من سنة النصارى وليست من سنة المسلمين ، وان الرجل المغربى ثبأ بهزيمة الغورى بنفس هذه البنكية . (ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٩ ، ص ٥٥٨ - أحمد بن زغل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم ، ص ٢٨) .

دور العرب في الدفاع عن الحدود الجنوبية لمصر في عصر دولة المماليك

ألقت الدولة الأيوبية بكل ثقلها لحماية الثغور المصرية الشامية من الخطر الصليبي ولكن الحدود الجنوبية لمصر لم تلق مثل تلك العناية الى حد أنه أهمل شأن الحماية العسكرية التي كانت قائمة على الحدود عند أسوان . مما أدى الى قيام ملك النوبة بشن غارات على المناطق الملاصقة لحدود مصر الجنوبية ، وتمكنه من أسر جماعة من أهلها ^(١) حقيقة أن الخطر كان يجمع دائما لمصر من الشمال أو الشرق الا أن الجنوب كان أيضا في حاجة الى عناية الدولة وحمايتها لأهله أما في عصر دولة المماليك .

فقد أسبغت الدولة عنايتها واهتمامها بحدود مصر الجنوبية ، ونشطت العلاقات بين مصر والنوبة ، فكان لمصر دور فعال في حماية عرش النوبة من مغتصبيه . ومن الجدير بالذكر أن القبائل العربية في مصر شاركت في هذا العصر في الحملات الحربية ضد النوبة . ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٥ - ٦٧٦ وقع صراع بين شكنده ملك النوبة وبين خاله داود على العرش سنة ٦٧٤ (١٢٧٥) واستطاع داود ابعاد شكنده عن عرش النوبة . فلجأ الى مصر واستنصر بالظاهر بيبرس لاعادته الى العرش ولما كان ملك النوبة الجديد يسعى جاهدا الى توسع رقعة ملكه واتجه بالفعل

(١) القزويني ، الخطوط ، ج ١ ، ص ٣٢١ - القزويني ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢١
ابن تغري بردى ، النور الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٨ - ابن اياس ، بلع الزهور ، ج ١ ، ص ٩٠ -
د/سعود عبد الفتاح عاشر ، الظاهر بيبرس ، سلسلة اعلام العرب ط ١٩٦٣ ، ص ١١٨ .

الى جنوب مصر مهددا حدودها ^(١) فقد أدى ذلك الى توتر العلاقات بين مصر والنوبة وعزم الظاهر بيبرس على مواجهة داود ، وسبق ذلك لقاء تم بين شكنديه ملك النوبة المخلوع والظاهر بيبرس في مصر ، وفى هذا اللقاء عرض شكنديه على الظاهر طلبه فقبل الظاهر معاونته ، فجهز حملة عسكرية شاركت فيها القبائل العربية بالوجه القبلى . ^(٢)

خرجت الحملة من أسوان وتقاتلت مع الجيش النوبى بقيادة الملك داود ووقع القتال بين الفريقين ، ثم تمكن العرب والمماليك من ايقاع الهزيمة بالملك داود واعادة شكنديه الى العرش ثم وقع شكنديه فى مقابل ذلك وثيقة يتعهد فيها ببذل حزية سنوية لمصر وقد نصت الوثيقة على أن تكون الحصون المجاورة لأسوان ملكا لمصر ، وأن يعين نائب للسلطان شرط على النوبيين طاعته ويطلق سراح الأسرى المصريين الذين كانوا محجزين بالنوبة .

وهكذا شارك العرب فى حملات الدفاع عن حدود مصر الجنوبية وأسهموا فى بسط سلطان مصر على بلاد النوبة واقتتاح عدد من المدن الواقعة من أعلى الجزائر حتى بلاد العلى ^(٣) .

(١) نفس المصدر - ابن بطون ، المع ، ص ٤٢٩ .

(٢) القرينى ، السطوك ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) بلاد العلى أو بلاد طرة وهى المعروفة ببلاد النوبة العليا وكانت تسمية "سوبة" الواقعة على النيل الأزرق جنوب الخرطوم بمسافة ٢٤ كم . النجوم للزاهرة ، ص ١٨٩ هـ (١) .

وفي عهد المنصور قلاوون ٦٧٩-٦٨٩ (١٢٨٠-١٢٩٠) عاد ملك النوبة الى شق غصا الطاعة على مصر فاضطر السلطان الى تجهيز حملة مملوكية لتأديب ملك النوبة واخضاعه واشترك في هذه الحملة أيضا قبائل العرب من أولاد أبى بكر وأولاد عمر وأولاد الشريف وأولاد شعبان وأولاد الكنز وبنى هلال وغيرهم^(١) وقد تمكنت هذه الحملة من ايقاع الهزيمة بملك النوبة واسره وتعيين ملك آخر على البلاد وأعادت فرض الجزية السنوية عليها على النحو الذى كان جاريا فى عهد بيبرس .

وفي عام ٦٨٨ (١٢٨٩) اضطرت الظروف السلطان قلاوون الى ارسال حملة حربية أخرى الى بلاد النوبة وبلغ عدد من اشترك من العرب فى هذه الحملة أربعين ألف من عرب الوجهين القبلى والبحرى^(٢) . وقد نجحت هذه الحملة المصرية فى تحقيق أهدافها فانتصر الماليك على النوبيين وتبعوا ملك النوبة الى ما بعد مدينة دنقلة بمسيرة خمسة عشر يوما^(٣) وعادت الحملة الى مصر فى عام ٦٨٩ هـ بعد أن تمكن قادتها من تنصيب أسرة الملك داود عرش النوبة وإقرار الجزية السنوية لمصر .

(١) السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٧٣٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٤٩ .

(٣) القريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٧٥٠ .

وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٣ هـ - ٧٤٠ (١٢٩٣ - ١٣٣٩) . قامت حملة حربية من مصر فى سنة ٧٠٧ بناء على طلب من ملك النوبة (اباى) الذى قدم بنفسه الى مصر وقد اشترك فى هذه الحملة جماعة كبيرة من العرب ^(١) . وكان من نتائج تلك الحملات الحربية انتشار العرب فى بلاد النوبة واستقرارهم فى البلاد، وقيام علاقات مصاهرة بين العرب والنوبيين ، وأخيرا انتقل ملك النوبة الى العرب وقد عبر ابن خلدون عن ذلك بقوله "ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم واستوطنوها وملكوها" ^(٢)

كان تغلب العناصر العربية وانتشارها بالسودان عاملا رئيسيا من عوامل الاستقرار الدائم الذى لم يساعد على تأمين الحدود الجنوبية لمصر ضد غارات النوبيين فحسب بل ساعد أيضا على تعمير وتأمين بلاد النوبة نفسها وحمايتها من الغزو العثمانى الذى تعرضت له مصر والشام . ولم تنج من مساره ، ففى أوائل القرن السادس عشر الميلادى أرسل السلطان سليم العثمانى الى الملك عماره دنقس ٩١٠ - ٩٤٠ (١٥٠٥ - ١٥٣٤) ^(٣) .

(١) نفس المصدر ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٦

(٢) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٥ ، ص ٤٩٨

(٣) الملك عماره دنقس هو أحد الملوك الذين حكموا سنار وكان من أصل عربى (نعيم نعيم

تاريخ السودان القديم والحديث ج ٢ ، ص ١٧١ .

بدعوه الى الدخول في طاعته أو اعلان الحرب عليه . وقد واجهه الملك العربى الموقف بشجاعة فأرسل الى السلطان العثمانى كتابا يرغب فيه عن حرب أهل سيناء لأنهم مسلمون يدينون بدين الاسلام . وليسوا على استعداد لتقديم جزية سنوية لأنه ليس لديهم ما يقدمونه له ثم أرفق بكتابه كتابا بأنساب قبائل العرب فى تلك المنطقة . وقد عدل السلطان عن عزمه وانسحب بغير حرب وبهذه الشجاعة العربية أمكن تخريب البلاد حالة الحرب حيث قبل السلطان سليم دفاع ملكها وانسحب دون اراقة نقطة دم واحدة .

وهكذا تحقق السلام والأمن لمملكة سنار^(١) . كذلك ساهم العرب فى تعمير البلاد فان مدينة سنار نفسها من انشاء الملك عمارة^(٢) وقد بلغ انتشار العرب والدماجهم بالمصاهرة مع النوبيين الى الدرجة التى لايمكن عندها تفرقة العربى عن النوبى ، اذ أن الجميع أصبحوا يتكلمون اللغة العربية وهى لغة الكتاب عندهم ، ولا يوجد لغة غيرها . وهم يتكلمونها بلهجة حسنة^(٣) .

ومن القبائل العربية فى السودان حمير وربيعة . وبنو كاهل وبنو ذبيان وبنو عيس وفزارة وبنو سليم^(٤) . وأغلبها من القبائل التى

(١) نعوم شقير ، تاريخ السودان ، ص ١٧١

(٢) النسخ أحمد كاتب الشرطة ، تاريخ ملوك السودان ، تحسن مكى شيبه

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١١١

(٤) نفس المصدر ج ١ ، ص ١٢

كانت مصر ثم هاجرت الى السودان واستقرت به ومن حيث مناطق استقرار العرب نجد أنه في جزيرة (أبا) شرقى النيل الأبيض وغريبه نزلت كثانة وسكنت سليم في جنوبهم وفي بلاد أبى حراز وعبود ، وود مدنى سكن العراقيون من بنى جعفر الطيار وسكن معهم الكواهلة ويتنسبون الى الزبير بن العوام . وفي شرقى وغربى النيل الأزرق سكن العلاطيون وبنو حسين واللحويون ، والقواسمة والحملدة والعقيليون وجميعها تنسب الى جهينة ^(١) ويتضح لنا مما سبق أن القبائل العربية التى هاجرت من مصر فى عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية هى التى قامت بمهمة تعريب السودان .

وظلت بلاد السودان منطقة جذب للعرب المقيمين فى صعيد مصر حتى القرن الثامن عشر ^(٢) وهكذا بفضل جهود العرب أصبحت الحدود الفاصلة بين مصر والسودان منطقة عبور آمنة للطرفين وبواسطتها كان يتم التبادل التجارى وأنواع النشاط الأخرى المختلفة . وازدهرت الهجرة للعلم بالأزهر بالقاهرة بجانب نشاط المصلحين من أفراد القبائل العربية وتطور دور القبائل العربية

(١) نعيم شقر ، تاريخ السودان ، ص ٥٥ - ٥٧ .

(٢) فى عهد الملك نزل ملك سنار ١٧١٨ - ١٧٢٢ (١١٣١ - ١١٣٥) توجس السرحان بهجوم الحبشة فجهش بلغ تعدادهم مائة ألف حدى وقد استطاع السودانيون والعرب منعة هذا الجيش فى سوقة سنار . قال الشيخ أحمد (وهذه الواقعة زادت سنار شهرة لدى الأقطار الاسلامية حتى كسبتها الزقود من الحصار والسند والمند وأهل صعيد مصر والمغرب الأقصى واستولوا بها) .
الشيخ أحمد كاتب الشونة ، تاريخ ملوك السرحان ، ص ٢٦ ، ٤٨ ، ٧٢ .

في انعريب حتى اصبح السودان في القرن الرابع عشر الهجري عربيا
في لغته مسلما في دينه .

الباب الثالث

ثورات العرب في مصر في عصر المماليك

الفصل الأول :

موقف العرب من المماليك عند قيام دولة المماليك

في مصر:-

- ١- طبيعة العلاقات بين العرب وبين الأيوبيين ثم المماليك .
- ٢- موقف العرب من الصراع بين العناصر الأيوبية في مصر وبين المماليك .
- ٣- نتائج سياسة العتف ضد العرب .

الفصل الثاني :

ثورات العرب في مصر على المماليك والأسباب والنتائج :-

١- في عصر بني قلاوون

- أ- غلبة العاملين السياسى والاقتصادى .
- ب- في عهد الناصر محمد .
- ج- في عهد المنصور حاجى .
- د - في عهد السلطان حسن .
- هـ- في عهد الأشرف شعبان .
- و- في عهد المنصور على بن الأشرف شعبان .

٢- في عصر المماليك الجراكسة

- أ - في عهد الظاهر برقوق .
- ب- في عهد الأشرف ابنال .
- ج- في عهد الأشرف قايتباي .
- د - في عهد محمد بن قايتباي .
- هـ- في عهد الغوري .

٣- تحالف قبائل العرب ضد الحكم المملوكي

-الأسباب والنتائج-

٤- ثورات العرب في بداية العصر العثماني

الفصل الأول

موقف العرب من المماليك عند قيام دولة المماليك في مصر

- ١ - طبيعة العلاقات بين العرب وبين الأيوبيين ثم المماليك
- ٢ - موقف العرب من الصراع بين العناصر الأيوبية في مصر وبين المماليك .
- ٣ - نتائج سياسة العنف ضد العرب .

الفصل الأول

موقف العرب من المماليك عند قيام دولة المماليك في مصر :-

١ - طبيعة العلاقات بين العرب والأيوبيين ثم المماليك .

بدأ تعاون العرب مع الدولة الأيوبية مبكرا للغاية ، فقد اتضح هذا التعاون بوجه خاص مع صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية قبل أن يتولى الحكم في مصر أيام كان وزيرا للعاقد وقد حفظ السلطان صلاح الدين للعرب هذا النور ثم نهج هذا المنهج خلفاؤه في الحكم ، وهكذا ساد العصر الأيوبي نوع من الوفاق بين الأسرة الأيوبية الحاكمة وبين قبائل العرب ^(١) ويستدل على صحة ذلك من المنشورات الرسمية الصادرة الى الولاة في الأقاليم ، ومضمون هذه المنشورات يعبر بجلاء عن الروح الودية السائدة وعلى أن الدولة لم تكن تعاني من مشاكل أو صراعات داخلية من جانب القبائل العربية فمن ذلك ماورد في منشور صدر في هذا العصر بمناسبة تسلم أحد الولاة عمله كوال على الشرقية ونصه (وابسط العدل على أهل هذه الولاية واخصص أهل السلامة بما يسهل عليهم

(١) كان القرشيون في مصر مقرنين لبني أيوب ، ذلك أن الأيوبيين حرصوا كل الحرص على أن يضيفوا الى نعتهم القائلين "روية سلالية" ، فاعتزوا بالانتساب الى مروان في رواية أو الى هوازن في رواية أو الى الازد في رواية ثالثة (راجع د. عبد الجهاد عابدين في البيان والاعراب ، ص ١١٨) - ود. الدكتور عبد النعم مامد ، اعاد من الاسرة الأيوبية في الدفاع عن الاسلام كان من أمه بابي تمسك العرب بهذه الاسرة ويستند في ذلك على أن المصريين كما يذكر ابن أبي شامة هم الذين كانوا سلطة فصرة الفد (راجع موقف المصريين من حكم المماليك في العصور الوسطى ، حرره دائرة الآداب ، جامعة عين شمس ، العدد ١٧ ، ١٩٦٩ ، ص ٥٠)

سخر الحيلة والحماية وتطلب المفسدين أتم طلب واحظر عليهم التقل
فى هذه البلاد والتقلب . ومن ظفرت به منهم فقابله بما يوجه
حكم جريته ويقتضيه موقع جريمته ^(١) وهذه سياسة عادلة فان هذا
الأمر قد شمل جميع المواطنين ولم يوجه الى فئة جون أخرى فهو قد
حدد أن العقاب على المفسدين وان الحماية لأهل السلامة ، من
المعروف أن العدد الأعظم من سكان الشرقية من العرب القيسية
الذين استقروا فى هذا الاقليم من العصر الأموى .

وهناك منشور ثان صدر بمناسبة تعيين والى على اقليم برقة ^(٢)
جاء فيه (خرج أمر العادل - السلطان العادل - بكتب هذا المنشور
لك بما أنعم عليك بولايته واقطاعه وهو برقة بجميع أعمالها وحقوقها
من العقبة الصغرى الى آخر حدودها وبما أمر به كافة العربان
المقيمين بهذه البلاد وجميع أهلها من حاضر وباد : من الاعلان لك
بشعار الطاعة وصون مايلزمهم أداءه اليك من فروض النصح عن
الاضاعة . وان يذلوا فى موافقتك غاية الاجتهاد ويعتمدوا من
امثال مراسمك أحسن اعتماد ويحللوا من العلل عن أمرك ويحتبوا
مخالفة نهيك وزجرك) ^(٣) ويلاحظ أن المنشورين الأول والثانى
لا يتضمنان مايشير الى وجود قلاقل تثيرها القبائل ضد الحكومة فى

(١) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٤٤

(٢) برقة أحد اقاليم ليبيا وكانت تابعة لمصر فى ذلك الحين وقد وضع ذلك من النص الوارد
بالمنشور الخاص بتعيين وال على برقة .

(٣) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٦٠

حين ينص كل من المنشورين على العمل على نشر العدل وتعقب
المفسدين بما يوجبه ماوقع من مخالفة وفي حدود العدل بعيدا عن
الانتقام والجور. وهو يدل بوضوح على سلامة موقف كل من
القبائل العربية والسلطة الحاكمة. فالدولة تبذل نوعا من الرعاية
والتعهد بالحماية ويقابل ذلك عرفان بالجميل وشعور بالطاعة من
جانب القبائل الأمر الذي أدى الى الاستقرار والانضباط واستتباب
الأمن في كافة أنحاء البلاد وفي ذلك ما يعد تعبيرا واضحا عن صحة
القول بأن العرب كانوا على وفاق مع بني أيوب.

أما في عصر الماليك فقد اختلف الأمر اختلافا كبيرا ويمكن
الاستدلال على صحة ذلك من عقد مقارنة بين المنشورات الصادرة
في هذين العصرين.

ففي منشور صدر في عصر الماليك جاء ما يلي (... فلا تمكن
أحدا من العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرسا فائما يعدها
للخيانة غثلسا ولا يكون لها مرتبطا ولا محسبا وكن لهم ملاقيا مراقبا
فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمنا معاقبا ولا تمكنهم من حمل السلاح
ولا ابتياعه ولا استعارته ولا استيداعه وتفقد من بالأقاليم من بجارة
وصناعة فخذ بالقيمة ما عند التجار واقمع بذلك نفس الفجار وأحرم
نار العذاب على من أحرم لعمل ذلك النار)^(١)

(١) القائل: سيح الأمل، ج ١١، ص ٤٧٨.

. وواضح من هذا المنشور الأسلوب العدائى نحو العرب والفلاحين .
عما لا يدع مجالاً للشك فى أن عداء السلطة المملوكية للعرب سافر
لا يحتاج الى دليل اثبات . وواضح من نص المنشور أن سبب ذلك
يرجع الى معارضة العرب لحكم المماليك فى مصر الى حد قيامهم
برفع السلاح على السلطة الحاكمة وكذلك فقد عمل حكام
المماليك على منع وصول السلاح الى العربى بكل وسيلة .

وورد فى منشور آخر ما يلى (... ولا يمكن أحدا من العربان
بجميع الوجه القبلى أن يركب فرسا ولا يقتنيه ويكفى بذلك الأيدى
المعتدية فان المصلحة لمنعهم من ركوبها . مقتضية وليقم الحربه
والمهاجرة وليدم قيامه من الخدمة وانتصابه وليرهمف حد عزمه ويمضيه
ومن وجد من العربان خالف المرسوم الشريف من منعه من ركوب
الخيل كائنا من كان ضرب عنقه وأرهمه من البطش بما أرهمه ليرتجع
به أمثاله ولا يفسح لأحد فى الشر بماله)^(١)

ويرجع أسباب الصراع القائم بين العرب والمماليك الى أن
المماليك الذين استولوا على الحكم لم يكونوا من أهل البلاد وإنما
كانوا بجرد وافدين لأغراض حرية فحسب كما أنهم لم يرتبطوا مع
الشعب المصرى بروابط المصاهرة والنسب وظلوا منعزلين عن أفراد
الشعب ومع ذلك فانه اذا كان للمماليك دور فعال فى الدفاع عن

(١) القلقشنلى ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤٢٢

مصر وحمايتها من أعدائها فإن للمصريين والعرب دورهم أيضا في الدفاع بنفس القدر الذي كان للمماليك .

ولذلك فقد رأى العرب أنهم أحق من المماليك الغرباء بحكم مصر ومما لا شك فيه أن العرب كان لهم دور واضح في جميع المعارك الحربية الكبرى التي وقعت في أرض مصر والشام وأيضا في مختلف عهود الاسلام . ثم أنهم اندمجوا مع شعب مصر وارتبطوا معه بروابط وثيقة في حين أن المماليك كانوا يشكلون عناصر غريبة عن البلاد دخيلة عليها . فهم قدموا الى مصر بهدف خدمة الدولة وليس عليهم الا الطاعة فاذا عصوا صاروا خوارج ولا طاعة لهم على أحد . ولكن المماليك بدلا من التزام الطاعة عملوا الى الاستبداد بحكم مصر بحكم أنهم يتولون قيادة الجيوش وأهم مناصب الدولة . فانتهزوا فرصة انهيار البيت الأيوبي في مصر بعد مصرع توران شاه وتغلبوا على زمام السلطة في مصر وكان طبيعيا أن يستبد الخطر بأهل مصر من المصريين والعرب اذ كان من الصعب أن يعترفوا بسلطان قد مسه الرق يسيطر على البلاد ويخضع أصحاب السيادة الشرعية بالفعل لسلطانه ، وقد عبر حصن الدين ثعلب قائد الثورة العربية في مصر عن مشاعر العرب نحو المماليك السادة الجدد بقوله (نحن أصحاب البلاد)^(١) ومن هنا يبدأ العداء بين العرب

(١) القرطبي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٢٨٦ ، البيان والاعراب ص ١٠ ، ٣٨ .

والمماليك ويأخذ العرب جانب بقايا البيت الأيوبي في صراعه مع المماليك .

٢- موقف العرب بين الصراع بين العناصر الأيوبية في مصر وبين المماليك :-

بعد مصرع توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية عام ٦٤٨ (١٢٥٠) رفض العرب أن يرث الأيوبيين إلى المماليك . وأعلنوا معارضتهم لهم في حكم مصر وأظهروا تعاطفهم مع أمراء البيت الأيوبي البائد بينما كان المماليك يواجهون لوم الخلافة على تنصيب شجرة الدر عرش السلطنة المملوكية في مصر تحرك الملك الناصر صاحب حلب إلى دمشق بتأييد من الأمراء القيمرية ، واستولى عليها . ولما أحس المماليك بخرج موقفهم لجأوا إلى تولية عز الدين أيك قائد الجيش وزوج شجرة الدر عرش السلطنة بدلا منها بعد ثلاثة شهور من توليها السلطنة .

ويذكر المقرئ أن الأمير عز الدين أيك تزوج شجرة الدر في تاسع عشر من ربيع الآخر بعد أن خلعت نفسها من مملكة مصر ونزلت له عن الملك فكانت مدة ولايتها ثمانون يوما^(١) ثم توالى بعد ذلك تحركات أحفاد صلاح الدين تعلن عن إصرارها على حقها في وراثة عرض مصر . فالملك السعيد حسن به العزيز عثمان بن العادل بن أبي بكر بن أيوب استولى على مال مدينة غزة وزحف إلى

(١) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ، ص ٣٦٦

قلعة الصبية فتغلب عليها ^(١) وكان المغيث عمر قد وضع يده على كل من الكرك والشوبك ^(٢).

وعلى أثر ذلك اجتمع أمراء المماليك في مصر واجمعوا رأيهم على ضرورة الأخذ بمبدأ وراثية العرش وعزموا على تنصيب أمير من البيت الأيوبي على العرش على أن يشولى المعز أيك تدبير أمور الدولة مستهدفين من وراء ذلك الاجماع على طاعته فاتفقوا على اقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى وكان له من العمر ست سنين شريكا للمعز أيك وان يقوم المعز بتدبير الدولة . وتم ذلك فى ثالث جمادى الأولى ^(٣) وعلى الرغم من ذلك الحل السياسى الذى توصل اليه المماليك فى مصر لتهديد المعارضة فان الملك الناصر صاحب الشام أخذ يتأهب للاستيلاء على مصر ^(٤) . كان عرب مصر فى هذه الأثناء يعملون لتأييد البيت الأيوبي وأظهروا تعاطفهم مع البيت الأيوبي فى حقه فى وراثية العرش وأيدوا تحركات الملك الناصر . ولهذا السبب قام المماليك بحركة اعتقالات واسعة النطاق بين عرب الصعيد قيادا على تحركاتهم ضدهم . ويعبر المقريزى عن ذلك بقوله: (فلما ورد الخبر اضطربت الدولة ورسم يجمع العربان من

(١) نفس المصدر ، ص ٣٦٩

(٢) نفسه

(٣) نفسه .

(٤) نفسه ، ص ٣٧٢ - ابن تبرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦

الصعيد وقبض على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل مع الملك الناصر
فى ثانى شوال عندما ورد الخبر بوصوله الى غزة (١)

وقد شارك المصريون العرب فى تعاطفهم مع الأيوبيين ضد الحكم
الملوكى . ولم يرضوا بسلطان مسه الرق وظلوا يسمعون ما يكره
فى مواكبه حتى مات . وكانوا يرددون التهافت العادية له (لا تريد
الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة) (٢) .

وفى خضم هذا الصراع بين القوتين الاسلاميتين بقايا البيت
الأيوبي والمماليك ، قام رسول الخليفة العباسى من بغداد بمحاولة
للتوفيق بينهما أسفرت عن عقد صلح بينهما فى عام ٦٥١
(١٢٥٣) ، ويشير المقرئى الى ذلك بقوله (وفيها (عام ٦٥١)
تقرر الصلح بين الملك المعز أليك وبين الملك الناصر وصاحب دمشق
بسفارة نجم الدين اليادرائى وقد قدم نجم الدين الى القاهرة وصحبته
عز الدين ازدمر وكاتب الانشاء ببغداد نظام الدين أبو عبد الله محمد
بن عبد المولى الحلبي) (٣)

وبفضل ذلك تحقق للمماليك الاستقرار السياسى فى مصر
وأصبحوا يحكمونها باعتراف الخليفة العباسى والعناصر الأيوبية (على

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٦٩

(٢) جمال الدين ابن الجاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣ - خلال الدين السمرطى حسن
الهاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٨٥ - النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢

أن يكون للمصريين إلى الأبد ولتناصر ماوراء ذلك وأن يستعمل
للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله .^(١) ولكن الممالك
لم ينسوا للمصريين موقفهم العدائي فاستخدموا معهم منتهى العنف
وعاملوهم بقسوة بالغة تجاوزت منهم معاملة الفرنج ويؤكد ذلك
قول المقرئى أنه فى نفس العام الذى تم فيه الصلح بين الممالك
والأيوبيين (كثر ضرر الممالك البحرية بمصر ومالوا على الناس
وقتلوا ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وبالفوضى الفساد حتى لو ملك
الفرنج ما فعلوا فعلهم)^(٢)

كذلك يعبر السيوطى عن سياسة الممالك نحو شعب مصر
وموقف هذا الشعب منهم بعد أن تولى إليك عرش السلطنة (وعظم
شأن الأتراك من يومئذ وملوا أيديهم إلى العامة وأحدث وزيره إلا
سعد الفائزى ظلامات كثيرة)^(٣)

وما لاشك فيه أنه ترتب على النزاع القائم بين الممالك وبقيها
البيت الأيوبى يؤيدهم شعب مصر والعناصر العربية التى أنكرت
على الممالك ذلك العناصر الدخيل على البلاد - حكم مصر .
اضطراب سياسى اعتزت له البلاد فافتقد الناس الأمان سيما وقد
ارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا أدى بطبيعة الحال إلى اضطراب

(١) نفس المصدر ، ص ٣٨٦ - النجوم ، ج ٧ ، ص ١١ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ط ٢ ، ج ٣٨٠ .

(٣) حلال الدين السيوطى ، حسن الحاضرة ، ج ٧ ، ص ٣٥ .

الحياة الاقتصادية ولم تسكت المصادر العربية في مصر عن اعلان
 رأيها في الحكم المملوكي ^(١) فلم يلبث أحد زعماء عرب
 الجاهلية انداريين هو حصن الدين ثعالب في الصعيد أن قام في عام
 ٦٥١ (١٢٥٢) يدعو إلى قيام دولة المماليك في مصر .
 واشتد حراجه عرب البلد ، وابطالوهم ومنع الأجناد من جباية
 الخراج . وهو رح هو وأصحابه بأنهم أحق بالملك من المماليك . ^(٢)

واجتمع مع حصن الدين عرب الصعيد والبحيرة والجيزة والفيوم
 وسعدوا حلفاء بزعامته وبلغ تعدد فرسانهم اثني عشر ألف فارس
 حاشا أعداد أخرى كبيرة من المشاة ^(٣) وبدأت المعركة بين العرب
 والمماليك في صباح يوم من عام ٦٥١ (١٢٥٢) في منطقة ذروة
 بالصعيد الأوسط ^(٤) وتولى قيادة أجناد العرب في هذا اليوم زعيم
 الثورة حصن الدين إلى الظاهر ، ثم قدر لحصن الدين أن يسقط من
 فوق فرسه وسرعان ما اجتمع حوله جماعة من الفرسان العرب في
 شكل حلقة . وظلوا يقاتلون دونه قتالا شديدا حتى أركبوه وقد
 سقط من رجاله أربعون قتيلاً ، وقد استنزفت هذه الموقعة قوة
 العرب وفقدوا القدرة على مواصلة القتال بحيث لم يجد حصن الدين
 بدا من الانسحاب منهزماً من المعركة ولم يشأ فرسان المماليك أن

(١) المصدر ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٦

(٢) المصدر ، ج ١ ، ص ٢٨٧

(٣) ذروة : يقع بينهم الشماليين الصعيد الأوسط (البيان ص ٣٩)

يتركوا العرب ينسحبون دون أن يلحقوا بهم أعظم الخسائر
فصحبوهم وأدروا فيهم قتلا يسوقهم ثم جمعوا الأسلاب والغنائم
وعادوا بها إلى معسكرهم في بلبس^(١) ولم يقف الأمر عند هذا
الحد فقد استلحدم الممالك كل ضروب العنف والقسوة في مقاومة
الثورة العربية . ولما تمكنوا من تحقيق النصر في معركتهم ضد
العرب استولوا على ممتلكاتهم وعجزوا عن حصرها لكثرتها . ثم
اتجهوا إلى عرب قبيلتي سنبس ولواته في كل من إقليمى الغربية
والمتوفية وطوقوهم ونكلوا بهم ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم
وعاملوهم معاملة أسرى الحروب ، فللت سنبس بعد ذلك وقلت
وتفرقت بالغربية^(٢)

حاول حصن الدين ثعلب بعد هزيمته أن يعقد الصلح مع السلطان
عز الدين أيلك واستجاب للمالك لهذه الدعوة غير أنها لم تأت كما
كان يشتهي العرب ، إذ أن الممالك خانوا العهد الذى قطعوه على
أنفسهم للعرب فيبعد أن منع الملك للمعز أيلك الشريف حصن الدين
ثعلب الأمان ووعدته باقطاعات له ولأصحابه ليصيروا من جملة
العسكر وعونا له على أعدائه اتخذ الشريف حصن الدين وظن أن
التوك لا تستغنى عنه في محاربة الملك الناصر وقدم فى أصحابه وهو
مطمئن إلى بلبس . فلما اقترب من الدحايز نزل عن فرسه ليحضر

(١) التبريزى ، المطوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٢) نفس المصدر ، بيان ، ص ١٠ .

بجلس السلطان قبض عليه وعلى سائر من حضر معه . وكانت عدتهم نحو ألفى فارس وستمائة راجل ^(١) .

غير أن القلقشندي ينكر أنه وقع في أسر أيك ويؤكد على الضد من ذلك أنه ظل طليقا الى عهد الظاهر بيبرس الذي تغلب عليه بالخدعة وشنقه بالاسكندرية ^(٢)

وأيا كان الأمر فقد تمكن الماليك أيام أيك من التغلب على الثورة العربية بقيادة حصن الدين ثعلب .

٣- نتائج سياسة العنف ضد العرب :-

يذكر المقرئ في السلوك أن من نتائج ثورات العرب ضد الماليك أن (تبدد شمل عرب مصر وجمدت جمرتهم من حيث ^(٣) ويستدل من هذا النص على أن سياسة العنف التي جرى عليها الماليك ضد العرب أسفرت عن نتيجتين : الأولى :

١ - تبدد شمل العرب في مصر

٢ - جمود جمرة العرب .

أما النتيجة الأولى وهي تفرق العرب في مصر فصحيح أكدته الأحداث بعد ثورة حصن الدين . فقد أدت سياسة العنف والقسوة

(١) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨

(٢) القلقشندي ، صبح الأمل ، ج ١ ، ص ٦٧

(٣) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ق ٢ ، ص ٢٨٧

الى حجرة عدد كبير من المزارعين العرب الى المدن الكبرى بقية التسول أو السرقة أو الاشتراك في المنازعات والاضطرابات الداخلية التي كان يقوم بها الممالك أنفسهم^(١) . وكان هؤلاء العرب يعرفون باسم الخرافيش أو الدعر . وقد لقي هؤلاء الخرافيش معاملة حسنة من السلطان الظاهر بيبرس . ففي عام ٦٦١ (١٢٦٣) ظهر الغلاء في البلاد وعدمت الأقوات فأمر السلطان الظاهر بيبرس بجمع الخرافيش وكانوا نحو ألفي حرفوش وفرقهم على الأمراء وأخذ لنفسه منهم جانباً وأمر لكل واحد منهم برطل خبز ونصف رطل لحم كل يوم . ومنعهم بذلك من سؤال الناس^(٢) ثم عاد وجمع الخرافيش مرة ثانية في ٦٦٢ وأمر لكل واحد منهم بكسوة ومائة درهم وكان ذلك بمناسبة خلع ولده الملك السعيد محمد^(٣) .

كذلك أدت سياسة العنف ضد العرب في بعض العهود المملوكية الى احتماهم بالمصريين والاختلاط بهم ومصاهرتهم . للدرجة أن قبيليا كان أميراً على قبيلة من عرب حذام . يذكر ابن أبيس أن قاسم ابن بقر أمير عربان حذام بالشرقية واسمه نصر بن عبد الله القبطي كان رئيساً حشماً كيس حسن الهيئة لطيف الذات . ولّى عدة وظائف سنه في عهد الأشرف قايتباي . وعلى الرغم من أنه

(١) ابن أبيس ، بتائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ - د . عبد المصم صاحب موقف المصريين من حكم الممالك في العصور الوسطى ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ط ٦٩ ، ص ٥٧

(٢) ابن أبيس ، بتائع الزهور ، ج ١ ، ص ٨٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٦

كان حسن السيرة محبوبا من الناس فانه لم يسلم من جور وعسف
المالِك . (١) .

لقى أمراء العرب ومشائخهم الكثير من جور المالِك وعسفهم
وكثيرا ما كانوا يستولون على ثروات العرب وممتلكاتهم دون مرور
لذلك ومن أثرياء العرب الذين سلب المالِك ثرواتهم مقداد بن
شماس وكان فى غاية من الثراء قبض عليه فى عهد السلطان محمد بن
قلاوون ثم أفرج عنه وأنعم عليه السلطان بمال وغلل . وأمر بإعادة
ممتلكاته اليه (٢) .

كذلك كانت تلفق التهم للعرب لمجرد نهب ثرواتهم والاستيلاء
عليها . فقد اتهم النشو وزير السلطان محمد بن قلاوون ابن زعازع
من قبائل لواته المتعربين بأنه وجد كنزا صادر جمع أمواله
وممتلكاته (٣) ولما تكشف للسلطان ظلم النشو للرعية قبض عليه
وصادر ممتلكاته هو الآخر . (٤) وقد لعب بعض كبار الصوفية من
الزهاد والصالحين دورا فى حماية بعض زعماء العرب من جور
المالِك ورد اعتبارهم اليهم . ففى عهد الصالح صلاح الدين محمد
بن قلاوون قام ابن الأحمد بشورته العارمة فى الصعيد . وبعد فشل

(١) نفسه ، ج ٥ ، ص ١٩٥ .

(٢) القزوينى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٢٩ النجم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٦

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٠٩

(٤) نفسه ، ص ٤٧٧ - ٤٨٢

الثورة وانسحاب ابن الأحمد بن عباد ولجأ إلى الشيخ أبي القاسم الطحاوي وطلب منه التوسط لدى السلطان لمثمتها العفو عنه على شريطة أن يلتزم بإعادة الأمن إلى البلاد وتحصيل الخراج باسم السلطان . وقبل السلطان وساطة الشيخ . وعفا عن الثائر العربي ابن الأحمد والبسه خلعة وناله أنعاما كثيرا من الأمراء ^(١) .

وأما النتيجة الثانية وهي : خمود جمرتهم من حينئذ فقد ثبت عكس ذلك من الأحداث التالية إذ أن الثورات العربية استمرت بعد ذلك ولم تنته طوال العصر المملوكي وحتى بداية العصر العثماني . وبدلاً من هذه النتيجة الثانية نضع نتيجة ثانية هي زيادة اندماج العرب مع الشعب المصري .

لقد كان العرب في الحقيقة يخرجون من كل معركة - منهوكة القوى فلا يجدون ملجأ إلا الشعب وعلى هذا النحو كان يحدث بين العرب والمصريين اندماج تدريجي بات واضحاً مع مضي السنين .

فبعد ثورة حصن الدين أمر المعز أيك بزيادة ما يحصل من العرب من أموال أو هدايا تفرض عليهم ومعاملتهم بالقسوة عقاباً لثورتهم ^(٢) وقد تسبب ذلك في إضعاف القوة العربية وعلى الرغم مما صار عليه العرب من القلة والضعف فإن ثوراتهم ظلت تورق الحكام

(١) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٩١٦ - د. عبد الله محمد ، موقف المصريين من حكم المماليك في العصور الوسطى ، العدد الثاني عشر من دراسات كلية الآداب جامعة عين شمس ، ط ١٩٦٩ ، ص ٥٥

(٢) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٨٨

الماليك . وان لم يعملوا على تفصى أسبابها . ذلك أن ثورات العرب التى أعقبت ثورة حصن الدين ثعلب كانت أسبابها اقتصادية الا أن العداء الذى خلفته ثورة حصن الدين بين العرب والماليك القى بظله على كل ثورة كان يقوم بها العرب كما أن الماليك كثيرا ما كانوا يصادرون مواشى العرب وأغنامهم على الرغم من أنها سبب حياتهم ومصدر رخائهم . ففى عهد السلطان الظاهر أبو سعيد قانصوه قام الأمير طومان باى الدوادار بالاستيلاء على مايزيد عن أربعة آلاف رأس من أغنام عرب عزالة وعاد بها غنيمة الى القاهرة^(١)

ولم يكدمضى أربعة شهور على ذلك العمل حتى قام عرب عزالة بحركة هجومية ضد كاشف البحيرة . ثم انسحبوا من هذه المعركة سريعا واتجهوا الى العيصرة قريبا من القاهرة . وعلم السلطان بأمرهم فأمر بإرسال حملة عسكرية لقتالهم . وتقابل الفريقان عرب عزالة والحملة المملوكية وكانت مكونة من عدد من كبار الأمراء الماليك وعدد كبير من العسكر . خرجوا لابسين آلة الحرب . وتقاتلوا قتالا شديدا انتهى بسقوط خمسين قتيلًا من الأتراك وخمسين من عبيدهم غير الجرحى . واستولى العرب على ماكان فى معسكرهم ثم انسحبوا عائدين الى الصعيد^(٢) ولم يسلم

(١) ابن الجوزى ، بتلغ الزهور ، ج ٤ ، ص ٦٤٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٤٨ .

عرب عزالة من رد الفعل ضيلهم وجاء هذه المرة أشد وأقسى من
كل ماسبق^(١) .

وكانت نتيجة ذلك كله أن عرب عزالة امتلأت صلبورهم بالحققد
والضعينة ضد الحكام المماليك ولم يغفروا لهم ذلك أبدا . فلما وقع
القتال بين المماليك والعثمانيين خرج عرب عزالة عن الخط العربي
وراجهوا المماليك بعداتهم السافر ورفضوا التعاون ضد العثمانيين
وقالو (لاسمع ولاطاعة)^(٢) .

(١) نفسه ، ص ٦٤٩ .

(٢) ابن زبيل الرمال ، تاريخ السلطان سليم ، ص ٧٨

الفصل الثاني

ثورات العرب في مصر على المماليك الأسباب والنتائج

(١)

في عصر بني قلاوون :-

أ- غلبة العاملين السياسى والاقتصادى بوجه عام فى تحريك العناصر العربية ضد المماليك كان للظروف الاقتصادية المتقلبة دورها الخطير فى حياة الشعب المصرى على مختلف طبقاته . فالاضطرابات الداخلية كانت تحدث دائما فى أعقاب ظروف اقتصادية صعبة . كما أن المعارك التى كثيرا ما وقعت بين بعض القبائل العربية والسلطة المملوكية الحاكمة كانت تحدث دائما فى ظروف اقتصادية غير مواتية . كالشأن فى المعركة التى وقعت بين قبيلتى حابر ومرديس^(١) فى سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م) فى إقليم البحيرة فى عهد

(١) قبيلتا حابر ومرديس : ورد ذكرهما فى منابع الزهور لابن ابراهيم فى جملة أحداث عام ٦٩٩ (١٢٩٩م) فى عهد الناصر محمد بن قلاوون قال (فى هذه السنة وصل البحر من البحيرة قد انحطفت طائفتان من العرب هما حابر ومرديس) منابع الزهور ج ١ ، ص ١٢٠ . أما عن حابر فيقول ابن خلدون (بنو حابر هؤلاء من عناد طم وربما يقال أنهم من سدرة إحدى فرق رنثة أو لواته) (العرب ، ج ١ ، ص ٣٠) . وبسببهم التزموا الى حنام (القريوى البهاى والاعراب ، ص ١٤) والأرجح أن حابر الذين كانوا ينزلون بالبحيرة حرب تمكنوا من الغرب فى هجرات الى مصر لأن ابن ابراهيم يذكرهم مع حرب مرديس وهم أيضا كانوا يقيمون بالأندلس . ومرديس بطن من حنام من القسطنطينية كان لهم ملك بناحية بالنسية من الأندلس فى جملة ملوك الطوائف وبقي الملك منهم الى عام ٥٤٤ هـ (١١٤٩م) (مصر كسطة ، معجم قبائل العرب ، ج ٣ ، ص ١٠٧٥)

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ^(١) على أن العامل الاقتصادي كان يتخذ عادة مظهرًا سياسيًا ودينيًا ، فمما لاشك فيه أن طغيان المالك وسياستهم القائمة على الأخذ بالقهر والاذلال وماجروا عليه من اغتصاب الأموال وتكديس الثروات وافقار الشعب المصرى واستنزاف موارده المالية . كان لها أعظم الأثر فى تحريك مشاعر السخط الشعبية ضدهم ، فكان علماء الدين يتدخلون بقصد الاشفاق على الرعية لدى السلاطين والأمراء على السواء . ^(٢)

كان المالك يسيون معاملة العرب عند وقوع أى اضطرابات ولو أن السلطات المملوكية تفحصت أسباب الاضطرابات وتحرت عن دوافعها وعالجتها لكان من الممكن أن تكسب بذلك قلوب الرعية ، وسياسة كسب القلوب كانت دائما إحدى على الغالبين من سياسة القمع والعسف والسيف التى طبقها المالك على عرب مصر . فالاضطرابات التى حدثت بسبب المعارك التى نشبت بين قبيلتى حابر ومرديس وعقبوا عليها باغتصاب ممتلكاتهم وأسر نسائهم وأولادهم كان يسبقها مجاعة شملت مصر كما شملت مناطق

(١) يذكر ابن اياس فى أسباب هذه الحركة أن طائفتين من العرب هما حابر ومرديس انتابوا ضياع البصرة وأحرقوا الجرون ، فاضطربت أحوال الديار المصرية وعين له السلطان (ابن اياس ، بلاغ ، ج ١ ، ص ١٢٠) وقد أدى هذا الصدام بين الطائفتين الى قيام (٢) على العرب واتقاع القرعة بهم واستيلائهم على ممتلكاتهم وسفك نسائهم وأطفالهم الى القاهرة سنة ٥٥٠

(٢) د. عبد الغنى باحد ، موقف المصريين من حكم المالك فى العصور الوسطى ، ص ٥٥

واسعة من الوطن العربي الى حد أنه لاذ بمصر في عام ٦٩٥ هـ (١٢٤٥م) واتجمعها عند كبير من سكان المناطق العربية المجاورة بحثا عن الطعام .

حدثت هذه المجاعة في عهد السلطان العادل كتيبا ٦٩٦/٦٩٤ (١٢٩٤ - ١٢٩٦) وبلغت تلك المجاعة حدا عنيفا هاجر بسببه عشرات الآلاف من ليبيا الى مصر .^(١)

ويصف المقرئى الظروف السيئة التي مرت بها مصر في ذلك الحين فيقول (واشتد الامر بمصر وكثر الناس بها من أهل الافاق فعظم الجوع)^(٢) وقد كان وقع تلك المجاعة على العرب اشد عليهم من وقعها على غيرهم بحيث مات منهم بسبب ظروف هذه المجاعة ومضاعفاتها نحو مئتان وسبعون ألفا .^(٣) وفي ظل تلك الظروف الصعبة كثرت مصادرات المالك في الولاة وأرباب الأموال وعظم جورهم فشمل أهل النواحي^(٤) .

وهكذا يتضح أن الاضطرابات التي وقعت بين جابر ومرديس في عام ٦٩٩ - (١٢٩٩) بمنطقة البحيرة كانت لها علاقة وثيقة بتلك الظروف الاقتصادية التي بدأت منذ عام ٦٩٥ - (١٢٩٥)

(١) المقرئى ، الحاشية بكلف الفحة ، ٣٦٠ ، طبع القاهرة عام ١٩٥٧ تحقيق د. الحبال .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٥

(٣) ابن ابيس ، نتائج الزهور ، ١٠٠ ، ص ١١٢

(٤) المقرئى ، الحاشية ، الآية ، ص ٣٨

واستمرت آثارها عدة سنوات بعد ذلك . وفي سنة ١٩٤٥ م ، انخفضت الإنتاجات الاقتصادية التي نصيب منها فترة من الثورات اذ انخفضت الإنتاجات الزراعية على الخصوص والفلاح أكثر من غيره مما دفعه الى الهجرة الى خارج البلاد الى ليبيا بعد زمن معين يقلل هؤلاء الذين عانوا أكثر من هذه الحالة . في حاجة الى فترة أطول يعيدون فيها تنظيم حياتهم . وفي سنة ١٩٤٦ م ، انخفضت الصادرات على التجارة كان عيب ذلك يقع عادة على المنتجات الزراعية الدخول المحدود أكثر من غيرهم من ثبات الشعب الأشعر . وفي سنة ١٩٤٧ م ، على ذلك قيام الاضطرابات . فتدخل الدولة لعلاج ذلك ، باستعمال القوة والعنف والارهاب . فتوجه الحملات التأديبية الى مناطق الثورات وماتت هذه الحملات أن تعود بعد أن تسرى أمامها الآمنين من الأهالي وكانهم أسرى حرب .

وفي عام ١٩٤٥ تعرض الصعيد الأعلى كما تعرض اقليم البحيرة والغربية بالوجه البحري لرياح عاتية مدمرة أفسدت المزروعات كالأرز والسمسم والقلناس وقصب السكر وسائر ما يزرع على السواقي فتزايدت الأسعار وعمت الفاقة . وقد أعقب ذلك كما ذكر المقرري ازدحام نظم اتباع السلطان ومالكيه وتكاثر جوعهم وعظم طمعهم (١) أخذ الباطار والجاويان ، وأكثر مما هم في حاجة من الأمراء) (٢) . وكان غرضهم من ذلك هو السيطرة على يد قسري عام ١٩٥١ (٣٠١) . فقاموا بالاحتلال .

أنحاء من غير أنما حثرت له شيئا لمعوزة الأحرار الاقتصادية ونسبانية .
ويمتد الفاصل الزمني بين الحادثتين الى عامين تقريبا اذ أنه خلال
ذلك (كان قد ظهر الخلل فى الدولة لقلة المال وكثرة النفقات)^(١)

ثم أن حالة الحرب التى عاشتها الدولة فى ٦٩٩ ، ٧٠٠
(١٢٩٩ - ١٣٠٠) وحاجة السلطان الى المال لتزويد الجيش
المملوكى بالعتاد والمؤن قبل رحيله لقتال التتار لحماية الحدود
الشمالية للشام تكشف عن مدى ما كانت تعانيه الخزنة العامة من
ارهاق ويؤكد ذلك أن السلطان محمد بن قلاوون قال للأمراء فى
عام ٧٠٠ (١٣٠٠ م) (والآن لم يبق فى بيت المال لادينار ولا درهم
فمن أين أنفق على العسكر)^(٢)

وفى مثل تلك الظروف التى كانت تمر بها البلاد من مجاعة وغلاء
وأراض تقتك وحروب تطحن كان عبء سد حاجة الخزنة من
الأموال يقع على عاتق الشعب وحده . وإذا لم تكن الحكمة رائد
الحكام فى علاقاتهم مع الشعب فليس بمستغرب أن تحدث
الاضطرابات . وهو ما حدث بالفعل . ففى الصعيد قامت
الاضطرابات ولجأ عرب الصعيد الى فرض اتاوات على التجار بالقوة
وجمعوا منهم ما كانوا يدفعونه للدولة من ضرائب استخفافا بالسلطة.
ولم تكن حركة خروج عرب الصعيد على السلطة قد تمت نتيجة

(١) نفس المصدر ، ص ٢٣

(٢) ابن الأثير ، نتائج الزهور ، ج ٢ ، ص ١٢١

اعداد سابق وفقاً لخطبة مدروسة وانما نشأت وليدة الظروف الطارئة.

وقد اتسمت تلك الحركة ببعض مظاهر السخرية من كبار أمراء الماليك . فقد تسمى العريان بأسماء الأمراء ودعوا لهم كبيرين أحدهما سموه بيبرس والآخر سلار ، ولبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون بأيديهم^(١) .

وازاء ذلك اضطر الماليك الى استخدام القوة ، ولكنى يعطوا مسوغاً شرعياً لتصرفاتهم نظراً لخطورة ما هم مقدمون عليه من مواجهة قطاع كبير من الشعب يشمل فيهم عرب الصعيد وأسيوط ومتفلوط جمعوا الفقهاء من رجال الدين وحصلوا منهم على فتوى شرعية تتيح لهم قتال الخارجين على الدولة^(٢) . وعند ذلك اجتمع القادة من الأمراء الماليك واجمعوا رأيهم على تدبير خطة للهجوم على الصعيد ثم أحكموا خططهم وتكتموا تحركاتهم وتشددوا فى منع الولاة من السماح لأحد بالسفر من الشمال الى الجنوب حرصاً منهم على عدم تسرب أنباء الحملة الى عرب الصعيد فيتهبوا لهم بذلك أخذهم على غرة . قال المقرئى (فاتفق الأمراء على الخروج لقتالهم وأخذ الطريق عليهم لئلا يمتنعوا بالجبال والمفاوز فيفوت الغرض فيهم فاستدعوا الأمير ناصر الدين محمد بن الشيخى مشولى

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٢٠ .

(٢) نفس المصدر .

الجزية وغيره من ولاية العمل وتقديموا اليه بمنع الناس بأسرهم من السفر الى الصعيد في البر والبحر^(١) ثم بالغوا في الحرص على ضرورة تنفيذ ذلك الأمر الخاص بمنع السفر فأندروا الولاية بأنهم مسؤولون عن احكام الحصار وان عقوبة من يخالف ذلك الموت ، والولاية هم المتهمون عند ذلك^(٢) .

ثم استخدم المماليك أسلوب الخداع وتحايلا على اخفاء تحركاتهم بأن اعلنوا أن الأمراء سيسافرون الى الشام بينما هم قد أعدوا أنفسهم للسفر الى الصعيد^(٣) .

أما التعليمات السرية التي صدرت الى قادة تلك الحملة فتعبر عن مشاعر العداء المتأصل في نفوس المماليك نحو العرب والرغبة في ابادة كل من يتجرأ عليهم أو يعلو صوته على اصواتهم . فقد أمروا (أن يضعوا السيف في الكبير والصغير والجليل والحقير ولا يبقوا شيخا ولا صبيا ويحشطون على سائر الأحوال^(٤))

وقد نجحت خطة المماليك ضد عرب الصعيد على نحو تجاوزت كل تقدير . وتمكنوا من السيطرة على الثورة بأن أحاطوا بعرب

(١) نفسه

(٢) التقرير، السلوك ، ج ١ ق ٣ ، ص ٩١٨ ، ٩٢١

(٣) نفس المصدر *zettersica* - نصوص مربية من دولة المماليك ، لندن ١٩١٩ ، ص ١٠٧

(٤) نفسه

الصعيد جميعا من الجزيرة الى أطرافها^(١) : وكان لكتمان الخطئة والمبالغة في السرية الشامة أثرها ونجاحها . فلم يغفلن العرب الا بالمهجوم . وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم ولم ينبج منهم الا النذر القليل .

أما الماليك (فلم يتركوا أحدا حتى قتلوه ووسطوا نحو عشرة آلاف رجل وما فيهم من أحد الا أخذوا ماله وسبوا حريمه فاذا ادعى أنه حضري قيل له قل (دقيق) فاذا قالها بضاف العرب قتل) . وفي موضع آخر يقول المقرئ (ووقع الرعب في قلوب العربان حتى طبق عليهم الانهار وأخذوهم من كل جهة فروا اليها وأخرجوهم من مخابهم حتى قتلوا من بجاني النيل الى قوص ، وجافت الأرض بالقتلى واختفى كثير منهم بمغائر الجبال ، فأوقدت عليهم النيران حتى هلكوا عن آخرهم ، وأسر منهم نحو ألف وستمائة لهم فلاحات وزروع وحصل من أموالهم شيء عظيم جدا تفرقت الايدي ... ثم عاد العسكر في سانس عشر رجب وقد خلت البلاد بحيث كان الرجل يمشي فلا يجد في طريقه أحدا ، وينزل بالقرية فلا يرى الا النساء والصبيان الصغار)^(٢)

حارب العرب الماليك في ذلك العصر بهدف التحرر من الاستبداد والطغيان وقدموا أرواحهم ثمنا لهذه الحرية . ولم تكن السلطة المملوكية باستخدامها القوة ضد العرب الا كناطح قرنيه في

(١) نسبه / (فلسفة)

(٢) المقرئ ، ١ ملوك ، ج ١ ص ٢٢٢

الصخر . فلا الصخر يلين ولا هو يرجع حتى يدمى قرنيه ويسقط
صريع الوهم ذلك أن الممالك لم يقضوا على الروح الثورية العربية
فانهم كانوا كلما قامت ثورة وقضوا عليها وظنوا أن الوقت قد صفا
لهم . لا يلبث أن يخيب ظنهم فتقدم بعدها ثورة أخرى كأمواج
تتدافع الواحدة تلو الأخرى حتى نهاية عصر الممالك .

ان تفاصيل قمع الممالك لهذه الحركة العربية بشهر الاثمنزاز وهى
وصمة عار يندى الجبين لبشاعتها ، ويمكن أن تقارن بمخازى المغول
وجرائمهم البشعة التى اقترفوها فى حق الشعوب الاسلامية الآسيوية
بل يمكن أن تقارن بمحاكم التفتيش فى أسبانيا . بل ان اساليب
العنف على ثورات العرب كان يعود على الممالك بالخنسار
وبكبدهم أضرارا فادحة بالاضافة الى ما ولدته مناعتهم للعرب من
مشاعر السخط فى قلوب المصريين لقد كان العرب جزءا من
الشعب المصرى وكان على الحكام الممالك كسبا لقلوب الشعب
مدارة العرب وذلك عن طريق النظر فى مشاكلهم الاقتصادية
والعمل على حلها الا أن الممالك كانوا قد شغلوا بمشاكلهم
ومؤامراتهم عن مشاكل الشعب . فكان ذلك من الأسباب التى
أدت الى فشلهم فى كسب ود الشعب المصرى مما ترتب عليه نتائج
وخيمة ان لم تكن قد ظهرت فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فانها
ظهرت بعد ذلك فى العهود التالية ولم يلبث الممالك بعد ذلك
الاسلوب الوحشى العنيف الذى واجهوا به ثورة العرب فى الصعيد
من قتل وتشريد أن اضطنوا الحكمة فافرجوا عن الاسرى حفاظا

لسلامة البلاد^(١) ولم ينضم المماليك ، تلك الخطوة الا بعد أن ظهرت نتائج استخدام العنف والسيف على العمران فقد خلعت البلاد بحيث كان الرجل يمشي فلا يجرد الا النساء والصبيان الصغار^(٢) هذا عن عرب الصعيد ، أما عن عرب الشرقية والوجه البحرى فقد لزموا الهدوء فى ذلك الحين ، وجنحوا الى السكينة . وكثيرا ما كان يتخذهم الامراء المماليك فى تنفيذ بعض مشروعاتهم العمرانية فضلا عما كان يفرض عليهم تقليعه من جوب أثناء سفر السلطان . وفى عام ٧٠٨ (١٣٠٨) أفصح السلطان الناصر محمد بن قلاوون للامراء المماليك من رجال دولته عن رغبته فى التوجه الى الأراضى الحجازية للحج بأسرته فوافقوه على ذلك مستهلفين استغلال هذه الظروف لتحقيق مآربهم .

وشرعوا فى تجهيزه ، وكتبوا الى دمشق والكرك وغيرها يرمى الاقامات ، وألزم عرب الشرقية بحمل الشعير^(٣) .

وفى نفس عام ٧٠٨ هـ قامت اللولة بأفشاء جسر برى يربط بين القاهرة ودمياط لاستخدامه فى الدفاع عن دمياط فى حالة وقوع غزو لدمياط . وفى ذلك يقول المقريزى (ورد الخبر بأن مملك قبرص اتفق مع جماعة من ملوك الفرنج على عمارة ستين قطعة لغزو

(١) المقرئ السلوك ج ١ ق ٣ ، ص ٩٢١

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ق ١ ، ص ٤٣

دمياط فجمع السلطان الأمراء وشاورهم ، 'فاتفقوا على عمل جسر من القاهرة الى دمياط خوفا من نزول الفرنج أيام النيل ، وندب لذلك الامير جمال الدين آقوش الرومى الحسامى' (١) .

وقد استعان هذا الامير بالعرب فى جملة من استعان بهم من رجال فى تنفيذ اقامة ذلك الجسر الا انه اصطنع القسوة البالغة مع العرب وفعل معهم ما لم يفعله مع غيرهم . فنكل بكثير من مشايخ العربان وضربهم بالمقارع وخزم انافهم وقطع آذانهم (٢) .

وبسبب هذه المعاملة القاسية التى لقيها العرب من أمراء المماليك كانت تقوم الثورات ولا تهدأ . ففى عام ٧١٣ (١٣١٣) تجددت الاضطرابات فى الصعيد واستخدم المماليك فى القضاء عليها أسلوب السرية والمفاجأة .

يقول المقرئى (توجه السلطان الى الصعيد فى ثامن عشرى رجب ونزل تحت الاهرام بالجيزة فأظهر أنه يريد الصيد والقصد أخذ العربان . فانه كثر قطعهم الطريق وكسروا الخراج وبعث السلطان عدة من الأمراء حتى أمسكوا طريق السويس وطريق الواحات فضبط البرين على العربان . ثم رحل من منزلة الاهرام بالجيزة

(١) نفس المصدر ، ص ٤٨ . قال : المقرئى (والظاهر أنه كان يتعمد القيام بذلك وهذا يفسر

فسوته لدى معاملة الرجال حتى يجدهموا فى العمل لما تمه عن انقل من شهر .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٩ .

وفيهما توقفت زيادة النيل الى أن دخل شهر مسرى وارتفع سعر القمح حتى أبيع الاربدين بخمسين درهما والاربدين الشعير والبقول بعشرين درهما^(١) أما أسعار هذه السلع في الظروف العادية فيوردها القلقشندي في صبح الاعشى فيقول (أوسط أسعارها في غالب الاوقات أن يكون الاربدين بخمسة عشر درهما والشعير بسعره (عشرة دراهم) والسكر الرطل بدرهم ونصف)^(٢) ويتضح من دراسة السعريين أن الاسعار ارتفعت الى ثلاثة أضعاف لنها في عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) عنها في الاحوال العادية وواضح أيضا أن أثر ذلك كان كبيرا على العرب البدو والفلاحين إذ أن أغلبهم كان يعيش على الضرورى . ومن هنا يقع الضرر عليهم في مطالبهم الضرورية فلا يمكنهم أن يتحملوا نتائجها غالبا . وعلى هذا النحو تبدأ الاضطرابات . وقد جاء تصوير سوء الاحوال الاقتصادية في البلاد وحالة الشعب في هذا البيت الذى يورده ابن ابياس :

ان عجل التور وز قبل الوفا

عجل للعالم صفع القفا

فقد كفى من دمعهم ماجرى

وما جرى من نيلهم ما كفى

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٤٤٤

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٤٤٤

وهذا وصف لكسر سد النيل قبل مواعده لأن السلطان كما يذكر ابن اياس كان قد رسم بكسر السد من غير وفاء لأن النيل تقص عن الوفاء ثلاثة أصابع فكسر السد سابع توت من الشهور القبطية ولم يخلق المقياس لذلك لأن التخليق لا يكون الا بالوفاء ^(١) .

وقد ترتب على ذلك وقوع الاضرار الاقتصادية التي وقع عليها على الشعب .

وقد تأثر تدهور الحالة الاقتصادية على الاحوال السياسية في البلاد بلليل أن الاهالى طالبوا بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى دست السلطنة ، وأخذ العامة يغنون وينشدون (سلطاننا دكين ، ونايبنا دقين

يحيينا الماء منــــــ

حيوا لنا الاعرج ، يحيى الماء ويدحرج) ^(٢)

وقد عاقب السلطان الاهالى بسبب توقعهم هذا عقابا صارما (فرسم بقبض جماعة من العوام نحو الثلاثمائة انسان فضرب منهم

(١) التخليق : علقه (بتشهد العم) يعنى تعطوة ومسحه بالزعفران والسك عند وفاء النيل (تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام د. عبد العزيز سالم ود. مختار العبادى ، ص ٢٢٧ ، هامش (١)

(٢) القريرى ، السد ، ح ٢ في ١ ، ص ٥٥ - ابن اياس ، نتائج ، ح ٢ ، ص ١٢٦

جماعة بالمقارع وأشهرهم فى القاهرة ورسم بقطع السنة جماعة منهم^(١) .

ومن هذا المنطلق يتضح الموقف فانه منذ ٧٠٩ (١٣٠٩) والشعب المصرى بنوء بأعباء تنقل كاهله فارتقاع الاسعار كان دافعا لسخطة على السلطان ومقته لتأبى فشاع ذلك على السنة الشعب وصاغوا تصوراتهم شعرا وتغنوا بذلك فى أماكن المفرجات كما ذكر ابن اياس .

وما أن وافق السلطان ركن الدين بيبرس على التحلى عن الحكم وبلغ ذلك الخير عامة الشعب حتى تجمع جمهور كبير من الاهالى حول موكب السلطان وهو خارج من القلعة وصاحوا يهتفون ضده ظنا منهم بأنه قد خرج هاربا وتبعوه وهم يصيحون عليه وبالقوا فى الامر حتى رماه بعضهم بالحجارة . فلما حاول اغراءهم بنثر المال عليهم ليصرفهم عن متابعتهم لم يستجيبوا لذلك وظلوا على موقفهم العدائى منه^(٢) . هذه الأحوال الاقتصادية التى دفعت المصريين الى انتقاد السلطان بيبرس والمطالبة بتغييره وعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون هى نفسها التى دفعت بالعرب من قبل الى الثورة . لقد كان سوء الأحوال الاقتصادية . المبرر الحقيقى لاعلان الثورات ولم

(١) القريرى ، السلوك ، ج ٢١ ، ص ١٥٥ (وقيلون بركين ، ركن الدين بيبرس المظفر ، وبنك ، الامر سائر القالب وكان أمرد لافتر بلسه والامرج الناصر محمد بن قلاوون) القريرى ، السلوك ج ٢٤ ، ص ١٥٥ حمله ٢٠٢١

(٢) نفس المصدر ، ج ٢٤ ، ص ٧٣

يلتصق عرب الصعيد أن يساروا من جديد في ٧١٦ (١٣١٦) وقام السلطان بتحرير حملة عسكرية كبيرة تلتها الشوار إلى السودان وما بعدها دون أن يظفر المماليك بهم . وفي ذلك يقول ابن أبياس (جرد السلطان العساكر نحو صحراء عيذاب بأعلى الصعيد بسبب فساد العربان فخرج في هذه التحريفة ستة أمراء مقدمين وألفا مملوك فتوجهوا إلى بلاد البحاه وجاوزوا الأقاليم الثلاثة فلم يظفروا بأحد من العربان العصاة فرجعوا إلى القاهرة من غير طائل . وكان قوت العسكر في هذه التحريفة الذرة والماء من الخفافير وكانت العرب في الجبال فلم يظفروا منهم بأحد بلوح) (١) .

ومن هذا النص يظهر المدى البعيد الذي وصلت إليه المطاردة بين المماليك والعرب فهم قد بددوا شمل العرب وفرقوا بينهم حتى تعقبوهم عبر حدود السودان . وعلى الرغم مما حدث بين العرب والمماليك في مصر فإن كثيرا من الشخصيات العربية كانت لها مهمة في البناء والتعمير . فبعد واقعة الصعيد عام ٧١٣ (١٣١٣) أفرج السلطان محمد بن قلاوون عن أحد المشايخ العرب وهو مقداد بن شماس أحد مشايخ القبائل الذين سبق اعتقالهم في معارك الصعيد ثم سمح له هو وأولاده وخدمته بالإقامة بالاسكندرية ولم يكشف السلطان بذلك بل أنعم عليه بمال وغلال وكتب برده وأولاده وعبيده إليه وأنزله بالناصرية التي أنشأها على خليج الاسكندرية .

(١) ابن أبياس ، ملحق الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣٥

الاقتصادى وكانت تشمل فى صورة احتجاج هادئ يستهدف تخفيف الضرائب أو رفع العبء الواقع عليهم نتيجة لانحراف فئة من كبار رجال الدولة . أما العرب فمع أنهم كانوا يعيشون فى شغف من العيش بحيث لا يجدون الضرورى من الموت فيلجأون عندئذ الى استخدام العنف للحصول على مايشتهون .

وعلى هذا النحو نجد أن ثورات العرب عادة تنشأ بسبب عوامل اقتصادية تتضافر مع ظروف داخلية غير طبيعية فيتولد من ذلك انفجار . ومن أمثلة تلك الاحوال كثرة المصادرات بالحق وبغير الحق ، وتعدد المظالم وتنوعها ضد العامة والخاصة واذا كانت الثورات العربية قد أجهضت فى عهد محمد بن قلاوون وهذات الاحوال خلال المدة من عام ٧٣١ الى ٧٤٨ (١٣٣٠ - ١٣٤٧) الا أن العنف والجور لم يتوقفا . وظل الشعب فى مصر يتحمل الكثير من الارهاق والاستبداد والتسلط . ولم يلبث أن غلى مرجل غضبه فثار . ففى عهد الناصر محمد بن قلاوون عانى العرب والمصريون من أحد كبار الموظفين أشد أنواع المصادرات قسوة والتدخل فى الاسواق للتلاعب فى أثمان السلع ورفع الأسعار عند التعامل مع التجار بالشراء بالقوة ، واعادة البيع بأضعاف ثمن الشراء بالسعر الذى يحدده . المسئول . هذه الشخصية هى شخصية ناظر الخاص للسلطان محمد بن قلاوون وأعنى به عبد الوهاب والملقب بشرف الدين والمعروف باسم (النشو) عين النشو فى وظيفته . ام

٧٣١ (١٣٣٠ م) وبدأ بعد توليه منصبه يقوم بأعمال المصادرات لتحصيل الاموال بغير حق من أصحاب الاملاك أو التجار وأمثالهم .
وفي عام ٧٣٢ (١٢٣١) نجح النشو في اقناع السلطان بأن ما يحصل للدولة من أموال ليس هو القدر الحقيقي وأنه بالإمكان رفع هذا القدر الى أضعاف ما هو عليه .

ويحدثنا المقرئ عن النشو في أول اتصاله بالسلطان الناصر فيذكر أنه عندما استقر عند الأمير آنوك (ناصر الدين آنوك) ابن السلطان (صار يخلو بالسلطان ويحدثه في أمر الدولة ويكثر من الوقعة في الدواوين حتى اشتد كلامه في نفس السلطان وتصور في ذهنه منه أنه يحصل له مالا كثيرا . فما هو الا أن استقر في نظر الخاص حتى أخذ يغري السلطان بأولاد الشاج اسحاق حتى غيره عليهم)^(١) ثم بدأ النشو بعد ذلك يكتر من تصفية الاموال ومصادرتها لحساب السلطان ويلزم ولاية الاعمال بحمل المال كما كان يبعث أخاه لكشف الدواهب بالصعيد^(٢) .

ثم بدأ بعد ذلك يكشف للسلطان عن تلاعب المباشرين بأموال السلطان . وجمع الثروات الطائلة بغية الشراء الفاحش من مال السلطان . وما زال حتى اقنعه بذلك فأطلق السلطان يده في شئون الدولة وفق ما يراه (ورمى النشو المباشرين مع ذلك بعقائمه من كثرة

(١) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٣٤١

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٥٨

أموالهم ونعمهم مما أخذ في مباشرةهم من مال السلطان . فاذن له السلطان على عمل ما يختاره وأن يتصرف في الدولة ولا يسأل بأحد ووعده بثقوبة يده وتمكينه ومنع من يعارضه (١) .

وقد تمكن النشو بفضل هذا التفويض السلطاني من التصرف في الدولة بعد أن أقنعه بأن في استطاعته - لولا خشية من الأمراء المماليك - أن يملأ خزانة السلطان وحواصله أموالا .

وفي عام ٧٣٦ (١٣٣٥) اتجه النشو إلى الصعيد وبدأ في الاستيلاء على أموال بعض العرب من أمراء الصعيد فصادر جماعة من أرباب الدوايب بالوجه القبلي وصادر من محتسب البهنسا وأخيه قدر مائتي ألف درهم وألقى أردب غلة (فراجع ابن زعازع من أمراء الصعيد أولاد قمر الدولة عند النشو فاقضى رأيه مصادرة ابن زعازع لكثرة ماله وأوقع الخوطة على موجوده) (٢) .

أما ابن زعازع الذي أوقع به النشو وصادر ممتلكاته فإنه تعرض أيضا للتعذيب الشديد ويعبر المقرئى عن قسوة النشو فيقول (وكتب إلى متولى البهنسا ليعاقبه أشد العقاب فلف إلى البهنسا على أصابعه الخروق فغمسها في القطران وأشعل فيها النار ثم عمراه ولوحه على النار حتى أخذ منه ما قيمته ألف وخمسمائة درهم ووجد

(١) نفسه ، ص ٣٦٩

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ - البيان والأعراب ، ص ٥٣ - التلخيص ، ص ٢٢

صبح الاحشى ، ج ٤ ، ص ٦٧ . وقال المقرئى عن حملة زعازع المعربة (ولولاد زعازع أشد)
الصعيد)

له أربعمائة فرجة بفرو ومائة وعشرين جارية وستون عبدا ثم كتب عليه حجة بعد ذلك بمبلغ مائة ألف درهم^(١)

كذلك يعبر ابن اياس عن ظلم النشو للعرب بقوله (قبض على ابن فضل شيخ مدينة ملوى وكان له دواليب ومعاصر وكان يزرع فى كل سنة القصب الخلو خمسمائة فدان . فلما قبض عليه النشو وجد عنده فى حاصله أربعة عشر ألف قنطار سكر ومثلها فطر نبات ومثلها غسل أسود) بخلاف العبيد والجوارى والغلال والى ذلك وقد حمل هذا كله الى الحواصل السلطانية . أما ابن فضل فأقام فى الترسيم مدة ثم أفرج عنه وأعيد الى عمله بمدينة ملوى^(٢) .

هذه مجرد أمثلة للمصادرات العديدة التى وقعت على العرب وعلى غيرهم من طوائف الشعب على يد النشو ناظر الخاص . ولا يخفى آثار تلك الاعمال ونتائجها . على الاهالى من انتشار السخط العام الذى لا يلبث أن يظهر فى شكل ثورات تشغل كبار رجال الدولة وتزيد من تعقيد مآبواجهونه من مشاكل .

أما فيما يتعلق بارتفاع الاسعار الى عدة أضعاف لثمنها الحقيقى من جراء تدخل ناظر الخاص الذى أطلق السلطان يده فى كل شئون الدولة فمنها ما وقع فى عام ٧٣٧ (١٣٣٦) .

(١) القمورى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٤٠٨ ، ٤٠٩

(٢) بلقيع ، ج٢ ، ص ١٤٤

عندما استولى النشوء على البضائع وطرحها فى السوق بثلاثة أمثالها أو استيلائه على الوارد من البضائع بنصف قيمتها . مما أدى الى احجام التجار عن الاستيراد . فضعفت تجارة الوارد ولحق الضرر التجار والأهالى على السواء ، فاهتز اقتصاد المدينة وترك كثير من التجار حوانيتهم وغيبوا فصارت مفتحة والاعوان وهم المقدمون الذين بعث بهم النشوء الى الاسواق ينهبون لأنفسهم ما أرادوا . فلم يكن يرى يومئذ بالقاهرة الا باك أو صائح أو نائح^(١) وظل الأهالى يعانون من جور النشوء واسرافه فى اضطهادهم حتى بلغ تدميرهم من فعالة الغاية . وبدأ النشوء يخشى الاستمرار فى السر على هذه السياسة . وتحول عن عامة الشعب الى خاصة القوم . وبهذه الخطوة الاخيرة عجل النشوء بنهايته المحتومة فصدر الامر بالقبض عليه هو وأعوانه من أفراد أسرته فى عام ٧٢٩ (١٢٢٩) . ويعلل المقرئى ذلك بقوله (وسبب ذلك أنه لما أسرف النشوء فى الظلم بحيث قل الجالب للبضائع وذهب أكثر أموال التجار بطرح الاصناف عليهم بأعلى الأثمان وطلب السلطان منه يتزايد خاف النشوء العجز فرجع عن ظلم العامة الى التعرض الى الخاصة . ورتب مع أصحابه ذلك)^(٢)

(١) القرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٩

ومما يؤكد ملاقاه العرب والمصريون في مصر من ظلم النشوء
مقاله الشعراء في القبض على النشوء فقد أسعد العرب كما أسعد
المصريين . قال : (أن يوم الاثنين يوم سعيد: فيه لاشك للبرية عيد

أخذ الله فيه فرعون جهرا : وغدا النيل في رباه يزيد^(١)

واجتمع الناس بالرميلة تحت القلعة ومعهم النساء والاطفال وقد
اشعلوا الشموع ورفعوا على رؤسهم المصاحف لشروا الاعلام وهم
يصيحون استبشارا وفرحا بقبض النشوء^(٢)

جـ- في عهد المظفر حاجي :

لما مات محمد بن قلاوون وولي أبنائه من بعده الحكم في البلاد
ظهرت آثار الضغط والعنف الذي وقع على العرب والمصريين من
جانب الذين أسرفوا في استخدام سلطاتهم وأسأوا إلى الشعب
بالمصادرات والمغارم وعلى رأسهم النشوء ناظر الخصاص . وازدادت
هذه الأحوال الداخلية سوءا في عهد أبناء محمد بن قلاوون عما
كانت عليه في عهد أبيهم .

وبدأت الثورات العربية تظهر من جديد في الصعيد بعد فترة
الهدنة المؤقتة من عام ٧٣١ إلى ٧٤٨ . ففي عهد المظفر حاجي ثار
عرب الصعيد في ربيع الآخر من عام ٧٤٨ (١٣٤٧) وقطعوا

(١) نفس المصدر.

(٢) القرطبي ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٧٣ ، ١٧٩

الطريق على المسافرين وبلغ ذلك السلطان كما بلغه كثرة حشود
العربان بالصعيد والقيوم وطغأ فسادهم وتغلر السفر على المسافرين
فلم يهتم بذلك لاشتغاله بلهوه^(١) وكانت له اجتماعات بالاولياش
وأراذل الطوائف من الفراشين والبايين ومطيرى الحمام . فكان
يقف معهم ويأمرهم على الطير الفلاني والطير الفلانية .^(٢)

كما اسرف فى اللهو وتبذير أموال الدولة بانفاقها على الخدم
والمحظيات . فعندما قدم من الحراتى من دمشق بمال يبلغا اليحياوى
تسلمه الخدام (وأنعم السلطان من ليثته على (كيدا) حظيته
بعشرين ألف دينار منه سوى الجواهر واللآلئ ونشر الذهب على
الخدام والجوارى فاخضعوه وهو بضحك منهم^(٣) وذكر بعض
المؤرخين أنه وصله من الذهب العين خمسون ألف دينار أنفقها
السلطان جميعا على طيور الحمام^(٤)

د- فى عهد الناصر حسن :-

ثم كانت ثورة بن الاحدب فى الصعيد فى بداية عهد السلطان
الناصر حسن فى نفس الوقت الذى قامت فيه ثورات عرب العايد
وثعلبة وعشير الشام . ويعبر المقرئى عن اضطراب الاحوال فى

(١) نفس المصدر ، ص ٧٣٩

(٢) نفسه ، ص ٧٣٩

(٣) نفسه ، ص ٧٤١

(٤) ابن ابيس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٦٠

عهدده بقوله (وكانت أيامه شديدة كثر فيها المفارم بالنواحي
وحت عدة أملاك على النيل واحتزقت مواضع كثيرة بالقاهرة
وخر حث عربان العابد وتعلية وعشير الشام وعرب الصعيد عن
الطاعة . واشتد فسادهم وكثر قطعهم للطرق) .
وكان انثناء الذي لم يعهد مثله .

وتوالى شراؤ الاراضى وتلاف الجسور وقيام ابن اصل الاحدب
بالصعيد والعجز عنه وقتل عرب الصعيد طغيه الكاشف ، وهزمتهم
الهدباني ، وأخذ ثقله .

فاحتلت أرض مصر وبلاد الشام بسبب ذلك خللا فاحشا ^(١) .
وفى مثل تلك الظروف البالغة القسوة قام العرب بثوراتهم فى مصر
والشام والواقع أن العرب اضطروا اضطرابا الى التعبير عن استيائهم
وسخطهم من سوء الاوضاع السياسية والاقتصادية . ولو أن
الحكومة المملوكية اهتمت بالسيطرة على الاحوال الاقتصادية فى
البلاد وحصر الاضرار التى حلت بالناس ومنع استحقاقها . وقدمت

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ ، ٨٤٣ - ويشير ابن ابيس الى الوباء الذى
تفشى فى العالم اجمع تحت اسم الطاعون الاسود فى عام ٧٤٩ (١٣٤٨) وعن آتاه مصر بقوله (لم
يسمع مثل هذا الطاعون الذى جاء فى هذه السنة لأنه عم البلاد قاطبه ومات فيه من الناس مالا يحصى
عندهم) . ثم يضيف قائلا (ولم يزرع من اراضى مصر فى تلك السنة الا القليل بسبب موت
الفلاحين وعدم من يزرع فوقع الغلاء حتى بيعت كل وية قمح عاتى درهم) فانما كان من الوباء فى
الاحوال العادية درهمين ونصف فمعنى ذلك أن الوباء من القمح التى ارتفع ثمنها الى مائتى درهم قد
تضاعف ثمنها بمقدار مائتين مرة (الفقهلى ، ص ٢٠٠ ، ص ٢٧ - ابن ابيس ، نتائج
الزهر ، ج ٢ ، ص ١٦٢)

العون الى الاهال حتى تزول حياء رمة بينهم . . . انعام العرب
بشورتهم وقد تبين لنا مما سبق أن عرفناه ان قيام ثورات كان يرتبط
فى مصر دائما بظهور المشاكل الاقتصادية فى البلاد . ومن عوامل
قيام العرب بشورتهم أيضا فى هذا العهد ، أن المالك ، يتخلوا عن
سياستهم فى التفرقة بين قبائل العرب فأوقعوا الفتنة بين عرب عسك
وبنى هلال بعد أن أعيتهم الحيل فى التغلب عليهم وقهرهم بالقوة .

وفى ظل هذه الظروف الصعبة التى فتك فيها الطاعون الاسود
بالفلاحين مع ما ارتبط بذلك من قلة المحصول وارتفاع الاسعار
وجور الولاة وكثرة المغارم التى أرهقتهم بها الدولة ومما أدى الى
ذلك من صراع بين بعض قبائل العرب وتغاضى الولاة عن النظر فى
حل مشاكل القبائل قامت ثورة بن الاحدب فى عام ٧٥٢
(١٣٥١) . واستطاع ابن الاحدب ان يسيطر على الصعيد ويسيطر
سلطانه عليه . وفى عام ٧٥٤ امتدت الثورة الى منفلوط والمراغة
بالاشمونين والواحات والفيوم والبهنسا واجتمع حول ابن الاحدب
حشد كبير من العرب الامر الذى دعاه الى أن يطلق على نفسه لقب
الامير . ويعبر المقرئى عن ذلك بقوله (وادعى ابن الاحدب
السلطنة وجلس فى حتر أخذه من قماش الذهبانى وجعل خلفه
المستند وأجلس العرب حوله ومد السماط بين يديه فنفذ أمره فى
الفلاحين وصار الجندى اذا أنكر له خراج قصده وسأله فى خلاصه

من فلاحه فيكتب له ورقة لفلاح ؛ أهل بلده فيصبل بها الى حقه^(١) فاذا كان ابن الاحدب قد أصبح يبلده نطاء صاحب الحق حقه اذا أنكره من يبلده فان هذا يعنى أنه أعاد الى البلاد الاستقرار والامن . وعلى هذا النحو يمكننا ان نستنتج أن ابن الاحدب ماقام بثورته الا بسبب احتلال الاوضاع في البلاد سياسيا واقتصاديا واداريا وكانت الدولة فى غفلة عن هذه الحركة أولا لأنها اقليمية وثانيا لاستغراق السلطان فى ملاذه ولهوه . ولما استفحل أمرها حين وصلت الى حد قيام ابن الاحدب بمنع الخراج عن الدولة عند ذلك فقط بدأت الدولة تدبر الخطط للقضاء على الثورة . فكان الدولة لم تشغل نفسها عندما قامت الثورة بحماية الشعب وانما الذى شغلها هو توقف جباية الاموال . فالحركة المضادة من جانب الحكومة اذن لم تكن دفاعا عن شعب الصعيد بقدر ماكانت دفاعا عن حق الدولة فى جباية الاموال التى جمعها ابن الاحدب واحتفظ بها دون الدولة ومنع تسليمها الى الولاة . قامت ثورة ابن الاحدب أوائل عام ٧٥٢ (١٣٥١) واستمرت الى عام ٧٥٤ (١٣٥٣) أى حوالى ثلاث سنوات وفى شوال من عام ٧٥٤ (أكتوبر ١٣٥٣) قررت الدولة ارسال حملة عسكرية الى الصعيد^(٢) وكانت هذه الحملة تتكون من

(١) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، ص ٨٥٩ ، ٩٠٨

(٢) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، ص ٩٠٩

فرفقتين احدهما اتجهت الى قوين والاخرى الى الواحات ، بسند قيادة
الفرفقتين الى شينغو أحد كبار القادة من مقامى الالوف (١) .

ولما وجد ابن الأحذب أن الماليك قد استعدوا لشن هجوم شامل
على العرب وأنهم عزموا على اصطناع كل وسائل العنف والقسوة
عمد الى عقد تحالف مع القبائل فاجتمع مع عرب منفلوط وعرب
المراغة فوصل عدد الفرسان العرب الى مايزيد عن عشرة آلاف
فارس واجتمع معه مالا يحصى من المشاة (٢) .

ولما وصل الأمير شينغو قائد الحملة الى أسيوط وبلغه قوة العرب
وعششى من لقاء ابن الأحذب آثر أن يستخدم الخيلة والدهاء
واسلوب الخداع مع العرب ، فبعث بأحد الأمراء يعطى الامان
لعرب بنى هلال واستدرجهم حتى قدموا اليه بأسلحتهم ووقعوا فى
شرك الخديعة فقبلوا الامان الكاذب الذى أعطاه لهم ، ثم جردهم
الماليك من أسلحتهم وحبسهم وقتلهم جميعا (٣) وبعد أن تخلص
الماليك من عرب بنى هلال بالاسر والقتل تفرغوا لبقية عرب
الصعيد بقيادة ابن الأحذب وتلاقت طلائع العرب مع طلائع
الماليك قرب ادفو فى بركة بواضى بسمى وادى الغزلان . حدث

(١) من المعروف ان رتبة امير مائة مقدم للف من اكبر الرتب العسكرية فى الجيش المملوكى
وهى تلى رتبة اتايك العساكر (راجع ابن شاهين الظاهري والقلقشندي .

(٢) القرهيزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٩١١ ، وراجع على ابراهيم حسن دراسات فى
التاريخ المملوك .

(٣) القرهيزى . السلوك ، ج ٢ ، ق ٧ ، ص ٩١١ ، ٩١٢ .

أن بدأ القتال بين العرب والمماليك استخدم العرب طريقة الكر والفر
فكانوا يقاتلون المماليك وينسحبون حيناً ثم يعودون مرة أخرى .
وهكذا ولكن العرب عندما أوشكوا على قهر المماليك قدمت الى
هؤلاء نجدة بقيادة الامير شينخو فرجحت كفة المماليك وانهزم
العرب ^(١)

والواقع أن معركة ابن الاحدب مع الحكام المماليك لم تختلف في
نتيجتها عن المعارك السابقة فقد استولى المماليك على ممتلكات
العرب بعد أن أوقعوا بهم الهزيمة (فاحاطوا بمال كثير ما بين مواشى
وقماش وحلى ونقود وعروض وأقوات وأزواد وروايا ماء . وسبوا
حريمهم وأولادهم فاستزقوا كثيراً منهم وصار الى الاجناد والغلمان
منهم شئ كثير ^(٢) .

لقد انتقم المماليك من العرب بعد المعركة فاقعوا بهم أشد
العذاب الى حد أن جماعة من العرب آثروا الانتحار من أعلى الجبل
على الاستسلام . فكان بينهم من يلقي نفسه من أعلى الجبل
ولا يسلم نفسه ويرى الهلاك أسهل من أخذ العدو له ^(٣) . ويبالغ

(١) نفس المصدر .

(٢) نفسه

(٣) نفسه

المقريري في تصوف انتقام المماليك من العرب فيذكر أنهم تبعوهم
في الصعيد (حتى لم يبق ببلاد الصعيد بلوى)^(١)

ونستدل من طريقة الحماد المماليك لثورة بن الاحدب على أن
المماليك لا شغلهم بالصراع على السلطة . لم يهتموا بمعالجة
مشاكل العرب الاقتصادية . بالرفق باعتبارهم فئة من الشعب وإنما
اعتبروهم طامعين في الحكم . ومن المؤكد أن المماليك كانوا
يهدفون الى ارباب الثوار العرب ولذلك فقد بالغوا في الضرب على
أيديهم ظنا منهم ان المحرك الرئيسى لثورة العرب مجرد اطماع
سياسية . والظاهر أن المماليك من طريق معاملتهم للعرب - كانوا
يعون تماما ماأعلنه الزعيم حصن الدين بن ثعلب من أن العرب أحق
بالحكم من المماليك . لذلك نراهم يتشددون ويعملون بكل قسوة
للقضاء على كل ثورة يقوم بها العرب . ومع ذلك فالعصر
الملوكى لم يكن تسوده الثورات بطبيعة الحال . وإنما كان هناك
تعاون كامل بين العرب والمماليك فى الظروف التى يتعرض فيها
أمن البلاد للخطر . وقد ظهر ذلك جليا فى معارك مصر والشام
الحاسمة مثل معارك دمياط والمنصورة وعين جالوت ومرج راهط
والريدانية وغيرها . وقد جاء ذكر ذلك فى موضعه من هذا
البحث.

ونستخرج من المعارك مايلي :-

١- تفرق العرب وتشتتهم في البلاد وخروج بعضهم من مصر
ولجؤه الى النوبة ^(١)

٢- فقد العرب ممتلكاتهم بعد ماغنوه من هزائم . فالعرب في
حروبهم كانوا يجمعون نساءهم وأولادهم وجميع ممتلكاتهم قرب
ساحة المعركة ليماناً منهم بأن هذا يدفع المقاتلين الى الحماس
والاستبسال ^(٢) . وهذه الخطة التي وضعت لرفع من روح المقاتل
العربي من أجل تحقيق النصر . كانت تتحول بعد الهزيمة الى مأساة.
فقد كان العرب ومايملكون تؤول غنيمة باردة للمماليك ^(٣)

٣- حرمان العربي (من البلو والفلاحين) من حمل السلاح أو
ركوب الخيل . فقد صدرت الأوامر بعد حركة ابن الاحدب الى
ولاة الاعمال وكشافها ألا يدعوا في جميع التواحي فرسا ليلوي
ولا لفلاح ^(٤) .

ولما وجد ابن الاحدب بعد الهزيمة ما أصبح عليه من الضعف
والهوان جنح الى طلب الصلح وعلان الخضوع لسلطان المماليك
وتوسط له في ذلك الشيخ أبو القاسم الطحاوي أحد الصوفية ذوي

(١) القريزي ، السلوك ، ج٢ ق ٣ ص ٩٠٩ - ابن أبي

(٢) بلقيع الزهور ، ج٢ ، ص ١٧٢

(٣) القريزي ، السلوك ، ج٢ ق ٣ ، ص ٩١٣ ، ٩١١

(٤) القريزي ، السلوك ، ج٢ ق ٣ ، ص ٩١٣ - ابن أبي ، بلقيع الزهور ، ج٢ ، ص ١٧٢

التفوذ عند الأمير شيخو في ذلك الحين قبلت وساطته فرسم له
بإقطاع وعاد الاحدب الى بلاده بعد ما أقام نحو شهر وقد ألبسه
السلطان تشريفا ثانيا (١).

من خلال وساطة الشيخ أبي القاسم الطحاوي ومعاونة لابن
الاحدب في عودته الى مكائمه الاولى يتبين أن الحركات الثورية
للعرب ومنها ثورة ابن الاحدب كانت ثورات هادفة ذات مقاصد
معينة . منها اصلاح أحوال الصعيد بعد أن انصرف الحكام عن
الاهتمام به . وتعدد مشاكل أهله . كما أن ظهور ابن الاحدب
مظهر الحاكم في الفترة التي بسط فيها سيطرته على الصعيد تعبر عن
مشاعر الطموح التي كثيرا ما حركت العرب للاستيلاء على السلطة
في البلاد لولا المعونة العسكرية التي كانت تتوفر للمماليك فيقتضون
بها على مطامع العرب .

كما أن مساندة أبي القاسم الطحاوي لابن الاحدب تعد دليلا
واضحا على عدالة قضية العرب . وتبرز في الوقت نفسه حقهم في

(١) وفي شهر ربيع الاول ٧٥٥ (١٣٥٤) قدم محمد ابن واصل الاحدب شيخ حرك من بلاد
الصعيد طالعا وكان من عمره أنه لما لحق وقت المزمعة وأحدث أموره بحرمه تراسى بعد عودة العسكر
على الشيخ المعتقد أبي القاسم الطحاوي . فكتب الشيخ المعتقد الى الأمير شيخو يسأل عنه و عنه
وتأنيه على أن يقوم بترك البلاد ويلتزم بتسليم جميع غلاتها وأموالها . وما يحدث بها من الفساد فانه
مواظب به . وأنه يقابل نواب السلطان من الكشاف والولا فكتبه أمان سلطاني . وكتب بتعقيب
عاطفه وحضوره أنا نساو ومعه الشيخ أبو القاسم لما كرم الاسماء الشيخ وأكرموا لاطفه الاحدب
وكان دعوته يوما مشهودا . وتل ابن الاحدب بين يدي السلطان وأنعم عليه السلطان وألبسه تشريفا
وناله من الامراء أتعام كثير . وخطبتهوم حرك البلاد حال . متقدم . كبر . ز . المبري . السلوك .
ص ٢٣ ، ص ٩١٦

الاستياء والتدمير كما أن قبول الممالك إعادة ابن الأحديب الى مكائته واعزازه يحمل معنى قبول عذره وأن العرب أقاموا بثورتهم الا بسبب اختلال الاحوال فى البلاد .

وقد أعقب تلك الفترة من تاريخ مصر ما أوجب دخول كثير من المصريين فى الاسلام واتفقت ظروفهم مع العرب المضطهدين الذين فقدوا أسباب قوتهم وأصبحوا ضعفاء بعد فشل ثوراتهم المتكررة ضد الحكام المماليك .

فوقع بين العرب والمصريين من أسباب الاندماج والمصاهرة ما حول الانساب العربية الخالصة الى عروبة قد امتزجت بدماء المصريين فكانت هذه من أكبر حركات التعريب فى مصر . قال المقريزى (وكثرت الاخبار من الوجه القبلى والوجه البحرى بدخول النصارى فى الاسلام ومواظبتهم فى المساجد وحفظهم للقرآن ، الى أن قال (ومن حينئذ اختلطت الانساب بأرض مصر فنكح هؤلاء الذين أظهروا الاسلام بالارياف المسلمات واستولدوهن^(١) .

وهكذا فقد ازدهرت حركة الاندماج بين العرب والمصريين فى عصر المماليك بشكل لم يسبق له مثيل من قبل فى تاريخ مصر الاسلامية .

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٩٢٧

فى عهد الاشرف شعبان :

وصف ابن اياس الاشرف شعبان ٧٦٤ - ٧٧٨ (١٣٦٢-١٣٧٦) بالعدالة والحلم والمحبة والانقياد للشرعية ورعاية مصالح عامة أفراد الشعب . كما وصف عهده بالهدوء من الفتن والتجاريد الى البلاد الشامية وثورات العرب .^(١)

وهذا الوصف الذى يسوقه ابن اياس لعهد السلطان الاشرف يتضمن من الادلة والسرايين ما يؤكد ارتباط الثورات العربية بالازمات السياسية والاقتصادية للدولة ويؤكد المؤرخون وعلى الاخص ابن اياس فى أكثر من موضع أن العرب عوملوا فى عهد الاشرف شعبان معاملة خاصة من ذلك أنه أمر - عام ٧٧٣ (١٣٧٣) - بأن يجعل السادة الاشراف قاطبة فى عمائمهم شطافات نحضر تميزا لهم عن غيرهم وتعظيما لقدرهم^(٢) .

كان الاشرف شعبان محبوبا من أفراد الشعب لعدالته ولكن أمراء الممالك لم تكن ترضيهم هذه السياسة . فقد تكررت محاولاتهم عيثا لخلعه عن عرش السلطنة - مرة فى عام ٧٦٨ (١٣٦٦) عندما دبر الامير بلبغا مؤامرة لخلعه وتولية أخيه أتوك ، الذى لقبه بالملك المنصور وأجلسه على عرش السلطنة . ثم فشلت الخطة واضطر الامير بلبغا الى الانسحاب من القلعة والعودة الى منزله بعد فشل

(١) ابن اياس ، بلقيع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٠٢

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٩٥

المؤامرة وقد أثار هذا الأمير بقعته هذه سخط العامة فتجمع عدد منهم واعترضوا طريق عودة الأمير فقابلوه بالرحم وبالعتافات العدائية ولم يتمكن من التخلص منهم الا بعد أن بذل مجهودا كبيرا ^(١) .

وقد قتل الأمير بلبغا بعد ذلك وتولى منصبه الأمير استدرم الا أن مماليك الأمير بلبغا ثاروا على الأمير الجديد ورفضوا توليه عليهم . وعندئذ اجتمع كثير من العرب والمصريين لنصرة الأمير استدرم فلم يجد المماليك الثائرون بدا من الانسحاب خوفا من ثورة الجماهير ضدهم ^(٢)

ولكن موقف العرب اختلف عندما دب النزاع بين الأمير استدرم والسلطان شعبان . فقد هب الأهالي من العرب والمصريين لنصر السلطان شعبان وقاتلوا معه ضد مماليك استدرم وهزموهم وقتلوا بعضهم واسروا بعضهم الآخر ^(٣) .

في عام ٧٧١ (١٣٦٩) تظاهر جمهور كبير من أهالي القاهرة ناحية القلعة ومنعوا الأمراء المماليك من الصعود الى السلطان مطالبين بتسليمهم والى القاهرة وشاد الدواوين علاء الدين بن كيك، احتجاجا على سياسته التعسفية معهم . ورغم أن السلطان شعبان أمر بفض التجمهر بالقوة الا أنه نزل على رغبة أهالي العاصمة قام

(١) نفسه ، ص ١٨٧

(٢) ابن أبيس ، بفتح الزمور ، ص ٢٠ ، ص ١٨٩ ، ١٩١

(٣) نفس المصدر ص ١٩٢

يعزل ذلك الوالى رولى مكانه حسين ابن الكوراني .^(١) وقد اُثارت هذه السياسة سنخط أمراء الممالك على السلطان الأشرف شعبان فقاموا بتدبير المؤامرات ضده حتى قتلوه فى عام ٧٧٨ (١٣٧٦)^(٢)

ويعلق ابن اياس على الأشرف شعبان بقوله : كان ، آخر بنى قلاوون فى الحرمة والعظمة ونفاذ الكلمة وكان عارفا بأحوال أمور المملكة حسن التدبير ماشيا على القواعد المرضية مستجلبا لخواطر الرعية^(٣) ومقتل الأشرف شعبان انتهى عهد الهدوء الذى عم البلاد فى أيامه . وبدأت الاضطرابات تظهر من جديد

و- فى عهد المنصور على بن شعبان ٧٧٨-٧٨٣ (١٣٧٦-١٣٨١م)

امتلا عهد المنصور على ابن شعبان الذى تولى الحكم فى مصر وهو ابن ثمان سنوات بالفتن والاضطرابات التى انتهت باستيلاء الممالك البرجية على الحكم فى مصر ، ولقد تعددت الفتن بين أمراء الممالك فبلغ عددها خمس فى السنة من سنة ٧٧٩ الى ٧٨١ ثم أعقبتها الاضطرابات التى ظهرت فى البحيرة بزعماء بدر بن سلام^(٤) .

(١) نفسه ، ص ١٩٤

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٤٢٨

(٣) ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٠٢

(٤) ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٠٢

والأرجح أن هذه الاضطرابات جاءت وليدة الخلل الذى طرأ على أجهزة الادارة المملوكية بسبب انصراف الحكام عن الاهتمام بتدبير احوال المعاش الى تدبير المؤامرات . فاقطاع البحيرة مثلاً وهى المنطقة التى ثار بها بدر بن سلام كان يشولاه الامر بركة أحد الذين شاركوا فى الاضطرابات والفتن التى اشتعلت فى القاهرة ضد السلطان وشغلته هذه الاحداث هو ومماليكه عن تصريف شئون اقليم البحيرة . وقد انتهت هذه الفتن بالهزيمة فى ٧٨١ (١٢٧٩) وهو نفس العام الذى وقعت فيه اضطرابات العرب فى دمنهور بزعماء بدر بن سلام والعلاقة واضحة بين انشغال الامير ومماليكه فى اضطرابات القاهرة وقيام الاضطرابات فى منطقة دمنهور .

ومما يؤكد أن اضطرابات البحيرة بزعماء بدر بن سلام جاءت تعبيرا عن سحق الاهالى وتدميرهم من الاوضاع غير الطبيعية فى البلاد أن الاضطرابات تجددت مرة أخرى فى العام التالى مباشرة وبصورة أشد خطرا مما حدث فى العام السابق .

كانت الزعماء على قبائل العرب فى البحيرة لبدر بن سلام وهو من قبيلة زناتة إحدى شعوب لواتة ^(١) .

وزناتة المصرية من القبائل البربرية المتعربة . وكانت قبائل البدو الضاربة فى غرب الاسكندرية مثل مصراتة وعسرة تربطها بعرب البحيرة صلات اقتصادية وثيقة ، وفى عهد السلطان المنصور على -

(١) ابن بطون ، العرب ، ج ٥ ، ص ٤٧٠

٧٧٨ - ٧٨٣ (١٣٧٦-١٣٨١). رقودت العربية . سيرة الضرائب
على الفلاحين الا أن عرب البحيرة استنصروا عن دفع تلك الزيادة
وقامت حركة عصيان بين عرب البحيرة ^(١)

ومما لاشك فيه أن عرب البحيرة قاموا بثورتهم تلك فى وقت
انشغل فيه أمراء الممالك بتدبير المؤامرات والفتن وماترتب على ذلك
من ارهاق الفلاحين بزيادة الجباية . فكان ذلك سببا فى قيام
الاضطرابات واستمرارها ، وليس أدل على ذلك بالاستشهاد بما
ذكره ابن خلدون اذ يقول (ان بدر بن سلام قام بعد اعتقال أبيه
سلام بالانسحاب الى الصعيد ^(٢) وقوله ثم (عاد بدر الى البحيرة
وشغلت الدولة عنهم بما كان من ثورة اينال وبركة بعده). ^(٣)

ويصف ابن اياس تجمع عرب البحيرة فى عام ٧٨١هـ (١٣٧٩)
وهجومهم على مدينة دمنهور فيذكر ان بدر بن سلام تزعم جماعة
من العرب يبلغ عددهم نحو خمسة آلاف هاجموا مدينة دمنهور
واستولوا بالقوة على مافى اسواقها . ^(٤)

(١) ابن خلدون ، المعر ، ج ٥ ، ص ٤٧٠

(٢) نغمي المصدر

(٣) نفسه

(٤) ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢١٥

واضطرت السلطات المملوكية بسبب ذلك الى ارسال حملة عسكرية الى البحيرة^(١) وفي البحيرة ضرب المماليك خيامهم وقبل أن يلتقى العرب والمماليك أرسل كل منهما عيونهم لترصد قوة الآخر، فبلغ المماليك أن العرب قد أعدوا خططهم للهجوم على معسكر المماليك والقضاء عليهم ليلاً . وعندئذ أخذ المماليك حذرهم وديروا خطة سرية للايقاع بالعرب في كمين نصبوه لهم وقد فححت الخطة على نحر لم يكن في الحسبان عندما أحلى المماليك معسكرهم وكنوا في مكان قريب . فلما أرخى سول له وهاجم العرب المعسكر المملوكي خرج عليهم عسكر المماليك من كمائنهم وأحاطوا بهم من كل مكان^(٢) وأسفرت المعركة عن هزيمة نكراء للعرب ووقوع نسائهم وأطفالهم في الأسر ومصادرة أملاكهم وجمالهم وأغنامهم وحيولهم وأموالهم^(٣).

ومن المؤكد أن المماليك عندما عاملوا العرب بقسوة وعنف بالغين إنما كانوا يستهدفون القضاء على ثورتهم ، ولكن ما حدث بعد ذلك جاء بعكس ما كان يتوقع ذلك أن عرب البحيرة اتفقوا في العام التالي على الثورة من جديد ضد المماليك . وعلى اثر قيامهم بالثورة توجهت الى البحيرة حملة قوامها خمسمائة من عسكر

(١) ابن بطون ، المعبر ، ج ٥ ، ص ١٧٠ - بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢١٦

(٢) نفس المصدر.

(٣) ابن الأثير ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢١٦

الملوكية لقتال العرب ولكن الحملة انتهت هذه المرة بهزيمة القوة
الملوكية ووقوع عدد كبير منهم قتلى .^(١) ولكن عرب الغربية
تدخلوا في الصراع القائم بين عرب البحيرة والممالك وانحازوا الى
جانب الممالك وتغلبوا على عرب البحيرة فهزموهم وأرغموهم على
الانسحاب الى برقة .

ويبدو من اجتماع عرب الغربية مع نائب الاسكتلرية لنصرة
الممالك أن عرب الغربية لم يقرروا عرب البحيرة على تصرفهم وانهم
اختلفوا معهم فقاتلوهم وأرغموهم على الانسحاب من البحيرة
والالتجاء الى برقة . ومع أن قوة عرب البحيرة انسحبت الى برقة
الا أن ثورتهم لم تنته تماما وظلت جلوتها مشتتة الى أن اعتلى
الأتاكي برقوق عرش السلطنة مؤسسا بذلك دولة الممالك
الجراكسة .

في عصر الممالك الجراكسة

أ- في عهد الظاهر برقوق:

بذكر ابن دقماق ان السلطان الطاهر برقوق اضطر بسبب
استمرار ثورات عرب البحيرة واضطراب أحوال البلاد الى اقامة
سور حول مدينة دمنهور^(٢) والظاهر أن الاضطرابات شملت في عهد

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٧

(٢) ابراهيم ، محمد ، تاريخ البلاد (ابن دقماق) ، الانبار ، ط ١ ، ص ١٠٠

برقوق قطاعا هاما من البلاد بل امتدت الى البلاد الشامية . وقد
عمر عن ذلك القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف
وسط مجلس حضره برقوق والخليفة المتوكل والقضاة الاربعة والامراء
بياب السلسلة من قلعة الجبل بقوله (ياأمير المؤمنين وياسادات
القضاة ان احوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد
وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة
والاحوال غير مستقرة)^(١) .

وقد استطاع المماليك الجراكسة بزعامه برقوق أثناء انعقاد هذا
المجلس من القضاء على سلطان دولة المماليك الجراكسة بزعامه
برقوق أثناء انعقاد هذا المجلس من القضاء على سلطان دولة المماليك
البحرية فخلعوا الملك الصالح أمير حاج من السلطنة^(٢) وكان برقوق
بذلك أول سلطان جركسى يتولى عرش السلطنة .

وهكذا أكدت الاحوال السياسية السيئة وماكانت عليه من
اضطراب أن العرب قاموا بثوراتهم فى ظروف مضطربة غير
مستقيمة . وفى فترة شحنت فيها البلاد بالفتن . ولعل ذلك كان
من أسباب امتدادها . وعلى هذا النحو يمكننا القول أنه اذا كانت
دولة المماليك البحرية قد أضعفت من قوة الثورات العربية فى مصر
وخاصة فى الوجه القبلى الا ان تدهور الاحوال السياسية فى الداخل

(١) ابن الهيثم ، بلقع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٢١

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٢

وتعدد الفتن والمؤامرات التي أطاحت بدولة الماليك البحرية
ساعدت على احتدام نار الثورة العربية وانتشارها في البلاد وأزدياد
قوتها وعنفها في الوجه البحري منذ قيام دولة الماليك الجراكسة
حتى بداية العصر العثماني .

ففي عهد الظاهر برقوق ٧٨٤-٨٠١هـ (١٢٨٢-١٢٩٨) جرد
السلطان حملة مكونة من مائتي جندي إلى الصعيد في سنة
٧٩٢ (١٢٨٩) لمواجهة ثورات عرب الصعيد^(١) بعد مضي عامين
فقط من قيام برقوق بالقضاء على دولة المنصور حاجي وقد تسببت
هذه الفتنة في ارتفاع أسعار السلع واشتداد موجة الغلاء بحصر .
كما تسببت في ظهور موجة عاتية من الاضطراب انعدم بسببها
الامن^(٢) . وعندئذ صدرت الاوامر بالا يقوم أي فقيه أو متعجم
بركوب الخيل^(٣) .

وفي تلك الظروف السيفة التي عمت فيها الفتن والاضطرابات
لا يبدو غريبا أن يقوم العرب بثوراتهم في مناطق الشرقية والغربية
والبحيرة لأن تلك المناطق كانت اقطاعات لبعض قادة تلك الفتن من
أمراء الماليك ، مثل الأمير بركه صاحب اقطاع البحيرة . وقد
تأثرت أحوال هؤلاء الأمراء الماليك واطاعاتهم حيث أدى

(١) ابن أبيس ، نتائج الزهور ، ٢٥٠ ، ص ٢٤٦ ، ٢٥٥

(٢) نفس المصدر

(٣) نفسه

انصرفهم عن تدبير شئونها واهملها الى اشتعال نار الفتن بهذه المناطق خاصة وان الممالك الجراكسة فى ذلك العهد كانوا شغلوا معظم الوظائف التى كان يتولاها المصريون والعرب فى العهود السابقة وأول من تولى منصباً ادارياً مدنياً من أمراء الممالك الجراكسة منكلى بغا الشمس الذى خلع عليه السلطان وولاه محتسماً بالقاهرة .

وكان توليه هذا المنصب بداية خطيرة لتغلغل الاتراك فى وظائف الدولة واستمر ذلك حتى عام ٨٩١ (١٤٨٦ م) فزاد عدد الموظفين الاتراك فى الدولة زيادة كبيرة . ويعبر ابن اياس عن ذلك بقوله :
(ثم انقلبت الوظائف الى جماعة كثيرة من الاتراك والمباشرين ^(١)) .

وقد ترتب على قيام العرب بثوراتهم وقيام الممالك بقمعها أن افتقد الطرفان العرب والممالك الثقة فيما بينهما حتى أنه عندما حاول السلطان المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان الاستعانة ببعض قبائل عرب الشرقية والبحيرة عام ٨٥٧ (١٤٥٣) ليقاتلوا معه ضد التآمريين على خلعه عن العرش منعه أحد معاونيه من تنفيذ خطته قاتلاً له (تطمع العرب فى الترك) ^(٢) وظل العرب يشورون على الممالك كلما ساءت أحوالهم الاقتصادية فى حين واصل

(١) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٣٠

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١٤

السلاطين قمع الثورات وارسال المزيد من الحملات العسكرية الى المناطق الثائرة .

ب- في عهد الاشرف اينال:

وفي بداية عهد الاشرف اينال ٨٥٧-٨٦٥ (١٤٥٣-١٤٦٠) ثار العرب في البحيرة وقتلوا الكاشف^(١) والظاهر ان الثورة استمرت حتى عام ٨٥٨ بدليل أن السلطان سير حملة الى البحيرة في عام ٨٥٨ اتبعها بحملة ثانية سنة ٨٥٩ الى البحيرة . ومن المؤكد أن أحوال البلاد الاقتصادية في تلك الفترة كانت في غاية الاضطراب وأن أمراء الممالك كانوا ينهبون المواطنين . ويعبر ابن اياس عن سوء هذه الحالة بقوله وفي جمادى الاولى (٨٥٩) تزايد شر الممالك الجلبان وتوجهوا الى بولاق ونهبوا شئون الامراء لاجل الشعر فانه كان مشحوتا . وصاروا ينزلون الفقهاء والمباشرين عن حيولهم ويغالهم ويأخذونها من تحتهم^(٢) .

واذا قارنا بين ثورات العرب وبين سوء الاحوال الاقتصادية ومايجده الممالك تأكد لدينا وجود علاقة بين هذه الاضطرابات وماكانت عليه أحوال البلاد وأن العرب لم يكونوا وحدهم الذين يتأثرون بسوء الاحوال الاقتصادية وانما كان الممالك أيضا يعانون من نفس ماكان يعانيه العرب فيعشرون على الاهالى ويسلبونهم

(١) ابن اياس ، بكتم الزهور ، ج٢ ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٢

(٢) نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٣٥٥

ممتلكاتهم . وليس أدل على ذلك من قيام عرب لبيد بالثورة . فى عهد السلطان جقمق ٨٤٢-٨٥٧ (١٤٣٨-١٤٥٣) ومن المعروف أن عرب لبيد سنبس طى وكانوا ينزلون باقليم برقة ثم عادوا الى الثورة مرة أخرى فى عهد السلطان المؤيد أحمد بن اينال فى ٨٦٥ (١٤٦٠) وهاجموا اقليم البحيرة . وقامت حملة عسكرية لردهم.^(١) وقد سبق ثورة عرب لبيد ظهور وباء الطاعون فى عام ٨٦٤ (١٤٦٠) وكان من العنف بحيث مات بسببه ثلث الممالك والاطفال والجوارى والعبيد والغرباء ، وقد طال أمده نحو من خمسة أشهر.^(٢) ومن المؤكد لهذا الوباء أثر على اقتصاديات البلاد فتسبب فى وقوع اضطرابات نتيجة للاضرار المادية التى لحقت بالاهالى خاصة عرب البدو الذين لم يجدوا القوت الضرورى فلهجأوا الى المدن يَحْتَمُونَ بها . ويضاف الى ذلك ما عرف عن الممالك وبصفة خاصة فى مثل تلك الظروف غير العادية من جورهم على الناس^(٣) . فزاد ذلك من اضطراب الاحوال .

ج- فى عهد الاشرف قايتباى :

وفى عهد الاشرف قايتباى ٨٧٢-٩٠١ (١٤٦٧-١٤٩٥) قام العرب فى الشمال والجنوب بعدة ثورات ، وسرعان ما قامت

(١) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ج٤ ، ص ٣٧٣

(٢) نفسه ، ج٤ ، ص ٣٦٩

(٣) ابن الياز ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٨٦

الحملات العسكرية لو أدعها بالرغم من أن البلاد كانت تعاني من
شدّة الغلاء وانتشار الوباء . ووقف توزيع أنصبة اللحوم التي كانت
تصرف كل يوم للحند المالك والفقهاء وغيرهم كرواتب
جارية^(١) . ويعتبر قابشاي لذلك أول من فتح باب المظالم واستفحل
الجور بعد ذلك .^(٢)

وكان ذلك من أسباب استمرار الاضطرابات في البلاد . ثم أن
العرب كانوا يمثلون حزب المعارضة للحكم المملوكي في مصر منذ
اللعنة الأولى لقيام هذا الحكم . وقد ترتب على ذلك الموقف أن
العرب رغم مشاركتهم أهل مصر في الدفاع عن البلاد ضد الأعداء
كان يقع عليهم من جور المالك وعسفهم ما اضطّرهم إلى
المجرة خارج البلاد أو الانصهار مع أهل مصر .

كذلك تعرض المصريون للاضطهاد المملوكي مما دفع بالكثيرين
منهم إلى الدخول في الإسلام جماعات خلال الفترات التي ازداد
فيها الاضطهاد عليهم . وقد حدثت تلك الظروف الصعبة التي
واجهها كل من العرب والمصريين في العصر المملوكي وساعدت
كثيرا على التقارب بينهم على نحو لم يتحقق من قبل .

وقد ظل هذا التقارب يزداد يوما بعد يوم عن طريق علاقات
النسب والمصاهرة فظهر بين زعماء العرب من يحمل القاب تدل على

(١) القمري ، المخطوط ، ج ٣ ، ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ، ابن أبي ، المتع الزهري ، ج ١ ، ص ٤٠٥

(٢) ابن أبي ، المتع الزهري ، ج ١ ، ص ٤٠٥

أصله المصرى قبل أن يلحق بالعرب ويندمج فيهم ويلبى رئاسة القبيلة.

وقد تعرض هؤلاء الزعماء العرب الذين ترتفع أنسابهم الى أصول مصرية لنفس ماتعرض له عامة العرب فى مصر من التعذيب والقتل. ولعل من أمثلة هؤلاء شخصية تاج الدين بن المقسى الذى ذكر ابن اياس عنه فى حوادث على ٨٨٥ مايلى : (رسم السلطان بشتق تاج الدين بن المقسى بعد أن أعفى عنه فتوجهوا به الى غيط الحاجب فشنقوه على جميزة هناك وشنق معه فى نفس اليوم قاسم بن بقر أمير عربان جدام بالشرقية . وكان لهما يوم مشهود . وكان اسمه عبد الله بن نصر الله القبلى . وكان رئيسا حشما كيمس حسن الميعة لطيف الذات وولى عدة وظائف سنية منها كتابة المالك ونظر الدولة . ونظر الجيش ونظر الخاص والاستدارية وغير ذلك من الوظائف ومات وهو عشر الخمسين وكثر عليه الحزن من الناس^(١)).

ومن هذا النص يظهر مدى اختلاط واندماج العرب بالمصريين حيث وصل الأمر كما تقدم الى أن ولى أحد المصريين الذين أسلموا زعامة إحدى القبائل العربية العريقة فى مصر والتي هى من قبائل الفتح . وفكرة النسب العربى عن طريقة الالتحاق كانت أمرا

(١) ابن اياس ، بفتح الزمور ، ح ٥ ، ص ٤٩٥

معروفا عند العرب منذ أقدم العصور^(١) وظلت سارية المفعول طوال عصر دولة المماليك الجراكسة .

وأهم ثورات العرب التي اشتعلت زمن السلطان الأشرف قايتباي ثورة عرب البحيرة في ٨٩١ (١٤٨٦) التي تزعمها محمد الجويلي شيخ عرب البحيرة . خرجت حملة يقودها أربعة قواد وقوامها مائتا مملوك ، من ممالك السلطان ولكن هذه الحملة لم تحقق الهدف من إرسالها^(٢) ويلاحظ أن ابن اياس عندما يذكر ثورة الجويلي يصفها بالفساد ويعلل انفاذ الحملة العسكرية بسبب فساد محمد الجويلي وهي عادة جرى عليها المؤرخون ، فعند التعرض للذكر أخبار الاضطرابات أو الثورات التي كان يقوم بها العرب في مصر يصفونها بفساد العربان . والواقع أن ما كان يقع لم يكن بسبب فساد العربان بأي حال وإنما كان لأسباب أخرى اجتماعية أو اقتصادية على النحو الذي أشرنا اليه من قبل وقد سبق ثورة الجويلي كذلك مايلي :

١- اضطراب الأحوال في العاصمة في ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) بسبب اعتداءات جماعة من المماليك ومن غيرهم من الأشرار على

(١) (انظر الفصل الخامس من كتاب القلقشندي ، نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، بيان أمور يحتاج الناظر في الأنساب اليها ، ص ٢١ ، السطر الخامس)

(٢) ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ح ٥ ، ص ٥٣٦

الأحوال في الطريق العام (حتى أعيا أمرهم الوالى وحاجب الحجاب
وصارت الأحوال في اضطراب) (١)

٢- كثرة المصادرات بحجة السفر لقتل عثمانين . فكان
المصاليك يتهبون البغال والخيول وغير ذلك مما يحصل به الضرر
الشامل وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة (٢) .

٣- في عام ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) سبب انخفاض النيل ارتفاعا
فى الأسعار حتى ارتفع سعر الماء وذلك بسبب (عدم العلف لجمال
السقائين) (٣) .

٤- قام جماعة من المصاليك بالاعتداء على مخازن السلطان
والمخمس وفتحوا أبوابها غنوة واستولوا على ما فيها من اللحوم
والغلال (٤) ومن ذلك يبين أن ثورة الجويلى وقعت فى خلال
ظروف غير عادي وأن الاضطرابات كانت قائمة فى العاصمة نفسها
ولم يتمكن الولاة من السيطرة عليها الأمر الذى يؤكد أن الثورة إنما
حدثت بسبب عوامل اقتصادية نتيجة أزمات مرت بها البلاد .
وسوف تتطور الأحداث فى العام التالى وتزداد الفتن بين المصاليك

(١) نفس المصدر ، ص ٥٢٧ - ابن تيمى بردى ، النجوى للزعماء . ج ٧ ، ص ٣٢٧ - محمد
عبد المعطى بن أبى الفتح الاسمانى . لطائف أخبار الأول فمن تعرف فى مصر من أرباب الدول ،
ط القاهرة ، ١٣٠٠ هـ ، ج ١٩٢

(٢) ابن الهيثم بناتج الزهور ، ج ٥٥ ، ص ٥٢٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٣١

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٣٦

وتقع الاضطرابات في البلاد . أما السلطان فكان على حد قول ابن اياس (في غاية الظلم والمصادرات للناس) ^(١) الا أنه ذكر في موضع آخر أن السلطان كان معلوما فيما فعل بسبب كثرة حروبه وأن محاسنه لا تحصى ^(٢) وحقيقة الأمر أن البلاد كانت مهددة بهجوم عثماني فكان السلطان يستعد لارسال حملة الى الشام تصد العثمانيين وتدافع عن البلاد . وكان يترتب على ذلك نوع من الضغط يمارسه السلطان على الرعية . ففي عام ٨٩٢ هـ يذكر ابن اياس (ان السلطان جدد مظلمة شنيعة وهو أنه أرسل لكشاف الغربية والشرقية بأن يأخذوا من البلاد الخمس من خراج المقطعين بسبب تجهيز خيالة من الشرقية من عربانها والعشير) ^(٣) .

وقد تكرر وقوع الفتن بين المماليك وتكرر وقوع الاضطرابات في الشرقية والغربية في عام ٩٠٢ (١٤٩٧ م) ^(٤)

(١) ابن اياس ، نتائج الزهور ، ج ٥ ، ص ٥٣٨

(٢) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٥٩٣ - أحمد بن يحيى بن شاذي الجبلاني ، القول المستطرف في سفر الملك الأشرف ، مخطوط رقم ١٨٩٩ - محمد معهد المخطوطات العربية - محمد بن يوسف الباعوني ، الإشارة الواضحة الى الخصوميات الأشرفية ، مخطوط رقم ٢٧٦٠ ج ، م اسكندرية - محمد عبد المعطي بن أبي الفتح الاسماعلي ، لطائف أخبار الأول ، ص ١٩٦ - الشيخ عبد الله الشرقاوي ، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ، ص ٢٠٠ ط القاهرة ١٣٠٠ هـ .

(٣) ابن اياس ، نتائج الزهور ، ج ٦ ، ص ٥٤٩

(٤) نفس المصدر ، ص ٦٠٥ ، ٦٠٦

د - في عهد محمد بن قايتباي :

وفي عهد السلطان ناصر الدين محمد بن قايتباي ٩٠١ - ٩٠٤ هـ (١٤٩٥ - ١٤٩٨) قامت ثورة في البحيرة تزعمها الجويلي ومرعى عام ٩٠٤ (١٤٩٨) . وقد سبق قيام هذه الثورة بعام أي في عام ٩٠٣ (١٤٩٧) انتشار الوباء وتبرم الناس من سوء معاملة المماليك لهم . وكان السلطان شابا يقلب عليه اللهو وليس له التفات إلى ملك ولا إلى سلطنة^(١) وقد وصف ابن أبيس الموقف في ذلك الحين فقال (وصار الطمع عمالا والمماليك جائرة في حق الناس الأذى)

وقال أيضا : (قد قلت للطعن والمماليك... جاوزتما الحد في النكاية ترفقا بالورى قلبلا... في واحد منكما كفاية)^(٢)

ثم وضع الجويلي يده على خراج اقليمى الغربية والبحيرة وقرر عدم تسليمه إلى الدولة . ثم تعذر على المماليك ارسال حملة لقتال الجويلي بسبب الفيضان^(٣) قامت ثورة الجويلي اذن في ظل ظروف سياسية واقتصادية غير عادية انتشرت فيها الثورات والفتن^(٤) ولم يسلم العرب من الاعتداءات على ممتلكاتهم فقد هاجم المماليك

(١) نفسه ، ص ٦٤١ - الاسماعيلى ، لطائف أخبار ، ص ١٨ .

(٢) عبد الله الشرقاوى ، تحفة الناظرين ص ٢٠١

(٣) ابن أبيس ، ملحق الزهور ، ج ٦ ، ص ٦٣٢

(٤) نفس المصدر ، ص ٦٤١ - عبد الله الشرقاوى تحفة الناظرين ص ٢٠١

اقلیمی الشرقیة والغربیة فی عام ٩٠٥ (١٤٩٩) آی فی العام الثالی
للثورة وصادروا ممتلكات العرب واستولوا علیها وعادوا بها الی
القاهرة .^(١)

ومکذا ظلت ممتلكات العرب نهبا للمالیک وبذلك استمر الصراع
بین العرب والمالیک الی نهاية العهد المملوکى . وأصبح العربی یحیا
حیاة غیر مستقرة حتی تأثرت الأحوال الاجتماعیة للعرب لتکرار
ثوراتهم ثم مصادرة ممتلكاتهم کان ذلك من أکبر أسباب اندماج
العرب فی شعب مصر .

هـ فی عهد السلطان الأشرف قانصوة الغوری :-

قامت الثورات العربیة فی عهد السلطان الغوری ٩٠٥ - ٩٢٢
(١٤٩٩ - ١٥١٦) لنفس الأسباب الیى كانت تقوم بسببها
الثورات فی عهود من سبقه من سلاطین المالیک فلم تتغیر
الظروف ان لم تکن قد أصبحت أكثر مدعاة لقیام الاضطرابات لیس
فقط من جانب العرب وإنما أبضا من جانب المالیک السلطانیة .

ففى العام الثالی لتولى السلطان الغوری الحکم كانت الخزانة
السلطانیة بحالة من المال^(٢) فلم یتمکن من الاتفاق علی ممالیکه
واضطرت تحت ضغط الخاحهم الی فرض تحصیل ایجار عشرة شهور

(١) نفسه ، ص ٦٥٤

(٢) نفسه ص ٦٩١ - د. محمود رزق سلیم ، الأشرف قانصوة قانور ، ط القاهرة ١٩٦٥ ،

مقلدا من أصحاب الأئمة بالقاهرة . وتعتبر على رأس سدا
 الايجار المقدم . فوق الاضطراب للغنى والفقير (وصار الناس بين
 جمرتين ويطلبون في اليوم الواحد من أبواب جماعة كثيرة من الحكام
 مرتين حتى ضجوا من ذلك)^(١) ويصف ابن اياس الاضطرابات
 التي وقعت بعد ذلك نتيجة لفرض سداد الايجار المقدم فيذكر أن
 جماعة كبيرة من أهالي القاهرة اجتمعوا في مكان ما ثم توجهوا
 جميعهم الى القلعة في يوم الجمعة سبعة من شهر المحرم ٩٠٧ هـ
 (٢٤ يوليو سنة ١٥٠١) وقابلوا قيت الرجبي نائب السلطنة وكان
 عائدا من القلعة عقب أداء صلاة الجمعة بصحبة السلطان الغوري ثم
 عرضوا عليه صعوبة سدادهم لأجرة عشرة شهور مقدما وكان الأمر
 قد صدر به فعلا قرار سلطاني بعد الموافقة عليه في اجتماع جمع
 السلطان الغوري والأمراء والمالِك وصلوات الأوامر بعد ذلك الى
 الحكام المحليين في أنحاء مصر والشام بتحصيل ذلك الايجار المقدم
 ولكن الأمير قيت الرجبي لم يلتفت لشكوى الأهالي وتجاهلهم .
 وسار في طريقه للعودة الى منزله غير عابئ بأحد . وعندئذ ثار
 الأهالي وقلدوا موكب الأمير بالحجارة^(٢) .

(١) ابن اياس بلقيع الزمور ، ج ٦ ، ص ٢٩١

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٩٣ غمسي الدين بن طولون ، فاكهة الخلال في حوادث الزمان ، ص
 ٢٠٥ ، تحقيق محمد مصطفى ، ط القاهرة ١٩٦٢ - د. محمود رزق سليم ، الأشرف كنعنة

الغوري ص ٧٤

وانتهى الأمر برفع ثلاثة أشهر والاكتفاء بتحصيل سبعة شهور
بدل عشرة استجابة لرغبة الأهالي،^(١)

كانت هذه صورة عامة للموقف فى مصر فى بداية حكم
السلطان الغورى ولم يختلف موقف قبائل العرب عن موقف بقية
أفراد الشعب ذلك أن العرب لم يسلموا من الضغط عليهم من أجل
تحويل المال بهدف الاتفاق على ممالك السلطان . وفى عام ٩٠٧
هـ (١٥٠١) ثار عرب الشرقية وقتلوا الكاشف ثم بعث السلطان
أحد مماليكه ويسمى نائق الخازن الى اقليمى الشرقية والغربية
لاستيفاء تحصيل بعض مستحققات السلطان لدى الأهالى . فلما
توجه نائق الخازن المذكور الى هناك ضيق على الفلاحين وفحص عن
أصل خراج كل حصة وما تعمل فى كل سنة من الخراج فتعاف
المقطعون بسبب ذلك ورحل معظم الفلاحين^(٢) وفى شهر شعبان
من نفس العام ٩٠٧ (١٥٠١) أرسل السلطان الأمير قانصوة بن
سلطان جركس حاكما للشرقية . ولكن عرب الشرقية رفضوا
استبدال الحاكم الجديد وسخروا منه وسموه هات لين^(٣) وظل
بالشرقية نحو أربعين يوم ثم رجع الى العاصمة بغير نتيجة .

(١) ابن ايس بدائع الزهور ص ٦٩٣ - د. محمود رزق سليم ، الأشراف فائض الغورى ص ٧٤

(٢) ابن ايس ، بدائع الزهور ، ج ٧ ، ص ٦٩٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٩٨

وبدأت الحملات العسكرية تنتشر فى البلاد واستخدم المماليك
أشد أنواع التعذيب ضد العرب فراح ضحية ذلك البرئ والمذنب^(١)
وعلى الرغم من وقوع العرب تحت بطش السلطان فإن الاضطرابات
لم تنته . وشملت ثورات العرب أماكن كثيرة امتدت الى خارج
مصر فنار عرب الشام والحجاز والكرك (الاردن حاليا)^(٢) وفى
عام ٩١٠ (١٥٠٤) ظهر الوباء وأعقب ذلك الغلاء . وفى عام
٩١٢ (١٥٠٦) عادت الاضطرابات الى الشرقية والغربية كما ثار
عرب الكرك أيضا مرة أخرى^(٣) وكانت تلك الثورات تحدث فى
ظل ظروف الجور والعسف من جانب السلطان الغورى . ومما
يجدر ذكره هنا قول ابن اياس فى أحداث عام ٩١٠ (١٥٠٤)
وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب بما وقع فيها
من الفناء والغلاء وفساد العربان بالشرقية والغربية حتى بأرض
الحجاز^(٤) وهكذا يؤكد ابن اياس بعبارته السابقة ان ماوصف
(بفساد العربان) له صلة بأحوال البلاد من انتشار الوباء والغلاء .
بمعنى أن الاضطرابات لم تكن تقوم فى ظل ظروف عادية وإنما
كانت تقوم فى ظل ظروف صعبة مضطربة فى ظل ظروف صعبة
مضطربة لاشك أنها كانت من أكبر الأسباب فى قيام تلك

(١) نفسه ، ص ٦٩٨ ، الاسحاقى ، لطائف أخبار ، ص ١٩٢

(٢) نفسه ، ص ٧٠ ، ص ٧٣٤ - لمسى الدين محمد بن طولون ، مغاكة الحلال ، ص ٢٥٠

(٣) ابن اياس ، ص ٧٤٥

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٣٢

الاضطرابات فلم تكن تلك الاضطرابات نتيجة لفساد العربان كما يزعم وإنما كانت ثورات احتجاج ضد أوضاع البلاد غير المحتملة . وكثيرا ماقامت الفتن بين المماليك والسلطان لأسباب لا تخرج فى صميمها عن الأسباب التى نتج عنها قيام الاضطرابات فى البلاد من جانب العرب والمصريين . والأولى واضحة . حيث أن الفتن المملوكية ماقامت الا لأسباب النفقة .

(٣)

تحالف قبائل العرب ضد الحكم المماليكى ٩١٨ (١٥١٢) الأسباب والنتائج

فى عام ٩١٢ (١٥١١) قام السلطان باستبدال النقود القديمة بأخرى جديدة كانت عبئا على الأهالى^(١) ومع أن هذه السنة كانت خالية من الطاعون والفتن الى حد أنها وصفت بأنها سنة مباركة^(٢) فان الخزائن السلطانية كانت خاوية أو (مشحونة من المال)^(٣) وقد ترتب على ذلك عجز السلطان عن النفقة على ممالكه وقيام الفتن بينهم وبين السلطان حتى أنهم هاجموا خازن الشعير السلطانية واستولوا على كثير مما فيها .^(٤)

(١) ابن الأثير ، بدائع الزهور ، ج ٨ ، ص ٨٤١

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٤٢

(٣) نفسه ، ص ٨٢٥

(٤) نفسه ، ص ٨٢٥ - د (عمود وراق سليم ، الأشرف قانصوة الغورى ، ص ٦٠ ، ٦١

وفى نفس عام ٩١٧ (١٥١١) نزل أحد أمراء المماليك اقليمى الشرقية والغربية وجمع كثيرا من الأموال الضريبة - قهرا وأهلك فى ذلك الحرث والنسل ^(١) . ومادام الأمر على هذا الحال لا يستغرب قيام تحالف بين عرب الوجه البحرى ضد الحكم المملوكى .

ففى عام ٩١٨ تحالفت سبع طوائف من عرب البحيرة واتفقوا على أن يكونوا يدا واحدة فى نيل الطاعة للمماليك . ثم قاموا بطرد كاشف المنوفية وغيره من حكام الأقاليم ^(٢) .

وقد ترتب على سياسة القهر التى جرى عليها الحياة ضد العرب فى عهد السلطان الغورى ضعف الانتاج الزراعى فى البلاد نتيجة هجرة العدد الأعظم من الفلاحين بسبب فداحة الأموال التى كانوا يطالبون بدفعها وعجزهم عن أدائها .

ويتضح ذلك من قول ابن اياس (ورحل أغلب الفلاحين وقد طالبهم ببقية الخراج زيادة عما أورده المقطعون) . ^(٣) ومعنى هذا أن عامة الفلاحين لما رأوا عجزهم وضعفهم ازاء جور المماليك

(١) ابن اياس ، بقاتع الزهور ، ج ٨ ، ص ٨١٦ - برعى بن يوسف بن أبى بكر ، نزهة الداعرين لمن ول مصر من الخلفاء والسلطان ، مخطوط رقم ١٤١٦ ص ٨٦ ، م اسكندرية .

(٢) ابن اياس ، بقاتع الزهور ، ج ٨ ، ص ٨٤٤ ، ٨٤٥ - د. محمود رزق سليم ، الأشرف ، ٥٣ صورة الغورى ، ص ٥٣

(٣) ابن اياس ، بقاتع الزهور ، ج ٧ ، ص ٦٩٨ .

وتتكيلهم بهم هجروا الأرض وتركوها بغير زراعة^(١) . وكان من أثر ذلك نقص الخراج الذي كانت تحصله الدولة من الفلاحين . ومن أمثلة ذلك ما نزل بالفلاحين والعرب من القسوة والجور ما ذكره ابن اياس عند تعرضه للذكر حوادث عام ٩٢١ (١٥١٥) ووقوفه عند أحداث الأمير قاني باي قرا أمير آخور كبير اذ يقول : (وكان السلطان قد عينه بأن يتوجه الى جهات الشرقية بسبب فساد العريان فكان اذا ظفر بأحد من الفلاحين الضعفاء يوسطه أو يسلخه من رأسه الى قدميه وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العريان العصاة)^(٢)

وتبين لنا من هذا النص أن جماعات من العرب كانوا يلقون التعذيب والموت وهم أبرياء من تهمة توجه اليهم زورا وبهتانا . وتتداخل الاتهامات بين العرب فلا يعلم من المتهم ومن البرئ وينوء العرب بمظالم الممالك في عهد الغوري ، ويعير ابن اياس عن ذلك بقوله (ولولا ظلمه وكثرة مصادرته للرعية لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطية)^(٣) . ويؤكد هذا القول

(١) نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٦٩٨ - د. محمود رؤف سليم ، الأشراف ثائفة الغوري ص

(٢) نفسه ، ج ٩ ، ص ٩٦٦

(٣) نفسه ، ج ٩ ، ص ١٠٤٠ - عبد الله الشرقاوي ، مجلة الماثلين لبحر في مصر من

الزلا والسلطين ، ص ٢٠١

ما تقدم ذكره عن سوء الأحوال الاقتصادية والمظالم الفادحة التي أدت إلى قيام العرب بثوراتهم وما ترتب على ذلك من تدهور شعور الزراعة وضعف الانتاج وتناقص الدخل القومي بحيث لم يجد حكام الممالك المال اللازم للاتفاق العام فضعف الجيش ولم يقو على مقاومة العثمانيين فانهمزم أمامهم في مرج دابق .

(٤)

ثورات العرب في بداية العهد العثماني

أ- ثورة عرب الشرقية والبحيرة:

لم تتغير أحوال العرب كثيرا في العهد العثماني بسبب سوء الأحوال الاقتصادية في البلاد بازدياد تدهورها عما كانت عليه في العصر المملوكي . وقد اختلف موقف القبائل العربية من الحكم العثماني تبعا للظروف التي واجهوها ، فنجابر بك الذي تولى نيابة السلطنة في مصر في العهد العثماني قام بدور ايجابي مع قبائل العرب ، ونجح في اجتذاب مشايخ العرب اليه . وظل يعمل على تحسين علاقاته معهم . كما اصطنع في سبيل بسط نفوذه على البلاد والسيطرة على العرب أسلوب المخادعة فقبض على بعضهم ليصفو له الحال . وكان للسلطان العثماني وبعض أمراء الممالك أمثال نجابر بك وجان يردى الغزالي دور هام في تحسين العلاقات بين العرب والعثمانيين . فقد سبق للسلطان العثماني قبل معركة الريدانية أن اتصل بأحمد بن بقر شيخ عرب الشرقية وعرض عليه

الأمان بشرط الطاعة ^(١) وإن كان ابن اياس يشك في صحة المقابلة المذكورة ^(٢) . والأرجح أن أحمد بن بقر شيخ عرب الشرقية لم يتقابل مع ابن عثمان لأن أحمد بن بقر لم يحصل على أمان من ابن عثمان حتى رجب من عام ٩٢٣ (أغسطس ١٥١٧) ويؤكد ذلك قول ابن اياس (وفي يوم الأربعاء عاشر من رجب ٩٢٣) (أغسطس ١٥١٧) حضر شيخ العرب أحمد بن بقر وقد أرسل اليه ابن عثمان أمانا بالحضور فحضر وقابل يونس باشا وبقية الوزراء وكان له مدة وهو عاصى في وادي العباسة ومعه جماعه من المماليك الجراكسة وكان يحسن اليهم بالعليق وغير ذلك من القوت ^(٣) . ويتبين لنا من هذا النص أن أحمد بن بقر لم يتصل بالعثمانيين رغم اصدارهم الأمان له فلما وقع السلطان في أيدي العثمانيين وقضى على المقاومة فت ذلك في عضده فاضطر الى الاتصال بهم هو ومن كان معه من المماليك الجراكسة . كذلك تعرضت الشرقية لضغوط عنيفة تستهدف تحصيل الأموال من الفلاحين. ^(٤) وقد حدث ذلك

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٩ ، ص ١٠٢١ - أحمد بن زبك الرمال ، تلويح السلطان سليم ، ص ٧٨ .

(٢) نفس المصدر . يعلى ابن اياس في ذلك مضطرا شكه في صحة المقابلة : (والاشاعات في أخبار ابن عثمان كثيرة) .

(٣) نفسه ، ج ٩ ، ص ١١٠٤

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ١١٠١ (في يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخر حضر الشريف يونس التاهلي الاسفوار وكان قد توجه الى بلاد الشرقية بسبب جمع الخمر من بلاد القطعين

لبقية الأقاليم فى مختلف الجهات ^(١) . وفى خلال تلك الفترة أيضا ارتفع سعر القمح واختفت سائر الغلال واضطربت الأحوال ^(٢) ومن المؤكد وجود صلة قوية بين ظروف عدم الاستقرار المالى نتيجة اضطراب ، الأحوال السياسية والضغط على الفلاحين لتحصيل الأموال منهم وبين الاضطرابات التى قامت بين العرب فى تلك الجهات بالإضافة الى الخلاف القائم بين كل من شيخ عرب الغربية حسن بن مرعى وشمخ عرب البحيرة الجويلى ومأدى اليه من توتر بين الطرفين . وعندما قبض السلطان العثمانى على مشايخ العرب لم يستثن أحدا منهم وشمل الاعتقال كل من كان قد أعلن لهم الأمان مثل حسن بن مرعى وابن بقر ^(٣) .

ونستدل من اعتقال العثمانيين لمشايخ العرب حتى أولئك الذين منحوهم الأمان . على أن العرب لعبوا دورا رئيسيا فى الثورة على العثمانيين . وهذا يبرر موقف العثمانيين منهم على الرغم من محاولة

والأتراك والأمراء الذين هلكوا فى المعركة فسمح بلاد الشرقية قاطبة وحصل منه غايه الضرر وضيق على الناس فى أرزاقهم من نساء ورجال ووضع يده على عراهم بغير حق) .

(١) ابن أبى ، بتائع الزهور ، ح ٩ ، ص ١١٠٤ (ولله تراجع جماعة من المباشرين مع بعضهم وانتهى الى عمل حسابهم الزبى بركات بن موسى والزهم بالعودة الى البلاد ثانيا لمفلقوا ما كان يشى عليهم من الخراج فى البلاد) كذلك قال ابن أبى (وفى يوم الاثنين سادس عشرة (جمادى الآخر) حضر جماعة من المباشرين الذين كانوا توجهوا الى الغربية ولقولة والحلة)

(٢) بتائع الزهور ، ح ٩ ، ص ١١٠٢

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٠٦ (فلما قاتل ابن عثمان بعض حله وسجن بالعرج الذى بالقلمة وكبش على ابن أبى الجربلى وسجنهم بالعرج أيضا وكان شيخ العرب أحمد بن بقر أتى ليقابل ابن عثمان فلما رأى مكرى على مشايخ العربان هؤلاء رجع بعد أن دخل القاهرة ومضى الى الشرقية) .

خايربك استمالة العزب اليه فانه لم يوفق وظل العرب يقاومون
العثمانيين فترة طويلة بعد سقوط دولة المماليك .

ومع أن أحمد بن بقر وابنه بيبرس تعاونوا مع خايربك فانه لم
يستطع اخضاع عبد الدايم بن بقر الذى رفض الخضوع للعثمانيين
ويصف ابن اياس حركة عبد الدايم بالفساد ويقول (وفيه رمضان
٩٢٣) (سبتمبر سنة ١٥١٧) قابل شيخ العرب أحمد بن بقر وخلع
عليه وعلى ولده بيبرس وقد التزما باصلاح جهات الشرقية ولم يتم
ذلك واستمرت أحوال الشرقية فى غاية الفساد من عبد الدايم بن
بقر واخوته .^(١) ومع ذلك فمن أقوال ابن اياس أيضا يمكن
الاستدلال على أن الموقف الذى وقفه عبد الدايم بن بقر لم يكن
يتعارض مع موقف الغالبية العظمى من عرب الشرقية وذلك أنه رغم
ماقام به خاير بك من اعطاء أحمد بن بقر وابنه بيبرس صفة الشرعية
فى رئاسة عرب الشرقية فانهما لم يتمكنوا من السيطرة على البلاد
بسبب معارضة شعبية عامة واجهت أحمد بن بقر لصالح عبد الدايم .

وبعد مضى ستة شهور استطاع خاير بك نائب السلطان ان
يجتذب اليه عبد الدايم بن بقر . فعند أن نجح فى الاجتماع به فى
١٣ ذى القعدة وخلع عليه وأنزله من القلعة فى موكب حافل^(٢)
توقفت مقاومة عرب الشرقية واستقرت الأمور هناك مؤقتا فلم تلبث

(١) ابن اياس ، بتلغ الزهور ، ج ٩ ، ص ١١١٤

(٢) نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ١١٢٠

الاضطرابات ان عادت من جديد الى الشرقية فى ذى القعدة ٩٢٢ (ديسمبر ١٥١٧) بسبب فتنة نشبت بين عرب عزالة والقبائل العربية الأخرى ^(١) وهكذا عادت الاضطرابات والفتن تشتعل بين قبائل العرب وتبع ذلك ارسال الحملات العسكرية لاحتادها .

واذا كان عبد الدايم بن بقر قد أعلن طاعته لخاير بك نائب السلطان فان حسن بن مرعى الذى كان معتقلا بالقلعة ثم غافل حراسه وتخلص من قيوده وتمكن من الفرار من سجنه ^(٢) سوف يدفع بالعرب الى الثورة على العثمانيين ، فقد استطاع عقب هربه من القلعة أن يحشد جموعا من العرب يصل عددهم الى مايقرب من عشرين ألفا اجتمع بهم فى منطقة الجيزة لمناهضة العثمانيين . وقد واصل العرب بزعامة حسن بن مرعى مقاومتهم للحكم العثمانى حتى بعد أن تحول عبد الدايم عن نصرتهم وعلى الرغم من الحملة التى جردها الوالى العثمانى فى ذى القعدة ٩٢٣ (ديسمبر سنة ١٥١٧) لقتالهم لم يتمكن العثمانيون من التغلب على الثورة . ^(٣) على أن عبد الدايم بن بقر لم يلبث أن عاد الى صفوف الثوار بعد عام واحد من مصالحة خاير بك وأعلن الثورة على العثمانيين وانضم الى عرب الشرقية والغربية ^(٤) .

(١) نفسه ، ج ٩ ، ص ١١٢١

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٢٠

(٣) نفسه ، ص ١٩٢٢ - أحمد بن زيل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم / ص ٥٦

(٤) ابن الجاس ، بدائع الزهور ، ج ٩ ، ص ١١٣٠

وقد بلغ خوف خايز بك نائب السلطان من خطر ثورة العرب
بقيادة عبد الدايم أنه (أخذ في أسباب تحصين القلعة وسد فيها عدة
أبواب وأبقى منها الأبواب الكبار على حكمها وقصد أن يسد بعض
أبواب القاهرة ، وأظهر الخوف والفرع ودخلت رأسه الجذاب من
عبد الدايم بن بقر وكثرة العريان التي اجتمعت معه)^(١) .

ولم يلبث عرب السوالم^(٢) أن اشتركوا مع العثمانيين وقاس
العثمانيون كثيرا في قتالهم مع عرب السوالم ولم يتمكنوا إلا من
بعض أفراد قلائل في حين فر الباقون إلى الجبال^(٣) وترتب على
ذلك امتداد الثورة إلى الصعيد^(٤) .

ويوضح مما سبق أن ثورات العرب كانت تستهدف بوجه خاص
مقاومة جور الحكام وأنه لو لم تكن هذه الثورات يساندها تأييد
شعبي لما أكد ابن آيس أن (رأس نائب السلطان دخلت الجراب)
خوفا من ثورات العرب بزعامة عبد الدايم .

والحقيقة أن الثورات العربية لم تكن سوى صدى لما كان يقع
على الشعب من جور الحكام والمباشرين الذين كانوا على حد قول

(١) نفس المصدر

(٢) السوالم : بطن من لبند من سام بن منصور من العنانية - كانت مساكنهم ببلاد برقة ،
ودخلت مصر في ظل ظروف اقتصادية صعبة . (عمر كماله ، معجم قبائل ، ج ٢ ، ص ٥٦٤)

(٣) ابن آيس بناتج الزهور ، ج ٩ ، ص ١١٤٢ .

(٤) بناتج الزهور ، ج ١ ، ص ١١٤٣ - أحمد بن زبيل الرمالي ، تاريخ السلطان سليم ، ص

ابن ايساس قد أصبحوا (كأنهم الملوك بمصر يتصرفون فى أمور المملكة بما يخالون له ليس على يدهم يد واستغرقوا فى اللذات وعكفوا على شرب الخمر وسماع الزمور . ولم يفكروا فى عواقب الأمور)^(١) .

كذلك لم يكن حراس العرب يحصلون على ما كانوا يحصلون عليه من رواتب نظير قيامهم بحراسة الطرق^(٢) وكثيرا ما كانت ثورات العرب ترتبط باضطراب الأحوال فى البلاد على النحو الذى كان سائدا فى عصر المماليك ويستدل على ذلك من أقوال ابن ايساس فى النص الثانى عن حوادث عام ٩٢٥ (١٥١٩) (أن الحجاج وصلوا الى عيون القصب وأنهم فى غاية مايكون من الانكاد بسبب موت الجمال والغلاء وموافقة فتنة العربان مع ذلك)^(٣)

ومعنى ذلك أن فتنة العربان صادفت ظروف الغلاء والوباء الذى ظهر فى الجمال بالاضافة الى التوقف عن صرف مرتبات العربان الذين يتولون حراسة طرق القوافل . فلو لا ظهور الوباء والغلاء ووقف صرف مرتبات أرباب الادراك من العربان لما قام العربان بالفتنة وقد لاحظنا من قبل أن جميع الاضطرابات التى تسبب فيها العرب اثما كانت تقرن دائما بمشاكل اقتصادية باستثناء الثورة التى

(١) ابن ايساس ، بلاتع الزمور ، ج ٩ ، ص ١١٤٥

(٢) نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ١١٥٥

(٣) نفسه ، ص ١١٦٠

قام بها العرب بزعامة حصن الدين ثعلب في بدء قيام الحكم المملوكي . واذا كان خايز بك قد وفق الى تحسين العلاقات مع العرب بفضل مساعيه الحميدة فان هذا التحسين لم يطل أمده فلم يلبث أن تعكر صفو العلاقات على أثر حملة الاعتقالات التي قامت بها السلطات العثمانية لزعماء العرب وسقوط عدد منهم ضحايا الاراء المعكوسة كما حدث بالنسبة لحسن بن مرعى وأخيه شكر اللذين أوقع بهما كاشف الغريبة في مؤامرة دبرها انتهت بقتلهما معا في ربيع الاول من عام ٩٢٥ (مارس ١٥١٩) انتقاما من حسن بن مرعى الذي لم يحفظ عهدا كان قد قطعه على نفسه للسلطان طومان باي أنه لايشي به ثم أخلف وعده فكان كما قال ابن اياس (المجازاة من جنس العمل)^(١)

وفي نفس الشهر أوقع كاشف المنوفية بشيخ ثالث من مشايخ العرب وهو الشيخ على الاسمر بن أبى الشوارب في عام ٩٢٥ (١٥١٩)^(٢) ولما خشى خايز بك نائب السلطان من رد الفعل بين

(١) ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ج ٩ ، ص ١١٦٤ - يذكر أحمد بن زنبيل الرمالى في روايته له ان حسن بن مرعى قابل والده بعد أن أكدم اليه على أن لايشي بالسلطان . فلما تبين له ضعف موقفه اذا احتج لما بعدم استطاعته مواجهة العثمانيين بعد أن دالت دولة المماليك فسفرته من نقض الامان بعد تركها . ولكن لم يقد ذلك شيئا . (أحمد بن زنبيل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم ص ٩٥)

(٢) ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ص ١١٦٥

العرب قام باعتقال المملوك القاتل وامر بشنقه (فأرضى ملك الامراء
خاير بك مشايخ العربان بشنق هذا المملوك)^(١)

وقد أدت هذه السياسة الجديدة التي بدأ ينتهجها نائب السلطان
مع العرب الى تحسين علاقات العرب مع الدولة العثمانية واشاعة
الاستقرار فى البلاد .

ب- ثورة عرب السوازم فى سنة ٩٢٦^(٢)

لم يكن عرب السوازم فى جملة القبائل العربية التى خضعت لنفوذ
العثمانيين اذ أنهم واصلوا معارضتهم لهم فلما عجز اياس كاشف
الشرقية عن انخضاعهم بالقوة لجأ الى اصطناع الحيلة ، فعمل على
استمالة مشايخ عرب السوازم واستضافتهم عنده تمهيدا لاعتقالهم فما
أن تم له ذلك حتى أبلغ نائب السلطان بخبرهم فأرسل النائب حملة
عسكرية للقبض عليهم . ولم يكف الحكام بذلك فقد دبروا فتنة
بين عرب السوازم وبقية القبائل المجاورة لهم جارين بذلك على

(١) نفس المصدر ، ص ١١٦٥

(٢) عرب السوازم من بنى سليم ، وبنى سليم من القبائل العربية التى استقرت فى مصر فى
العصر الفاطمى ، وقد سبق الإشارة الى ذلك فى صفة ، ثم انتقلت من مصر مع هجرة بنى هلال الى
أفريقية وانتشرت بعد ذلك سليم فى صحراء مصر الغربية وليبيا . ثم حدثت هجرات من ليبيا الى
مصر تحت ضغط الظروف الاقتصادية السيئة . ومن القبائل التى كانت من ليبيا الى مصر عرب السوازم
وفى معظم قبائل العرب ان (السوازم : بطن من ليهذ من سليم بن منصور من العناتمة . كانت
مساكنهم بلاد بركة) (مصر كحاله ، هجوم قبائل العرب ، ص ٢٠٤ ، ص ٥٦٤)

ماجرى عليه حكام الممالك واستطاعوا بتلك الاساليب أن يقبضوا على مشايخ عرب السوالم^(١) ويستبيحوا ممتلكاتهم .

ويؤكد ابن اياس أنه لولا أن عرب السوالم أخذوا بالحملة (لما قدروا عليهم أبدا)^(٢) والواقع أن العرب لم يتمكن منهم أعداؤهم الا بالخدعة وبث الوقعة بينهم . وقد حدث ذلك مرة عند قيام ابن الاحدب بثورته في الصعيد في عهد الصالح صلاح الدين وقد تمكن الممالك من النجس بين عرب عرك وعرب بنى هلال . وبذلك نجح الممالك في ايقاع الهزيمة بالعرب . ثم قامت ثورة عرب السوالم بعد ذلك الاعتداء الذي وقع على مشايخهم واسقط في ايدي الحكام فان نائب السلطان عندما (قدمت الاخبار من الشرقية بأن عربان السوالم لما حصلت لهم تلك الكسرة توجهوا الى الصالحية ونهبوا ما فيها فاحرقوها مما حولها من الضماع وحصل منهم الضرر الشامل)^(٣) .

يرجع ابن اياس سبب هذه الثورات الى سوء تدبير كاشف الشرقية الذي استعجل بقتل مشايخ عربان السوالم^(٤) .

(١) ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ج ٩ ، ص ١٢٨٢

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٨٣

(٣) ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ج ٩ ، ص ١١٨٣

(٤) نفس المصدر ، ص ١١٨٣

كما يعزل ثورات العرب ويبرزها بالمواقف المتخبطة للحكام وهي
مواقف تتسم بصفة الاستعجال وقصر النظر^(١) وكان من بين من
وقع عليهم الاعتقال أيضا في ثورة السوالم قبيلة العائد وكان قد قدم
من فلسطين مع بعض العرب ونزل في ضيافة عرب السوالم ونسب
الى شيخ عرب العائد معاونته للسوالم^(٢) وثار عرب الشرقية
وحاصروا الحاكم بها وثار عرب العائد أيضا ولما أحس نائب
السلطان بخطورة ماوقع وان سياسة العنف ولدت العنف وان النتيجة
وقوع الضرر الشامل وانتشار الفوضى في البلاد عدل عن تلك
السياسة وارسل الى كاشف الشرقية يأمره بالافراج عن جميع
المعتقلين العرب حفظا للأمن في البلاد^(٣) كما خلع على أخى نجم
واستقر به شيخ العائد عوضا عن أخيه نجم^(٤) وفعل نائب السلطان
مثل ذلك مع عرب السوالم فعين عليهم مشايخهم محاولا بذلك
استمالتهم . وقد لهدت الفتنة في البلاد وساد الهدوء مرة أخرى^(٥)

(١) نفسه ص ١١٨٤

(٢) نفسه

(٣) نفسه

(٤) نفسه

(٥) نفسها

٣٠٠٠ - عرب مصر والشام بين التأييد المعارضة لنائب السلطان

فى نهاية عام ٩٢٦ (١٥٢٠) ظهرت الثورات العربية من جديد فى الشرقية وبعض مناطق أخرى . وكان جان بردى الغزالى نائب الشام قد أعلن استقلاله بالشام وانضم اليه جماعة من عرب جبل نابلس وبنى عطاء وبنى عطية وطوائف عربية أخرى كما انضم اليهم الأكراد . ومن مصر انضم عرب السرازم الى بنى عطاء وبنى عطية .

وفى بداية عام ٩٢٧ (١٥٢١) وردت الاخبار بتحريك العرب المناصرين لنائب الشام ووصولهم الى قطيا متجهين الى الصالحية . ولم يتمكن من صددهم طربايى بن قراجا شيخ عربان جبل نابلس وكان نائب السلطان قد استماله الى صفه وطلب منه منع جان بردى من دخول مصر . ولما أرسل خاير بك نائب السلطان حملة عسكرية من العثمانيين لمواجهة تحالف القبائل العربية فى مصر والشام ضده لم تأت الحملة بفائدة وعانت جنودها فسادا فى تلك البلاد فأعيدت الحملة ثانية الى مصر .^(١)

وظل طريق القوافل بين القاهرة والشام مغلقا نحو أربعة أشهر بسبب الفتنة التى أثارها جان بردى الغزالى ومحاولته دخول مصر . ثم قام جماعة من العربان من «ويدى نائب السلطان بمهاجمة نائب

(١) نسر الصدر ، ص ١٢١٥

الشام ومنعوه من دخول القاهرة وهزموه وأرغموه على الانسحاب إلى الشام^(١). وعلى أثر ذلك أعيد فتح طريق مصر والشام للقوافل. لقد كان نائب السلطان العثماني يدرك الدور الهام الذي يقوم به العرب في استقرار الأحوال في البلاد فكان يعمل دائما على كسب ثقتهم ففي عام ٩٢٨ (١٥٢٢) صدرت الأوامر السلطانية إلى مشايخ العرب بأسمائهم في أنحاء مصر كلها . ومن هؤلاء مشايخ عرب الصعيد وعلى رأسهم الأمير على بن عمر وابن واصل الاحدب أمير هواره ومن مشايخ عرب الوجه البحري أحمد بن بقر أمير جدام شيخ عرب الشرقية وحسام الدين بن بغداد شيخ عرب الغربية واسماعيل بن أنحى الجويلي شيخ عرب البحيرة^(٢) . وبعد ذلك قام نائب السلطان برحلة سياحية في الشرقية والغربية وغيرها من أقاليم الوجه البحري وهناك لقي ترحيبا بحيدا من عرب تلك الأقاليم^(٣) . ثم لم يلبث أن عادت الأمور مري أخرى إلى الاضطراب نتيجة لتغير سياسة الحكام نحو الشعب . وقد علل ابن آيلاس الأسباب التي أدت إلى ذلك مستشهدا بقول القائل :

(١) نفسه ، ص ١٢١٧

(٢) ابن آيلاس ، بستان الزهور ، ج ٩ ، ص ١٢٤٩ - أحمد بن زنبيل الرمالى تاريخ السلطان سليم ، ص ١١٤

(٣) ابن آيلاس بستان الزهور ، ج ٩ ، ص ١٢٥٠ - د. محمود رزق سليم ، الاشراف فائضه الغورى ، ص ١٦٩ .

رعاة الشاة تحمي الذئب عنها : : فكيف اذا الرعاة هي الذئاب^(١)

وقد أصاب هذا المورخ العظيم بهذا الوصف الدقيق . فلم تكن ثورات العرب قط الا نتيجة لجور الحكام على الشعب وقد كان من أكبر نتائج ثورات العرب ومقاومة الممالك لها أن تم الاندماج بين العرب والمصريين . وبينما أصبح الممالك في خمر كان ظلمت ثورات العرب والاندماج العربي مع الشعب المصري علما بارزا على طول الزمن يؤكد عروبة مصر .

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٥٩

الباب الرابع

حياة العرب الاجتماعية والحربية

أولاً: حياة العرب في السلم

(١)

التعمير السلمى وأهم الأنشطة الاقتصادية

١- الزراعة

٢- حراسة الطرق

٣- تربية الخيول والابل والاغنام

٤- التجارة

(٢)

أزياء العرب

(٣)

دور العرب الثقافى من مصر

ثانياً:- حياة العرب فى الحرب

١- التحاق القبائل العربية بالجيوش

٢- نظام القتال عند القبائل العربية فى مصر

٣- الاسلحة التى استخدمها العرب فى الحرب

٤- القاب قادة العرب .

حياة الغرب الاجتماعية والحربية

أولاً:- حياة الغرب في السلم

التعمير السلمى وأهم الأنشطة الاقتصادية

بدأ نشاط العرب الاقتصادى فى مصر عام ١٠٩هـ ، وذلك عندما نقلت قيس الى مصر فى خلافة هشام ونزلت بالحوف الشرقى^(١) . ومن المعروف أن أرض الحوف كانت منطقة عبور للقوافل بين مصر والشام والحجاز ونزلتها القبائل القيسية من بنى عامر وهلال وسليم . ثم نزلت جذام بأرض الفرما واشتغلت بالتجارة^(٢) ولكن عملها تجاوز ذلك الى الزراعة فأصبحت لهم مزارع فى العصر المملوكى .^(٣) ولقد ازدادت اعداد العرب منذ بداية العصر العباسى بعد أن اسقط حقهم فى العطاء فى بداية عصر

(١) لم يكن عصر أحد من قيس قبل ذلك الا من كان قد استقر زمن الفتح من لهم وعدوان وحدث أن وفد سيد الله بن المصعب على هشام فسأله أن ينقل من قيس أهبات الى مصر فاذن له هشام فى الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديارهم الى مصر فقدم بهم ابن المصعب وأنزلهم الحوف الشرعى ووزعهم فيه . وروى عن المصعب بن عدى أنه نزل من قيس بيليس يوت من مصر وبني عامر وهوازن وبني سليم كلهم من البادية وأسروهم ابن المصعب بزراعة الأرض وشراء الخيول وتكاثروا بعضى الزمن حتى أصبحوا بعد وفاة مروان بن عبد ثلاثة آلاف أهل بيت من قيس (الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق ركن حسنت ، بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ٧٦ ، ٧٧ وراجع القريرى ، البيان والامراب ، ص ٦٧) .

(٢) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ص ١٨٣

(٣) القريرى ، البيان ص ٢١

المحتصم العباسى عام ٢١٨ هـ^(١) فانتشروا فى جميع أنحاء مصر^(٢) وتعددت أعمالهم فاشتغلت القبائل التى نزلت مناطق جنوب الصعيد والنوبة بالتعدين^(٣) كما اشتغلت قريش بالزراعة وتربية الماشية.^(٤) وكان بنو هلال وبنو كلاب من ربيعة من بين القبائل العربية التى ظلت تمارس الزراعة حتى عصر المماليك^(٥) كذلك اشتغلت هواره بالزراعة وصناعة السكر^(٦).

١ - الزراعة :

امتد نشاط العرب الزراعى فى العصر موضوع الدراسة الى الاراضى البور والمناطق الصحراوية فأخذوا على عاتقهم اصلاحها بالزراعة والتعمير . فمثلا فأحمد ابن المنير الجذامى وكان من قضاة الاسكندرية فى عهد الملك الكامل محمد كان له الفضل فى تعمير احدى المناطق الخالية المهجورة فحفر فيها بئرا وابتنى بيتا ، ثم حذا

(١) أمر المحتصم بإسقاط من لمى الديوان من العرب بمصر وقطع أعطياتهم فلقد كتبوا بن عبد الله والى مصر ذلك .

(٢) التقرىزى الخطيب ، ج١ ، ص ٨٠ ، ج٢ ، ص ٢٦٦ - سيرة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ص ٢٥١

(٣) اليعقوبى كتاب البلدان ، ص ٢٢٢

(٤) التقرىزى ، البيان ، ص ٤٢

(٥) ابن مفلح ، المعر ، ج١ ، ص ٥

(٦) التقرىزى ، البيان ، ص ٥٨

الناس حذوه وشرعوا في البناء بجواره حتى امثله العمران وصار ذلك
المكان بلدا عامرا^(١)

وهذا مقداد بن شماس أحد أمراء العرب الذين جاز عليهم
السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (فقد صادر ممتلكاته
بالصعيد ثم عفا عنه ورد اليه أمواله وممتلكاته ، وسمح له بالاقامة في
موضع قريب من الاسكندرية) يبذل قصارى جهده لتعمير هذا
الموضع ، فتراه يهتم بزراعة الارض وانشاء المباني واحراء السواقي
واقامة الدواليب.^(٢) كذلك أنشأ الأمير أبو بكر بن الاحدب العركي
بلدة تقع بالقرب من مدينة طما وعمل بها قيسارية بالقرب من
النيل^(٣)

وكان لامراء هواره اقطاعات في الصعيد منها اقطاع الأمير عمر
بن عبد العزيز والأمير علي ابن غريب في مدينة جرجا وتبلغ
مساحته ٣٤٥٦٣ فداناً بلغ ايرادها خمسة عشر ألف ديناراً^(٤)

(١) لم نجد المصادر المكان الذي نزل فيه ابن المنير ولكننا نرجح أنه يقع غربى الاسكندرية في
الموضع الذي تكلم فيه عمر ابن المنير وأنشئ عليه المسجد المعروف باسمه ويذكر الامام الشعرائى أن ابن
المنير هو الذى أمر بحفر البئر والسقى منها على الطريق فى الموضع كانت بحفورة فيه فى زمانه . وقد
ألف الشعرائى كتابه هذا فى عام ٧٥٢ هـ بينما كانت وفاة ابن المنير فى عام ٦٨٣ هـ والمسافة الزمنية
بينهما تزيد على نصف قرن مما يؤكد أن المكان المقصود فى قول الامام الشعرائى هو حصى المنير الذى
يقع به مسجد الكبير (صيد الزهاب الشعرائى ، الطبقات الكبرى ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٧٩

(٣) ابن حلقان الانتصار بواسطة عقد الامصار ، ج ٥ ، قسم ثان ص ٢٤

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧

وبلغت مساحة (قلفاؤ) ثلاثة آلاف وستمائة وستة عشر فداناً كانت ملكيتها مشتركة بين نائب الوجه القبلى وشرف الدين موسى بن الأمير اسماعيل بن مازن أمير هواره ، وقد بلغ إيرادها سبعة آلاف دينار^(١) وترتب على اشتغال العرب بالزراعة . أن كثرت لديهم المحاصيل الوفيرة وتحلى عظم هذه المحاصيل المختزنة فى امراءات فى الاوقات التى تشتد فيها القحط والجماعات بوجه خاص كما حدث فى عهد السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين عام ٥٩٢ هـ عندما اشتدت الازمة بسبب توقف النيل عن الزيادة وقلة المختزن من الغلال مع ارتفاع ثمنه الامر الذى أدى الى اضطراب الاحوال الاقتصادية فى مصر^(٢) .

وبشير المقرئى الى ما كان يعانيه الاهالى من زيادة السعر وتفشى الجوع والموت حتى صارت الاقفاص التى يحمل فيها الطعام يحمل فيها الاموات ولا يقدر على التعرش الا بالنوبة ، وامتدت الايدى الى خطف الواح الخبز .. ويضرب من ينهب ويشج رأسه ويسأل دمه ولا ينتهى ولا يرمى ما فى يده مما خطفه^(٣) .

(١) ابن دقان ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٢٧ ، ٢٨ (فصل الاموال الالهية)

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ١٣٠

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ١٣٠

ثم يذكر المقرئى أن الشريف بن ثعلب وكان من أغنياء عرب الصعيد (وبالذات بقرية دروت)^(١) كان يرسل القمح فى شحنات متتابعة على مراكبه يبيعها فى شونه للناس مشاركة منه فى تخفيف حدة الازمة^(٢) ولهذا السبب لم يتردد السلطان فى مكافأة ابن ثعلب فصدر الامر بالتوقيع له بخبز مبلغه فى السنة ستون ألف دينار . كما دفع له كوس^(٣) وعلم بمعنى أنه أصبح ينعم برتبة أمير طبلخاناه تدق كوساتها على يابه .

ويذكر القلقشندي أن غلاء وقع فى العصر المملوكى ، فجعل الأمير العربى زين الدولة طريف بن مكنون من بنى سويد من حدام وكان من أكرم العرب يستضيف كل يوم اثنى عشر ألفا وقدم لهم الطعام وكان يهشم لهم الشريد فى المراكب^(٤) كذلك كان مهيا بن علوان من هلبا بن مالك من سويد من حدام جوادا كريما ويروى المقرئى أنه قدم عليه ضيوف أثناء فصل الشتاء ولم يكن لديه وقود لاعداد الطعام فأوقد أحمالا من بر كانت عنده .^(٥)

(١) دروت إحدى قرى الصعيد وتعرف أيضا باسم ديروطر بانقوت معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٧٠

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقرئى ، السلك ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، ١٣٢

(٤) المقرئى البيان ، ص ١٥ - القلقشندي ، صبح الاحشى ج ١ ، ص ٧٠ - أحمد لطفي السيد قبائل العرب فى مصر ، ص ٤٢

(٥) المقرئى ، البيان ، ص ٢٥

٢- حراسة الطرق:

اشتغل العرب من البدو والحضر فى الجاهلية والاسلام باعمال حراسة القوافل فكان دور البدو حراسة القوافل التى تمر بأراضيهم مقابل مبلغ من المال يدفع لهم أما العرب المتحضرين فكانوا يقومون بتأمين المتاجر وحراسة الاموال لقاء جعل معلوم كما كانوا يقومون بحراسة القوافل^(١) . وفى مصر اشتغل العرب وخاصة قبيلة جذام - وكان لهم بطون كثيرة بمصر - بحراسة الطرق وحماية القوافل التى تعبر الصحارى من اللصوص وقطاع الطرق ، كما اشتغلوا مشايخ وخبراء فى البلاد ، ومن بطون جذام :-

- بنو عقبة وكانوا يتولون حراسة المنطقة ما بين مصر والحجاز الى حدود غزة^(٢) - العائد وكانوا يتولون حراسة الطريق ما بين القاهرة الى العقبة^(٣) - بنو صيرة وكانوا يتولون حراسة منطقة سرياقوس احدى ضواحي القاهرة^(٤) - بنو كلاب وهم من بني القبائل القيسية من بني عامر بن صعصعة قدموا الى مصر فى عام ١٠٩ هـ وسكنوا بلبس^(٥) . - ويذكر المقرئى ان جماعة من بني

(١) عبد الرؤوف صون ، الفن الحربى لدى صدر الاسلام ، ط القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٢ ، ٢٥

(٢) ثلاث الجنان ، ميكرويلهم رقم ٢٨١ .

(٣) المقرئى ، البيان ، ص ١٩ - القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٢٢٢

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣ ، ٧٦٨

(٥) المقرئى ، البيان ، ص ٦٨

كلاب نزلت اقليم الفيوم^(١) - ويذكر أبو عثمان النابلسي ان
عرب الفيوم كانوا يتولون حراسة أهلها ولهم الاجرة على ذلك^(٢)
ولم يقتصر دور العرب على أعمال الحراسة والخفر فقط وانما كانوا
يكلفون أحيانا باتخاذ الاجراءات الكفيلة برد ما اغتصب من الاموال
أو الممتلكات بسبب اعتداءات قطاع الطرق من البدو المفسدين -^(٣)
أو تسليمهم الى السلطان لتوقيع العقوبات عليهم لردعهم^(٤) .

وفي عهد السلطان الغوري أغدق ناظر الخاص الحراس العرب
بالحدايا من الملابس العربية مما كان له نتائج باهرة في استتباب
الامن^(٥) وفي العصر العثماني تلقى العرب المنح والحدايا القيمة من
السلطان. ويذكر ابن اياس (ان الخنكار ابن عثمان ارسل تقدمه
حافلة الى الامير على بن عمر شيخ عربان الصعيد ، وأرسل اليه
قفطان تماسيح باستمراره على عادته ورسم بأن التقدمة والقفطانات
تتوجه الى صحبة قاصده الى الصعيد فتضاعفت عظمة الامير على ايون
عمر بسبب ذلك)^(٦)

(١) نفس المصدر ، ص ٢٨

(٢) أبو عثمان النابلسي ، تاريخ الفيوم ، وبلاطه ، ص ٢٢

(٣) ابن الجلس ، بلاتع الزهور ، ص ٩ ، ص ٩٢٥

(٤) نفس المصدر ، ص ٩٩١ ، ١١٩٣

(٥) نفسه ، ص ١٥٥

(٦) نفسه ، ص ١١٦٠

وكان للعرب دورهم الهام فى ارشاد القوافل^(١) والوافدين الى مصر لزيارة معالمها ومرافقتهم الى قرب العاصمة ولكن لا يتسنى لهم دخولها خوفا من مصادرة مواشيهم^(٢) ومن الجدير بالذكر بهذه المناسبة أن شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية شهد للعرب عامة وبنى عدى خاصة بالصالح والتقوى وبأنهم أهل قتال مجاهدون^(٣) وأجاز لعرب البادية قيامهم بتحصيل مبلغ من المال من القوافل المارة عبر الصحراء نظير حمايتهم لتلك القوافل بما فيها ومن فيها^(٤)

٣- تربية الخيول والابل والاغنام :

أشتهر العرب فى الجاهلية والاسلام بمهارتهم فى ركوب الخيل والفروسية وأسلوب الكر والفر الذى اجادوه فى المعارك ولذلك اهتموا باقتناء الخيول وتربيتها وتعلموا الخيل بالعناية والرعاية واهتموا بأصالتها وحرصوا على تتبع أنسابها^(٥) ولذلك الفت الكتب فى نسب الخيل^(٦). وكان للعرب عناية فائقة باقتناء الخيل العتاق دون غيرها وهى التى ترجع الى أصول عربية خالصة بمعنى أن الفرس العتيق معروف النسب وسمى بذلك لعنقه من العيوب وسلامته من

(١) المقرئ ، البيان ، ص ٢٦

(٢) د. سعد عبد الفتاح عاشور المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٥٤

(٣) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى ، ط القاهرة عام ١٣٣٧ هـ ، ص ٢٧٧

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٦

(٥) كمال الدين الدهرى ، حجة الحيوان ، ط القاهرة ١٨٧٥ م ، ج ٢ ، ص ٢٢٩

(٦) ابن الكلبي ، انساب لمحول الخيل تحقيق أحمد زكى باشا القاهرة ١٩٤٩

الطعن فيه بالامور المنقضة.. ذكر الدميرى أن من الخيل مالا يسول ولا يرث مادام عليه رأكبه.^(١)

وفى العصر الاسلامى زاد اهتمام العرب بالخيل وكان لفرسان العرب دورهم فى المعارك وعليهم كان الاعتماد فى القتال وكان الفرس الوسيلة الرئيسية فى قتال العدو والنيل منه ^(٢) ومن هنا ورد اسم الخيل فى القرآن الكريم مرتبطا بالجهاد فى قوله تعالى : (واعبدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ^(٣) . وفى الحديث ان (الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة). ^(٤) وبلغ من عناية المسلمين بالخيل انهم جعلوا للفرس نصيب صاحبه فكان للفارس سهم وسهمين لفرسه ^(٥) كما عنى المسلمون بتدريب خيولهم بالجري واعدادها لحاجتها للطلب والكر . وقد حضر النبى صلى الله عليه وسلم سباقا بين الخيل وكان بينها فرس ، لايى بكر الصديق فاز أبو بكر الصديق فى هذا السباق . ^(٦) وعندما نتبع تحركات العرب فى مصر زمن الفتوحات

(١) نفس المصدر.

(٢) ابن خلدون القلعة ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

(٣) سورة الانفال الآية ٦٠

(٤) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البويرى ، نهاية الارب فى فنون الادب ، ج١ ، ص

٣٤٧

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٧٦ - عبد الرؤف مون ، الفن الحربى ص ١٢٢

(٦) البويرى ، نهاية الارب ، ج١ ، ص ٣٧٠

نرى بوضوح مدى اهتمام العرب بالانتقال من الحاضرة الى (مرتج)
الجنند) سنويا فاذا حل الربيع واللبن كتب لكل قوم بربرهم يطلقون
خيولهم فى حقول البرسيم ترعى حتى تسمن^(١) . وكان عمرو بن
العاص يخاطب جنوده فى هذه المناسبة ويوصيهم بالاهتمام بخيلهم
بارباعها وتسمينها وصونها واكرامها لانها وقاية لهم من أعدائهم
وبها ينالون مغائهم ويحملون أثقالهم وكانوا يدربون خيولهم عرا
لصحراء المجاورة لمرتبعهم . (حيث كان يثبها لهم الصيد وتأديب
خيولهم وتدريبها)^(٢) ومن العرب من بالغ فى العناية بحصانه الى
الغاية . فلما عوتب فى ذلك قال ان الحصان يدعوا الله كل سحر
أن يكون عندى أحب الى من ولدى وأهلى ومالى^(٣) .

وظل العرب فى مصر يهتمون بخيلهم حتى العصر المملوكى .
ونج عن هذا الاهتمام باقتناء الخيول وترقيتها أن حظى العرب
بهبات السلاطين وعطايهم أمثال الظاهر بيبرس ومحمد بن قلاوون
ففى رحلة للسلاطان بيبرس الى الاسكندرية عرج الى بلدة تروجه^(٤)
وهناك حضر حفلا لسباق الخيل بين عرب تروجه وكان قد أمر
باقامته ، فاجتمع ألف فارس من عرب تروجه وانضم اليهم جملة من

(١) عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٤٠

(٢) د. حمد الله العزى ، القبائل العربية فى مصر ص ٤٦

(٣) عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٤٣

(٤) قرية بالقرب من الاسكندرية تتبع للهم البحرية (بن طلكان ، وهبات الامهات ص ١٠٠ ،
ص ١٢ القرينى ، السلوك ، ص ١٠٢ ، ص ٤٩٨ ، حاشى ٣

خيل العسكر وحدد السلطان مسافة السباق . ووقف فى مكان مرتفع يراقب فرسان السباق . ثم حصل كل متسابق على نصيبه من الهدايا وقوامها الثياب الاطلسى والقبابى^(١) وفيها المال^(٢) .

وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون - وكان شغوفًا بالخيل نعم كل من كان يقتنى الخيل من العرب بعظيم رعايته . فكان ابن قلاوون يكرمهم ويبدل لهم الرغائب فى خيولهم وكان يست العيون عند طوائف العرب ليصل الى بغيته مما عندهم من الخيول الاصيله . وكان العربى يجد فى البحث عند البدو عن الخيل الفرس السابق أو الاصيل . ويذكر له أصله لعله حدود حتى يأخذها بالثمن الذى يحدده صاحبه ، ويذكر ابن تغرى بردى أنه بذلك تمكنت العريان من السلطان ونالوا المنزلة العظيمة والسعادات الكثيرة^(٣) . ومما يدل على عناية العرب باقتناء الخيل أن حاكم البحيرة صادر بسبب معارك ابن الاحدب ستمائة وأربعين فرسا كان يمتلكها عرب البحيرة وصادروا من عرب الصعيد ألف وثلاثمائة فرس^(٤) . ويستدل من المصادرات التى تعرضت لها ممتلكات العرب فى عصر المماليك على عظم ثروة العرب الحيوانية فى هذا العصر ، والامثلة

(١) القبابى فى الاصل القميمس أو الدرع (عبد الرؤف صون ، الفن الحربى ، ص ٥٥٢ ، القاهرة ١٣٠٦هـ .

(٢) التقريرى السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٥٠٠ .

(٣) ابن تغرى بردى المنعم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٦٧ .

(٤) التقريرى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٢٥٠ .

على ذلك كثيرة . من قبيل المثال نذكر قائمة لممتلكات صودرت في عام ٧٠١ هـ وأخرى في عام ٧٥٤ هـ . ففي المصادرة الأولى بلغ عددها مائة ألف رأس من الخيل والجمال والأغنام^(١) وذلك خارجا عما أكل وذبح ونهب^(٢) وقائمة المصادرة الثانية تضم من الدواب المصادرة ما يلي : ألفا وثلاثمائة فرس ألفا ، وخمسمائة جمل سبعمائة حمار وأغناما كثيرة (سوى مائة العبيد وأكلوه)^(٣) هذا قليل من كثير كان يمتلكه العرب في مصر .

٤ - التجارة :

كان أول من اشتغل بالتجارة من القبائل العربية في مصر حذام وقيس وكانت حذام تنزل في الفرما التي تعتبر المعبر الرئيسي للقوافل بين مصر والشام^(٤) فنشطت تجارة النوى والشعير والعلف وكانوا يشتغلون بتجارة التمر الذي يجمعونه من غابات النخيل الممتدة في ظاهر المدينة ويصدرونه الى سائر الأفاق^(٥) .

(١) الجبل : استخدم العرب الجمال في نقل الخيام والامثلة الثيلة والآلات الحصار كما كانوا يحملون عليها نساوهم وأطفالهم ويجعلونها حلف صلب القاتلين شحنا لمهمهم (جدد القرون صون للفن العربي ، ص ١٧٧) .

(٢) زوسين ، نصوص عربية من دولة المماليك بمصر ، ص ١٠٧ .

(٣) القري ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ ، ص ٩١٣ .

(٤) بتر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٣٣ ، ص ١٨٧ - محمود هكوش ، مصر في عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٣٧ .

(٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ص ١٨٣ .

كذلك نسب الى قبائل حذام وثعلبة تصدير الغلال الى الفرنج^(١)
ومن الحروب الصليبية على الرغم من أن بعض المصادر تنفى عن
حذام وثعلبة هذا الدور^(٢) . الا أن مانسب اليهم فى حد ذاته يشير
بوضوح الى أن حذاما وثعلبة كانتا تشغلان بالتجارة الخارجية .

أما قبائل قيس فقد اشتغلت منذ قدومها الى مصر^(٣) ونزولها
بأرض الخوف الشرقى عام ١٠٩ هـ زمن هشام بن عبد الملك
بالزراعة وبترية الخيول وبيعها وجنوا من وراء ذلك أرباحا كثيرة ،
دفعت بالكثير من العائلات القيسية الى الهجرة من الحجاز الى
مصر^(٤) وكان كثير من أمراء العرب ومشايخهم - نتيجة لنشاطهم
التجارى والزراعى وما الى ذلك - على درجة كبيرة من الثراء الى
الحد الذى أطمع فيهم بعض الوزراء فى العصر المملوكى أمثال النشو
وزير السلطان محمد بن قلاوون كما تعرضت ثروات العرب
للاستنزاف نتيجة معارضتهم للحكم المملوكى . ورفعوا نسبة
مايفرض عليهم من الغرامات أو الهدايا . فكان عليهم أن يقدموا بما

(١) القرئزى اليان ص ٦ .

(٢) الكندى ، كتاب الولاة ، وكتار القضاة ، ص ٧٧ ويذكر الكندى أن صيد الله بن الحبيب
أمر القيسية بالزراعة وأنه صرف اليهم أموال المنيكة من العصور فاشدوا بها ابلا . منا أمرهم بالهدوء
الخيول ، فأخذ الرجل يشوى المهر فلا يمكث عنده الا شهرا حتى يركب دون أن يكلفهم ذلك شيئا
لمهمة مرعاهم وكان ذلك من أسباب استناب مزيد من القيسية الى أرض الخوف (ص ٧٧)

(٣) نس المصنر - القرئزى ، المخطوط ، ١-٢ ، ص ٨٠ - القرئزى ، اليان ، ص ٦٧

عندهم من الخيل والابل والحوانات النافذة الى السلطان^(١)
كهدايا أو غرامات.

(٢)

أزياء العرب

لم يكن للناس في العصرين الايوبي والملوكي حرية ارتداء
ما يرغبون من الملابس فقد كان للسلطان حق التدخل في تحديد الزي
وقصر ارتداء أنواع معينة من الثياب على جماعة معينة من الناس .

ففي عهد السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر كتب
الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين
يعترفون بخلافته أن يشربوا كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها وكان على
من يرغب في الانتظام في سلك طائفة الفتوة ورماة البندق التوجه
الى بغداد حتى يلبسه الخليفة السراويل بنفسه . يقول المقرئ
(فبطلت الفتوة في البلاد جميعها الا من لبس سراويلها منه)^(٢) وكان
كبار رجال الدولة وأمرائها ورجال القضاء والفقهاء يترددون
السراويل^(٣) . ولم يكن ارتداء السراويل قاصرا على الرجال دون
النساء بل كانت النساء ترتدين السراويل والقمصان . يذكر
المقرئ أن شجرة الدر عثر على جثتها مطروحة في حفرة وعليها

(١) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

(٢) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٣) نفس المصدر

قميص وسروال^(١) . وكان السروال بالنسبة للمرأة من الملابس الخارجية ومن المعروف ان النساء كن يمكنهن فى بيوتهن بلون سراويل^(٢) وكان العرب يلبسون القمصان ذات الاكمام الواسعة . ولبس فرسان العرب فى مصر الثياب الاطلسى والقبابى وفى احدى حفلات سباق الخيل فى اقليم دمنهور قدم السلطان بيبرس فى نهاية الحقل الجوائز والهدايا الثمينة للمتسابقين وكانوا معات من فرسان العرب . وكان فى جملة ما اهداه السلطان لهؤلاء الفرسان العرب ملابس من الثياب الاطلسى والقبابى .^(٣) وفى عهد السلطان محمد بن قلاوون لبس العرب الحرير الاطلسى والمعدنى بالطرز الزركش والشاشات المرقومة ولبسوا الخلع الباهلى والاسكتندرى^(٤) المطرز بالذهب . وصاغ السلطان لنسائهم العناتر بالاكتر الذهب والاساور المرصعة بالجواهر واللؤلؤ وبعث لهم بالقماش السكتندرى وعمل لهم البراقع الزركش ولم يكن لبسهم قبل ذلك الا الخشن من الثياب على عادة العرب^(٥)

(١) نفسه

(٢) Ahmad ABD ARRAZIK: La femme au temps de mamlouks en Egypte. (١)
Le Cairo, 1973.P.2/2.

(٣) نفسه القريزى ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٠٠

(٤) الأرجح أن هذه التسمية نسبة الى اسم المنهة التى صنع بها هذا النسيج يذكر القريزى ان الثياب المسووجة بالاسكتندرية لا تلبس لها . وتعمل الى اقطار الارض (الخطوط ، ج ١ ، ص ١٦٣)

(٥) ابن تفرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٦٦

أما اشراف العرب الذين يتسبون الى بيت الرسول فقد لقوا
ترحيبا كبيرا من الاشراف شعبان الذى أمرهم بلبس عمام بها
شطافات خضر تميزا لهم عن غيرهم من سائر القوم وتعظيما لقدرهم
ومما قيل فى هذه المناسبة :

للشيخ شهاب الدين بن جابر الاندلسي:

جعلوا لأبناء الرسول علامة :: ان العلامة شأن من لم بشهر
نور النبوة فى كريم وجههمهم :: يغنى الشريف عن الطراز
الاخضر^(١)

وللشيخ شمس الدين بن المزين

أطراف تيجان أتت من سندس :: خضر كأعلام على الاشراف
والاشراف السلطان خصصهم بها :: شرقا لتعرفهم من
الاطراف^(٢) وفى عهد الظاهر برقوق كان حاكم القاهرة يعث
بعماليكه يسيرون فى الاسواق يراقبون النساء فاذا وجلوا امرأة
ترتدى قميصا ذا أكمام واسعة تزيد عن الخد المسموح به قطعوا لها

(١) ابن ابيس ، بئاع الزهور ، ج٢ ، ص ١٩٥

(٢) ابن ابيس ، بئاع الزهور ، ج٢ ، ص ١٩٥

(٣) Ahmad Abd Arrazik : La femme au temps de mamelouks en Egypte, Le (٢)
cairo.1973 P.212

أكمام القميص وكثيراً ما عوقبت النساء اللاتي كن يرتدين القمصان التي كانت تسمى (بهتلة) والتي كانت أكثر شيوعاً بين النساء^(١)

وكان بعض سلاطين المماليك أمثال محمد بن قلاوون يعزبون بزي العرب ، ويذكر المقرئ أن السلطان محمد بن قلاوون ظهر في إحدى رحلاته إلى الحجاز وهو راكب ناقه وعليه بثت^(٢) من ملابس العرب بلثام ويده حربه^(٣) وكان فرسان العرب يتلثمون في كثير من الأحيان فأحمد بن زنبيل الرمالي يذكر أن حان بردى الغزالي بعد أن شق عصا الطاعة وانضم إلى العثمانيين وحارب طومان باي ، أراد أن يخدعه فتزياً بزي فارس عربي وتلثم مثلهم حتى صار من يراه يظن أنه فارس عربي ووقف في ميدان القتال يطلب من المماليك المبارزة على الرغم من المظهر العربي الذي خدع به حان بردى الغزالي الجميع فان السلطان طومان باي أدرك أن لهجته غير عربية خالصة ولكنها بين العربية والرومية وطلب منه أن يكشف عن حقيقته . عندئذ اضطر الفارس المزيف إلى أن يكشف عن شخصيته الحقيقية^(٤) وهذه الواقعة تدل على أن العرب في مصر عرفوا اللثام

(١) البخت : العبائة

(٢) المقرئ السلوك ، ج ٢ ، ص ١٢٢

(٣) أحمد بن زنبيل الرمالي ، تاريخ السلطان سليم ، ص ٨٥ ، ٨٧

ولبسوه . ومن ملابس العرب التي عرفوا بها أيضا العقال والكوفية
والعباءة^(١) وهي خاصة بهم .

(٣)

دور العرب الثقافي في مصر

كان لهجرة قبائل العرب من بني هلال وسليم من مصر الى
أفريقية في العصر الفاطمي فضل تعريب أفريقية والمغرب كذلك
كان لعلماء العرب في مصر في العصر الأيوبي فضل نشر علوم اللغة
العربية وثقافتها في البلاد

وفي العصر المملوكي امتدت جهود علماء مصر من العرب الى
خارجها وتشعبت الى مناطق متعددة من البلاد العربية فأدركت
أفريقية والمغرب . ففي بداية العصر الأيوبي عمل الناصر صلاح
الدين على إحياء المذهب السني فأنشأ المدارس وعين لها المدرسين^(٢)
وكان ذلك سببا في ازدياد النشاط العلمي في أنحاء البلاد ، وبلغ
هذا النشاط ذروته في العصر المملوكي فكثر عدد المدارس منذ عهد

(١) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٢٣ - د. أحمد الغريسي شكوب أرسلان جامعة
العروبة والإسلام من ١٠٠ ، ٧ المجلة ١٩٦٣

(٢) ابن أبيس ، بفتح الزعرور ، ج ٦ ، ص ٥٨ - راجع د. أحمد فكري ، مساحد القاهرة
ومعارسها في العصر الأيوبي ط . القاهرة عام ١٩٦٩ - وانظر حاستون لميث ، القاهرة مدينة الفن
والعمارة ترجمة الدكتور مصطفى العبادي ، بيروت ١٩٦٨ ص ٨٩ وما بعدها

السلطان يدرس حتى عهد السلطان الغورى^(١) وخصص لهذه المدارس الاساتذة لتدريس العلوم الدينية . وتحفيظ القرآن . ومن أمثلة هذه المدارس : مدرسة السلطان حسن التى أنفق عليها مبالغ طائلة فجاء بناؤها شامخا ليس له مثل فى الشرق كله^(٢) ثم عين لها المدرسون وخصص شيخ لكل مذهب من المذاهب الاربعة يدرسون لمائة من الطلبة غير مدرس للحديث ومقرئ لقراءة الحديث ومفتى من العلماء وكان للمدرسة مراقبين للحضور والانصراف وألحق بها مكتبة وخصص لها أمين كما ألحق بها مكتبان لتحفيظ القرآن يقصدها أبناء الايتام وقرر لهم الكسوة والطعام وكان يصرف لهم ولأساتذتهم مكافآت عند اتمام حفظ القرآن^(٣) وكان يوقع الكشف الطبى على من بالمدرسة من الموظفين والطلبة اثنان من الاطباء احدهما باطنى والآخر للعيون^(٤)

ويصف ابن خلدون الدور الحضارى العظيم الذى تقوم به مصر فى العصر المملوكى فيقول (ولاأوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وايران الاسلام وينبوع العلم والصنائع)^(٥) . وكان

(١) د. سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، ص ١٤٢ ط. القاهرة ١٩٦٣

(٢) د. حسن عبد الرهاب ، جامع السلطان حسن ، المكتبة الثقافية رقم ٥٦ ط. القاهرة ص ٦٢ ، ص ٩

(٣) نفس المرجع ص ٢٢

(٤) نفسه.

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٤٥

للعرب فى مصر اهتمام بعلوم الدين واللغة العربية بجانب اهتمامهم
بغيرها من العلوم والفنون ، وقد نبغوا فى ذلك واتسع نشاطهم
العلمى وتشجع منها ويعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله: (ووصل اليها
بالمغرب هذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين بن
هشام من علمائها استوفى فيه احكام الاعراب بحملة ومفصلة وتكلم
على الحروف والمفردات والجمل وحذف ما فى الصناعة المتكررة فى
أكثر أبوابها وسماه بالمختصر فى الاعراب وأشار الى نكت اعراب
القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرها فوقفنا
منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته
منها الى أن يقول فأتى من ذلك شئ عجيب دال على قوة ملكه
واطلاعه^(١) .

ومن العلماء العرب الذين اسهموا بنصيب وافر فى الحياة العلمية
والدينية والاجتماعية فى مصر الايوبية العالم الصوفى عمر بن
الفارض ٦٣٢/٥٧٦ (١٢٣٤/١١٨٠) وينسب الى بنى سعد يقول
عنه ابن اياس (وكان الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رضى الله
عنه فريد عصره فى علم التصوف ، وكان له نظم فائق فى معانى
الغراميات لم يسبق اليه)^(٢) ومن أهم شعراء العرب فى عصر
المماليك: ١- شرف الدين محمد البوصيرى صاحب قصيدة السردة

(١) نفس المصدر ، ص ٥٤٧

(٢) ابن اياس ، بللغ الزهراء ، ص ٦٦

فى مدح الرسول ﷺ نال الحظوة من السلطان الظاهر بيبرس فولاه
عدة مناصب هامة ^(١) ومن طريف ما يروى عن شرف الدين أنه تنياً
للسلطان الاشرف خليل بأخذ عكا وكان قبل مسيرة السلطان
لحصارها عام ٦٨٩هـ فانشد شرف الدين جماعة من أصحابه بهذه
الآيات :

قد أخذ المسلمون عكا :: واشبعوا الكافرين صكا

وساق سلطانتا اليهم :: خيلا تذك الجيال دكا

واقسم الترك مند سارت :: لن يتركوا للفرنج ملكا

وقد تحقق ما أخبر به شرف الدين فأخذ المسلمون عكا ^(٢)

٢- جمال الدين بن محمد بن نباته الفارقى المصرى الجلامى
٧٦٨/٦٨٦هـ يقول عنه ابن اياس أنه كان يخترع فى شعره المعنى
الغريب الذى لم يسبق اليه فىأخذه عنه آخر وينسبه الى نفسه ^(٣).

٣- القيم خليف العيارى : كان زجالا يسجل الاحداث
ويكتب فيها القصائد الطوال وكان من عادته أنه يحتم القصيدة
الزجلية بما يدل على انتشار صيته وعلو مكانته فى مصر والشام

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ط القاهرة ١٩٦٣ ص ١٤٤

(٢) ابن اياس ، بهائم الزهور ، ج١ ، ص ١٠٤، ١٠٣

(٣) نفس المصدر، ج٢ ، ص ١٩٠

عاصر الاشرف شعبان وابنه المنصور على وقد أوردت نماذج من شعره فى هذا الباب الرابع فى وصفه التهكمى لاسلحة العرب^(١) .

٤- شهاب الدين أحمد بن محمد بن خضر بن على السلمى المنصورى ٨٨٧:٨٢٣ هـ وكان شاعرا رقيقا ومنظما جيدا ، وصفوا انتاجه الادبى فقالوا:

أخبرتنا ملوك القوافى :: فى بديع المنظوم والمنثور
ما وجدنا خليفة فى المعانى ملكا فى البيان كالمنصور
وقال عنه ابن اياس: وكان شهاب الدين هذا جميل الهيئة نير
الوجه متعففا عن الناس ولما بلغ خمسة وسبعين سنة من العمر قال:
بلغت من دنياى سنا به :: وقعت فى السبعين والخمس
فالحمد لله الذى متعنى بالسسن والضرس
وبلغ الثمانين من العمر قال:

نحو الثمانين من العمر قد :: قطعها مثل عقود الجمان
وما أحوجت يوما بمنى الى عصا ولا سمعى الى ترجمان^(٢) . يرى
ابن اياس أن أحد الشعراء تعرض فى عهد السلطان الغورى لنقد
وكيل بيت المال . وألقى فيه قصيدة كلها هجاء لاذع فكان مصير

(١) نفسه ، ص ٢٠٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧

(٢) ابن اياس ، بنائع الزمر ، ج ٥ ، ص ٥١١

الشاعر توقيع العقاب عليه لولا تدخل جماعة كثيرة من الاهالى حالوا بين القاضى وبين هذا الشاعر وأرغموا القاضى على اصدار عفو عنه^(١) . عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى العلوى الهاشمى ولد بقلقشندة عام ٨٩٨هـ . درس كتب الدين واللغة وحفظ كتاب المنهاج النبوى والفية ابن مالك وكثير غيرها وتعلم على يد أساتذة كان آخرهم الشيخ على الخواص ، فكان أول الطريق على التصوف . بدأ مجالس العلم فى مدرسة أم خوند وفى هذه المدرسة ذاع صيته وانتشر فكره حتى صار زعيما شعبيا له كلمة وصوته مسموع^(٢) . ألف كتابا فى شتى أنواع العلوم فى الفقه والتصوف والطب واللغة^(٣) ومما روى عنه أنه كان صوفيا من الطراز الاول وكان كاتبا بارزا أصيلا فى الفقه وأصوله ومصلحا لا يكساد الاسلام يعرف له نظير . بلغت كتبه السبعين علما من بينها أربعة وعشرين كتابا تحير ابتكارا محضا لم يسبق اليه^(٤) .

ومن الفنون التى أدخلها العرب فى مصر السير الشعبية ومن أمثلة ذلك سيرة عنزة بن شداد وزمنها ممتدا منذ العصر الجاهلى حتى بداية عصر النبوة وتعرض لمشكلة المساواة بين الاجناس وذات

(١) نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٧٥٤

(٢) محمود أحمد هاشم ، الامام الشعرانى ، ط القاهرة سنة ١٩٧١ ، ص ٣٧

(٣) نفس المرجع ص ٥٠

(٤) نفسه ، ص ٥١

المهمة^(١) وتحتوي في الترتيب الزمني بعد سيرة عنزة وتعرض لدور المرأة العربية في المجتمع بعد ظهور الاسلام حتى عهد الخليفة الواصل في أواخر الدولة العباسية^(٢) وسيرة الظاهر بيبرس وتعرض لدور السلطان صلاح الدين ومن بعده السلطان الظاهر بيبرس في قيادة الجيوش وإدارة الحكم ووحدة الشعب العربي في مصر والشام ودور الفارس العربي والكر والفر في الحروب ضد الصليبيين والتتار والمغول في مصر والشام . كتبت هذه السيرة للدفاع عن دور الشعب العربي في الدفاع عن وطنه ضد الأعداء وتربط هذه السيرة الشعبية بحيث نجد أن سيرة عنزة وسيرة ذات المهمة وسيرة الظاهر بيبرس تدور حوادثها جميعها حول صراع الأمة العربية ضد أعدائها من الفرس والروم منذ العصر الجاهلي إلى ظهور الاسلام وبين الأمة العربية والفرنج أو المغول في عصر دولتي الأيوبيين والمماليك^(٣)

هذا الترابط في السيرة الشعبية يؤكد الصلة التاريخية بين سيرة عنزة بن شداد وغيرها بسيرة الظاهر بيبرس في مصر ويعطى دلالة واضحة لدور العرب الثقافي في كتابة السيرة الشعبية في مصر . يقول الدكتور عبد الحميد يونس أن الوطنية والقومية لاتعادلان في شيء تعادلهما في ملاحم الأدب الشعبي وقصص الطويلة التي تحكي

(١) ذات المهمة : هي غاطمة بنت ملولم ابن الصمصام بن حنبل بن الحارث بن تيملة بنى كلاب العربية (ماروق مورشد ، أخبار على السيرة الشعبية ، ط القاهرة ١٩٦٤ ص ٢٩

(٢) ماروق مورشد ، أخبار على السيرة الشعبية ص ٥٤ .

(٣) ماروق مورشد ، أخبار على السيرة الشعبية ، ص ٦٠ ، ٩٧ .

القروسية ، كما عرفت واستقرت. بتخلاتها وسماتها فى هذه البقعة من العالم والظاهر بينرس هو الشخصية التى احتفل بها الشعب العربى والاسلامى واضافها الى النثل التى استخلصها من تاريخه.^(١)

ثانيا: - حياة العرب فى الحرب

ظل العرب منذ الفتح العربى يمثلون العنصر الرئيسى فى جيش مصر حتى عهد الخليفة المعتصم العباسى الذى أمر كيدر نصر بن عبد الله واليه على مصر باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم فى عام ٢١٨هـ ونتج عن ذلك انتشار العرب فى أنحاء مصر واشتغالهم بالزراعة والتجارة والصناعة^(٢) الا أنه على الرغم من ذلك استمر العنصر العربى ممثلا فى الجيش المصرى ، حتى أن عددهم بلغ فى عهد بن طولون سبعة آلاف^(٣) .

٩ - التحاق القبائل العربية بالجيش:-

كان نظام الجيش منذ الفتح العربى يتم على أساس قبلى بمعنى أن كل قبيلة كان لها راية يقاتل أفرادها تحتها^(٤) وظل تمثيل العرب فى الجيش يتم بنفس النظام القديم ، فكان الالتحاق بالجيش أساسه

(١) د. عبد الحميد بونس ، الظاهر بينرس فى القمصين الشعبى ، ط القاهرة ص ٧ المكتبة الثقافية رقم ٣

(٢) حسنابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السوسنى ، ص ١٠٠ ، ص ٥٢٩ - سيرة الكاشف ، مصر فى عصر الاسلام ص ٧٤ ، ط القاهرة ١٩٤٧

(٣) سيرة الكاشف ، أحمد بن طولون ، ص ١٢٦ ، ط القاهرة ١٩٦٥

(٤) عبد الله العزى ، التباثل العربية فى مصر ، ص ٢٢٨ ، ط القاهرة ١٩٦٧

القبيلة . وقد أورد غرس الدين خليل بن شاهين فى كتابه زينة كشف الممالك أسماء القبائل العربية المقيمة فى جرائد الجيش المملوكى وعدد أفراد كل قبيلة على حدة وقد بلغ عدد جمعهم سبعة وعشرون ألفا مابين فارس وراجل^(١) ذكر منهم عرب حذام والعائل وفزارة ومحارب وهوارة . وبلغ عدد قبائل العرب المقيمة فى الجيش المملوكى فى الاقاليم التابعة لمصر والشام - ثلاثمائة وأربعة عشر ألف محارب^(٢) وكان فرسان العرب يشتركون فى المعارك نظير اقطاعات يقطعها لهم السلاطين واشهر القبائل العربية التى حازت الاقطاعات مقابل خدماتها الحربية عرب بنى الغوث من بنى خزيمه وعرب فايد وعفاجة وهوارة ولخم^(٣) وكانت القبائل العربية وجماعات من الزعر^(٤) تستدعى للمشاركة فى الدفاع عن البلاد . فقد روى ان كرتباى الاحمر حاكم البحيرة عرض على السلطان الاشرف قايتباى وكان يجهز حملة عسكرية للدفاع عن شمال الشام - جماعة من الزعر قصد ان ينشق عليهم لكل واحد منهم ثلاثين

(١) غرس الدين خليل بن شاهين زينة كشف الممالك ، ص ١٠٣

(٢) على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ الممالك البحرية ، ط القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٧٠

(٣) ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٣٥ .

(٤) الزعر: هم الزرايعون العرب الذين هاجروا الى المدن الكبرى هربا من المعاملة القاسية التى عاملهم بها المماليك انقلبا لثوراتهم المتكررة ضد الحكم المملوكى (انظر القريوى ، الفاشة الامية

بكشف الغمة ، ط القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١١ / ١٥)

دينار وان يخرجوا صحبته ، وظل السلطان يراقب الموقف وبعد
العدة لمواجهته بتحفظ واهتمام بالغين^(١) .

وكان السلطان يقوم باستعراض عساكر الحملة بنفسه قبل رحيلها
الى الشام ومن الجدير بالذكر أن عرب الشرقية شاركوا فى آخر
حملة عسكرية للسلطان قايتباى وجهها لقتال العثمانيين عند الحدود
الشمالية للبلاد الشامية^(٢) .

وبلغ جملة ما أنفق السلطان على هذه الحملة نحو نصف مليون
دينار.^(٣) وبلغت الحملات الحربية فى عهده رقما قياسيا لم تبلغه
البلاد من قبل.^(٤)

٢ - نظام القتال عند القبائل العربية فى مصر

كان العرب يننون خططهم الحربية على نوعين^(٥) أولهما القتال
صفوفا متراسة فى مواجهة العدو ، مثل تقسيم الجيش الى مقدمة

(١) ابن ابيس ، ملتقى الرموز ، ج ٥ ، ص ٥١٢

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٥٥٨

(٣) نفسه ، ص ٥٥٩

(٤) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٩٣

(٥) الطبرانى عطفون ، المقدمة ، الفصل السابع والثلاثون فى الحروب ، ص ٢٧٣ ، ط القاهرة

ومؤخره وقلب وجناحين والتقدم زحفا الى أرض العدو . وفى القلب يكون القائد أو الملك .^(١)

أما النوع الثانى وهو الكر والفر ، فإن المقاتلين يجمعون ابلهم ونساءهم وأطفالهم خلفهم ويقاتلون دونهم ويجعلون ذلك سببا لشجذ عزائمهم للاستماتة فى القتال حتى الموت ^(٢) وقد مارس العرب فى مصر الطريقتين فى حروبهم ضد أعدائهم ^(٣) وعلى الاخص النوع الثانى فى حروبهم ضد المماليك .

(١) عرف العرب نظم التعبئة الجنبية فقسموا الجيش الى مينة وميسرة وقلب ومقمنة وسائر بن هشام بنى العر محمد المنار من سورة ابن هشام ، تحقيق ابراهيم الايماى ، كتاب الشعب رقم ١٥ ، ص ٢٧٩ - عبد الرؤف عون ، الفن الحربى فى صدر الاسلام ، ط القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٦

(٢) كان العرب فى حروبهم يضربون المصاف وراجم أى أنهم يركون ابلهم ومواشيهم وعائلهم وأقاربهم من خلفهم دفعا لهم المقاتلين وأبائهم فى قتال عدوهم (المنار من سورة ابن هشام ، ص ١٠١ - محمود شيت عياط ، عقبة بن نافع الفهري ، ص ١٦٧ ، ط القاهرة ١٩٧١ .

(٣) وتفصيل ذلك أنهم كانوا يقاتلون اما وهم كتائب فى جيش المماليك مثلما حدث أثناء معاركهم ضد التتار على أرض الشام فى عهد السلطان النصور سيف الدين كلالون عام ٦٨٠ هـ اذ وصلت الايجار الى مصر وقرب هجوم التتار على أرض الشام . عندئذ خرجت عساكر مصر وسائر العرب متجهة الى الشام وكانت التتار قد وصلت الى أطراف حلب وهناك انضم الجيش المملوكى مع جيش التتار وواجهت ميسرة التتار مينة المسلمين فصدتها صدمة شديدة ثبوا لها ثباتا شديدا وحلوا على ميسرة التتار ، وكان عيسى بن مهنا القائد العربى فى مينة الجيش فهاجم هو ومن معه من فرسان العرب من سائر مصر والشام فقتلوا من التتار مقلقة عظيمة وهزموهم (انظر القريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٤ ، ٦٨٥ كذلك كان العرب يتقنسون الجيوش فى المعارك الحربية مثل معارك حماط والصبورة ويقومون بالادوار القتالية ضد العدو قبل بدء القتال فيسقطون أرائهم ويستولون على معقاتهم وأساليبهم ويقرون ويكررون حتى يقع الرعب فى معسكرهم وتنتشر الفوضى والاضطراب . بن صفرهم . (انظر القريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٥٦ - السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢)

بذكر القريزى أن ابن الاحدب عندما عزم على قتال الماليك جمع ممتلكات العرب من الاموال والواشى وجمع النساء والاطفال واقام ينتظر قدوم العسكر^(١) . ولم يكن الاشتراك فى المعارك الحربية قاصرا على الرجال وانما كانت المرأة تشارك أيضا فيها . فكانت النساء الصالحات يسقين المحاربين فى وسط القتال ويعملن فى حجر الجنائق^(٢)

٣- الاسلحة التى استخدمها العرب فى الحرب:-

مارس فرسان عرب مصر أسلوب الكر والفر فى حروبهم مع أعدائهم واشتهروا بالشجاعة والاقدام والضرب بالسيف والرشف بالسهام.^(٣) واستخدموا الترس^(٤) والنشاب والمقلاع والحجارة^(٥) وحاربوا مشاة وركبانا واستخدموا الخيول والجمال^(٦) فى حروبهم وعلى الرغم من شجاعة العرب وفروسيتهم الا أنهم لم يسلموا فى

(١) القريزى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٢٠٢ ، ص ٩١١

(٢) لم تعد المراجع من المقصود بالنساء الصالحات والارواح أنهن من نساء القبائل العربية اذ من المعروف ان نظام القتال عند العرب قد غرض عليهم البقاء قريبا من مكان المعركة لخدمة الجسم ورفع الروح المعوية عند المقاتل العربى .

(٣) (انظر القريزى ، البيان ، ص ٢٧ ، ٤٢ - أحمد لطفي السيد ، قبائل العرب ص ٤٢ .

(٤) القريزى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٣٤٣ - ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٨٦

(٥) القريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ٢٠٠ ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٥٠ ، ابن اياس ، بلاتع الزهور ، ج٩ ، ص ١٠٨١

(٦) (انظر نتائج معارك ابن الاحدب بالمعبد وبناتم العرب ، التى استولى عليها الماليك بعد انتصارهم على ابن الاحدب ، القريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ٢٠٢ ، ص ٩١٣)

حالة هزيمتهم أمام المماليك من التعرض للنقد اللاذع بهم
وبأسلحتهم . وقد وصف أحد الزجالين العرب السلاح الذى
استخدمه بدر بن سلام فى معاركه ضد المماليك عام ٧٨١هـ
(١٣٧٩م) بقوله::

جا ابن سلام معو رجال :: كل حد شهوتو رغيف
ذا على رقبته عقـال :: وذا فى رقبته شليف
وذا لو درع سـيبان :: وذا لو درع خوص وليف
والقسي قس من نخيل :: وخرائطهم الجعب
وصوايرهم الجريد :: وخودهم قصع خشب^(١)

ولو أن ذلك الوصف الذى وصف به العرب كان حقيقيا لما
انتهصروا على المماليك فى العام التالى لهذه الحملة عندما اتحدوا فى
حلف ضم جميع عرب اقليم البحيرة وواجهوا حملة عسكرية مكونة
من خمسمائة مملوك يقودهم الآن الشعبانى أمير سلاح وتقاتلوا فقتل
العرب جماعة كثيرة من المماليك السلطانية^(٢) ولكن الوصف كان
مبالغاً فيه وقصد منه السخرية .

(١) ابن ابيس ، بستان الزهور ، ج ٢ ، ص ٢١٧

(٢) نفس المصدر ص ٢١٩ .

من أمراء العرب من كان يحمل القابا عسكرية أمثال: مالك الموقعي وكان مقدما عند صلاح الدين وأخيه العادل أبي بكر^(١) وشقير بن جرجى وعمرو بن عسيلة من ثعلبة بن سلامان من القحطانية وكانا مقدمين في بني زريق أمرا بالبوق والعلم^(٢) ومن جذام فضل الله بن شمع بن كمونة وإبراهيم عالي وأمر كل منهما بالبوق والعلم^(٣). وفي عهد بني أيوب أيضا أمر جماعة من هلبا سويد من ثعلبة بالبوق والعلم منهم أبو راشد بن حبشي ودحيه ونابت أبا هاني بن حرط وبقيت مرة في بني هاني ورأية^(٤) ومن طريف مايروى أن اخوين من قبيلة ثعلبة هما سلمى ودغش أمرهما المعز ايك - أول سلاطين الدولة المملوكية - ببوق وعلم فأبى سلمى حتى يؤمر مفرج بن سالم بن راضى من هلبا بعجة من جذام وأمر^(٥) ثم أمر بعدهما مزروع بن نجم كذلك في جماعة كثيرة من جذام وثعلبة أما دغش فغادر القاهرة وتوجه الى دمشق فأمره الملك الناصر يوسف ببوق وعلم^(٦). وكان السلطان الظاهر بيبرس سخيا

(١) القريزي البيان والاعراب ، ص ١

(٢) تاريخ المسند ، ص ١٠٠ ، القحطاني ، نهاية الأرب ، ص ١٥٠

(٣) نفسه ، ص ١٥

(٤) نفسه ، ص ٢٤

(٥) القحطاني ، نهاية الأرب ، ص ١٧٦

(٦) القريزي ، البيان ، ص ٢٥ - القحطاني ، صبح الأعلى ، ص ٧٠

في عطائه للامراء والقادة العرب الذين يفدون من بلاد الشام قدم
اليه جماعة من آل ربيعة من طيء من القحطانية فآكرم وغادتهم
ومنحهم من الذهب العين والدرهم مئاة الالف ، والخلع
الاطلسى والقبايى ^(١) من السكندرى والسكر المكرر والاشربة
المختلفة بالمناطير المقنطرة ويقطع باسمهم المدن والبلاد. ^(٢)

(١) القبايى نوع من الثياب الحرير عنطط بخطوط مختلفة (على مبارك الخطط التوطئية ، جـ ١٠٠

، ص ٩٢

(٢) القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ١٠٢ ، ١٠٣

(الخاتمة)

كان للعون العسكري الكبير الذي قدمته القبائل العربية للتوريين ضد شاور وحلفائه الصليبيين أعظم الأثر في تدعيم سياسة الوفاق الذي ساد العلاقات بين الدولة الأيوبية وبين القبائل العربية في مصر، فقد أدرك صلاح الدين بفطنته وثاقب رأيه وحدة حاسته السياسية ان عرب مصر اذا تضامنوا يشكلون قوة لا يستهان بها .

والحقيقة أن القبائل العربية في مصر رفضت مبدأ التعاون مع الصليبيين بقصد اضعاف النفوذ النوري وابعاده عن مصر اذ أن ذلك في حقيقة الامر كان سيؤدي بالتأكيد الى وجود قوة صليبية في مصر تعمل على تفكك الجبهة الاسلامية في مصر والشام ثم السيطرة عليهما عسكريا.

وكان الكامل بن شاور يرى رأى القبائل العربية في أن الحفاظ على جيش نور الدين قوة لمصر وأن اضعاف هذا الجيش اضعاف لمصر . وقد بلغ من وطنية الكامل بن شاور أنه فضل الاحتفاظ بقوة الجيش الشامي في مصر وعدم مقاومتها حتى لا تضعف ولو أدى ذلك الى التضحية بشخصه وشخص آبيه وذلك حرصا على سلامة الجبهة الاسلامية في مصر والشام والا فلن يكون أمام الصليبيين الا امتلاك مصر^(١) .

(١) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١٥٦ / ١٥٨

وهكذا يتضح دور القبائل العربية أمام صلاح الدين وعلى هذا الأساس رسم ابعاد سياسته مع العرب وهى سياسة قامت على قاعدة من الود والتقدير حتى أن بعض المصادر تنسب صلاح الدين الى المضربين ، فهو من قيس عيلان من مضر^(١) .

ولهذا السبب اتسم عهد صلاح الدين وعهود خلفائه بالاستقرار الداخلى . وفى ظل هذا الاستقرار قام العرب بالدور الثقافى والدينى الذى كان عليهم القيام به طبقا لسياسة صلاح الدين التى قامت على أساس من نشر تعاليم السنة . واقتضى ذلك انشاء المدارس بقصد تعميم المذهب السنى فى مصر كلها . وظل العرب طوال هذا العصر يناصرون الدولة الايوبية ولم يقدموا قط على مناهضتها الا فى المرحلة الاولى من قيامها وذلك على اثر قيام بنى الكنز فى أسوان بثورتهم على العهد الجديد . ومن المعروف أن خلفاء صلاح الدين اقتلوا به فى تحديد علاقاتهم بالقبائل العربية يدل على ذلك المنشورات الصادرة من السلاطين الى الولاة عند قيامهم بتسلم مناصبهم الجديدة . وكان طبيعيا أن يقابل العرب الود بمثلته ، لذلك رأيتهم لا يترددون فى المساهمة فى الدفاع عن مصر من الأخطار الخارجية والمشاركة فى حركة الجهاد التى اعتمدها الأيوبيون ضد الصليبيين فى بلاد الشام طوال العصر الأيوبي

(١) ابن تفرى بردى ، الهجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٣

كان العرب عنصرا فعالاً فى الدفاع عن مصر وكثر عدد المتطوعة من العرب حتى بلغ عددهم فى احدى معارك دمياط حدا يعجز عنه الحصر^(١) وبلغ عدد متطوعة العرب من الاسكندرية وحدها ثمانية آلاف مقاتل^(٢) .

شغف العرب بحب القتال فكانوا اذا استنفروا للجهاد تدفقوا الى ميدان القتال مجاهدين للأعداء لايهمهم الموت أما فى ظروف السلم فكانوا يقومون بخدمة الأهالى كلما تأزمت الاحوال الاقتصادية فحمل بعضهم الألقاب ومنحوا الهبات والعطايا تقديرا لخدماتهم الاجتماعية الجليلة . كما اشتغلوا بالتعمير فامتد العمران وساد البلاد جوا من العثمانيّة والاستقرار هيا المجال أمام العرب للاستثمار فى القيام بدورهم الحضارى .

وفى عصر المماليك ازداد تفاعل العرب مع المصريين وقوى اندماجهم بهم على الرغم من مناهضتهم للمماليك ويرجع السبب فى ذلك الى أن المعارضة العربية ضد الحكم المملوكى فى مصر . كانت من القوة بحيث جمع لها الزعيم العربى حصن الدين ثعلب حشودا هائلة من جميع أنحاء مصر ودفع بهم الى قتال المماليك لاسقاط حكمهم باعتبارهم أرقاء دخلاء على البلاد والعرب أحق منهم بحكم مصر ولكن العرب خسروا المعركة مع المماليك وتششتوا

(١) القزوينى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٥١

(٢) القزوينى ، السلوك ، ص ١٣١ ، ص ٢٠٦ - القزوينى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

فى البلاد ولما عادوا الى جمع شتاتهم مرة ثانية ظلوا على موقفهم المعارض من الحكم المملوكى . الا أنهم على الرغم من معارضتهم لحكم المماليك لمجدهم يشاركون كمواطنين مصريين فى الجهاد ضد قوى المغول والفرنج ويلبسون أرواحهم رخيصة فداء لمصر والاسلام فى موقعتى عين جالوت ٦٥٨هـ وحمص ٦٨٠هـ كما شاركوا فى موقعتى مرج راهط التى حدثت بين جيوش الناصر محمد بن قلاوون وجيوش المغول فى عام ٧٠٢هـ.

وانتهت بوقوع مايقرب من ثلث جيش المغول أسرى فى أيدي المماليك^(١) . كذلك نراهم ينصرون السلطان الناصر فرج ضد قوات المغول بقيادة تيمور لنگ^(٢) وقد ظلوا يساندون مصر ويدافعون عنها جنبا الى جنب مع المصريين وقوات المماليك حتى آخر معاركهم ضد العثمانيين . ولم يتردد العرب فى مساندة طومان باى ضد العثمانيين ، فاشتركوا فى خياله بفرقة من الفرسان قوامها سبعة آلاف فارس^(٣) .

ولم يقتصر دور العرب الدفاعى عن الحدود الشمالية . والشرقية لمصر اذ كان لهم دور رئيسى فى الدفاع عن حدود مصر الجنوبية^(٤).

(١) ابن اياس ، بستان الزهور ، ج ٢ ، ص ١٦١

(٢) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٨٨

(٣) أحمد بن زبيل الرمالي ، تاريخ السلطان سليم ، ص ٤١

(٤) القزوينى ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٧٣٧

كان من أهم نتائجه توقف هجمات النوبيين على الجنوب واستتباب
الامن ثم انتشار العرب وتوغلهم فى أنحاء السودان وبسط نفوذهم
فيها ومصاهرة ملوكها حتى بلغوا الغاية من ذلك .

وكذلك أثبتنا فى صفحات هذه الرسالة الأسباب التى كانت
تدفع العرب الى الانتفاضة والثورة على السلطات المملوكية الحاكمة
وأرجعناها كلها باستثناء ثورة حصن الدين ثعلب الى عوامل
اقتصادية ، فتورة حصن الدين ثعلب قامت بعد اعلان قيام دولة
المماليك على انقاض الدولة الايوبية فقام هذا الزعيم العربى يحاول
اسقاط الدلة الجديدة . فهى ثورة سياسية هدفها اسقاط نظام حكم
يرفضه العرب والمصريون .

أما الثورات التى قامت طوال عصر دولتى المماليك البحرية
والبرجية (الجراكسة) فكانت جميعها تأتى عقب ظروف غير طبيعية
مثل ظروف مجاعات أو انتشار وباء أو فرض غرامات وتحصيل
ضرائب جائرة تفوق طاقة الامالى مما كان يودى الى ارهاقهم
اقتصاديا فتضطرب الاحوال وتنتشر القلاقل وتقوم الثورات التى
كان يصعب حسمها الا بالقهر والاستبداد .

على أن هذه الثورات العربية وإن كانت قد تسببت فى اشاعة جو
من الفوضى والاضطراب فى الداخل كانت خيرا على مصر ،
ويكفى أن نذكر أن من أبرز نتائجها : الاندماج التدريجى للعرب
فى شعب مصر وقد تم ذلك عن طريق المصاهرة بين العرب

والمصريين الى حد أن أحد أقباط مصر وهو عبد الله بن نصر القبطي كان رئيسا لقبيلة جدام بالشرقية ^(١) وبفضل هذا الاندماج تمكنت الروابط الاجتماعية بين المصريين والعرب ، فساعد ذلك على تنمية علوم العربية والثقافة العربية ، كما ساعد على صون التراث الفكري والروحي للعرب ، لاسيما في أواخر عصر دولة المماليك .

ويلاحظ أيضا أنه ترتب على ثورات العرب على الاوضاع السياسية والاقتصادية في مصر المملوكية من هجرة بعض قبائلهم الى السودان وكان ذلك من العوامل التي أدت الى اتساع مجال انتشار اللغة العربية وعلومها في قلب القارة الافريقية وتلاقى هذا المد مع مد عربي آخر سبقه في التاريخ واعنى به هجرة القبائل الهلالية في النصف الثاني من العصر الفاطمي غربا الى المغرب الاسلامي بل والأندلس ^(٢) .

وقد توصلت في دراستي عن القبائل العربية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الى ذكر بعض الحقائق المتعلقة بالنظامين الاجتماعيين والحربي عند هذه القبائل ، فأمكنني أن استنتج من النصوص الواردة في المصادر العربية بعض مظاهر حياتهم الاجتماعية

(١) ابن الأثير ، نتائج الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٩٥

(٢) راجع ماورد في هذا الشأن في الرسالة المقدمة من السيد / مصطفى أبو زيد للحصول على درجة الماجستير وعنوانها : القبائل العربية في بلاد المغرب في عصر دولتي المرينيين والبربر . ص ٣٦ .

وما كانوا يقومون بأدائه من أعمال لهذا الى الاشارة الى دورهم الثقافي في مصر المملوكية .

كذلك توصلت الى حقائق تتعلق بنظامهم الحربي من حيث طريقة التحاقهم بالجيش وطريقة القتال وأنواع الاسلحة التي استخدموها في القتال وهي حقائق لم ترد بطريقة مباشرة في المصادر العربية وانما استطعنا أن نستنبطها من خلال النصوص التاريخية المتعلقة بالاحداث .

نقلا عن كتاب (الملابس المملوكية)

لـ"ماير" ص ١٩٧

(١٣)(١) ثوب تحتاني(تحتانية)-تفضلا من دار الآثار العربية

"متحف الفن الاسلامي"

(١٣)-(٢) سروال - تفضلا من تحف الساتكانتينير

Museede Cinquantenaire

نقلا عن كتاب الآراء الشعبية

سعد الخادم ص ٥٩

جلباب حريمى صناعة اعرابيات الشرقية (الزقازيق)

الفسطاط في العصر الأيوبي

الصعيد الأوسط في العصر الأيوبي

الواحات في العصر الأيوبي

الصعيد الأعلى والتوبة

طائفة في العصر المملوكي

الواحات في العصر المملوكي

**الصعيد الأعلى والنوبة
في العصر المملوكي**

المصادر العربية المخطوطة

الباعونى (محمد بن يوسف) (ت ٩١٠هـ - ١٥٠٤م)
الإشارة الوفية الى الخصوصيات الاشرفية مكتبة اسكندرية رقم
٣٧٦٠ ج

ابن الجيعان (أحمد بن يحيى ابن شاكر المصرى)
القول المستظرف فى سفر الملك الأشرف، معهد أحياء
المخطوطات العربية جامعة الدول العربية رقم ١٨٩٩

ابن منكلى (الأمير محمد)
التدبيرات السلطانية فى الفنون الحربية
بدون تاريخ مكتبة اسكندرية رقم ١١٤٧ ب

القادرى (محمد بن على)
المواقف الشريفة فى تحقيق معنى الخليفة
مكتبة اسكندرية رقم ٣٨١٦ ج بدون تاريخ

القلقشندي (أحمد بن عبد الله القلقشندي) (ت ٨٢١هـ = ١٤١٨م)
قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان معهد أحياء
المخطوطات العربية ميكرو فيلم رقم ٣٨١

الكرمي (مرعي بن يوسف بن أبي بكر)
نزهة الناظرين فيمن ولي مصر من الخلفاء والسلاطين مكتبة
اسكندرية ١٤١٦ ج بدون تاريخ

النويري (محمد بن قاسم السكندري)
الامام بما قضت به الأحكام القضية في رقعة اسكندرية
نسخ مصورة من مخطوطات الهند بمكتبة كلية الاداب جامعة
اسكندرية رقم ٧٢٨

المصادر العربية المحققة

ابن الأثير: على ابن محمد الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ - ١٢٣٢م)

(الكامل في التاريخ) ١٢ جزء (المكبة التجارية)

ابن اياس: أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ - ١٥٢٣م)

"بدائع الزهور في وقائع الدهور" ٩ أجزاء ط القاهرة ١٩٦٠

"صفحات لم تنشر من بدائع الزهور" تحقيق محمد مصطفى

زيادة م ١٩٥١م.

ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ - ١٢٢٧م)

مجموعة الرسائل الكرى ط القاهرة ١٣٣٢هـ

ابن ثعلب: (كمال الدين جعفر الانفوى) (ت ٨٤٨هـ)

الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلا

الصعيد القاهرة ١٣٣٤هـ

ابن دقماق: ابراهيم بن محمد بن ايلدرم العلاقى

(ت ٨٠٩هـ - ١٤٠٦م)

الانتصار بواسطة عقد الامصار

القاهرة ١٣١٠هـ - ١٨٩٢م ٤ أجزاء

ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن على (٨٥٢هـ - ١٤٤٩)

الدور الكامنة في أعيان المائة الثامنة ،

ط الهند ١٢٤٩هـ - ١٩٣٠

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٥)

مقدمة ابن خلدون القاهرة المكتبة التجارية.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب

والعجم والعبر ومن عاصروهم من ذوى السلطان

الأكر) .

ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي

(ت ٦٨١هـ - ١٢٨٢) وفيات الاعيان وانباء ابناء

الزمان (القاهرة ١٢٨٢هـ) .

ابن زنبيل: أحمد الرمالي المحلى

تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع

قائصوه الغورى سلطان مصر وأعمالها، القاهرة ١٢٧٨هـ

ابن شاهين: غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ - ١٤٦٨)

(زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك) تحقيق

بول رافيس ٨٩٥

ابن شداد : بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ - ١٢٣٤م)

ابن الشوكاني: (محمد بن على) (ت ١٢٥٠هـ - ١٨٣٤)

البدل الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع جزوان

ابن طولون : (محمد بن على بن محمد) (٨٨٠ - ٩٥٣ هـ)

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان

تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢

ابن عبد الحكم : (عبد الرحمن) (٢٥٧ هـ = ٨٧٠ م) فتوح مصر

والمغرب ليدن ١٩٢٠ م

ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد

البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، ط بيروت

ابن القطان : أبو الحسن على بن محمد الكتامي الفاسي

(ت ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م) نظام الجمان في أخبار الزمان ،

تحقيق : محمود على مكى الرباط ١٩٦٤ م.

ابن هشام: نبي البر محمد المختار من سيرة بن هشام ، تحقيق

ابراهيم الابياري كتاب الشعب رقم ١٥ .

أبو شامة: عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي

(ت ٦٦٥ هـ = ١٢٦٨ م) كتاب الروضتين في أخبار

الدولتين النورية والصلاحية جزوان القاهرة ١٢٨٧ م.

أبو عثمان: (النابلسي الصفدي) (ت ٦٤١ هـ)

تاريخ القنوم وبلاذه ط القاهرة

أبو الفدا: اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماء

(ت ٧٣٢ هـ - ١٢٣١ م) تاريخ أبي الفدا. جزءان

القاهرة ١٢٨٦.

أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغري بردي

(ت ٨٧٤ هـ - ١٤٦٥ م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر

والقاهرة ، ط القاهرة ١٩٢٩ المنهل الصافي والمستوفى

بعد الوافي ، القاهرة ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٦)

الاسحاقى: محمد عبد المعطى بن أبى الفتح المتوفى .

تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين

القاهرة ١٣٠٠ هـ

البلاذرى: أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادى (ت ٨٩٢ هـ)

فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٠٠ م

المحموى: ياقوت ، معجم البلدان (ت ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م)

الدميرى: كمال الدين ، حياة الحيوان ، القاهرة ١٨٧٥ م

السلوى: أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى

(ت ١٢١٥ هـ - ١٨٩٧ م) ٤ أجزاء القاهرة ، ١٨٨٣ م

السيوطى: عبد الرحمن (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م)

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة جزءان القاهرة

١٣٢١هـ

الشعرانى: عبد الوهاب بن أحمد بن على العلوى الهاشمى .

الطبقات الكبرى ، جزءان ، القاهرة ١٢٠٥هـ

شقيق : نعوم ، تاريخ السودان القديم والحديث ثلاثة أجزاء

القاهرة ١٩٠٣م

عماد الدين الكاتب : أبو عبد الله محمد بن محمد الاصفهانى

الفتح القسى فى الفتح القدسى القاهرة ١٣٢١هـ

القلقشندي : أحمد بن عبد الله بن محمد (ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م)

صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٤م.

نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب القاهرة ١٩٥٩

الكتبى : محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ - ١٣٦٢م)

فوات الوفيات ، جزءان ، ١٢٩٩هـ القاهرة

الكندى : محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ - ٩٦١م)

كتاب الولاة والقضاء ، بيروت ١٩٠٨

المقريزى: أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ - ١٤٤٢ م)
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء القاهرة
١٢٢٥ هـ السلوك بمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٥٨
البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب مع
دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل ، القاهرة
١٩٦١ تحقيق عبد المجيد عابدين اغاثة الامة بكشف الغمة
القاهرة ١٩٥٧م تحقيق الشيال ، مصطفى زيادة
اتعاط الخنفا بأخبار الائمة ألفا طميين الخلفاء، القاهرة ١٩٤٨

(المراجع العربية الحديثة)

أبو ضيف : (مصطفى)، القبائل العربية في المغرب في عصر دولتي
الموحدين وبنى مرين (رسالة ماجستير ١٩٧٥ كلية الآداب
جامعة الإسكندرية .

بثلر: (الفردج)، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد،
القاهرة ١٩٣٣ .

البري: (عبد الله خورشيد)، القبائل العربية في القرون الثلاثة
الاولى للهجرة ط القاهرة ١٩٦٧ م

حمدي: (حافظ أحمد)، الدولة الخوارزمية والمغول، ط القاهرة
١٩٤٩ م

حمزة: (عبد اللطيف) القلقشندي في كتابه صبح الاعشى،
القاهرة ١٩٦٢

الحخاد: (سعد) الازياء الشعبية ، القاهرة ١٩٦١

خطاب: (عمود شيت) عقبة بن نافع الفهري ، القاهرة ١٩٧١

محورشيد: (فاروق) ، أضواء على السير الشعبية يناير ١٩٦٤

زيادة: (محمد مصطفى) المؤرخون في مصر في القرن الخامس

عشر الميلادي، التاسع الهجري، ط القاهرة ١٩٥٤ م

سالم: (السيد عبد العزيز) المغرب الكبير، الدار القومية للطباعة
والنشر ١٩٦٦ تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر
الاسلامى حتى العصر العثمانى ط الثانية ١٩٦٩ دارالمعارف
تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، بيروت ١٩٧١
تاريخ الدولة العربية - تاريخ الدول العربية منذ ظهور
الاسلام حتى سقوط الدولة الاموية ، الاسكندرية ١٩٧٤ م
سليم : (محمود وزق) ، الاشراف قانصوه الغورى القاهرة ١٩٦٥
السيد: (أحمد لطفى) ، قبائل العرب فى مصر العليقات والجعافرة
وقبائل أخرى ، ط القاهرة ١٩٣٥
الشرباصى: (أحمد) شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام الجيزة

١٩٦٣

الشيال: (جمال الدين) مجل تاريخ دمياط ، والقاهرة ١٩٤٩ م
الوثائق التاريخية لمصر الاسلامية ، ط دار المعارف ١٩٦٥
المجلد الأول : وثائق الخلافة الفاطمية وولاية العهد والوزارة
طرخان: ابراهيم ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة
عاشور: عبد الفتاح ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
القاهرة ١٩٦٣ الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٣

الناصر صلاح الدين ، القاهرة ١٩٦٥.

العبادى : مختار ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس

ط الاسكندرية الناشر محمد أحمد.

عبد الوهاب: حسن ، جامع السلطان حسن ، المكتبة الثقافية

القاهرة ١٩٦٢ رقم ٥٦

العرينى: الباز ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ط القاهرة ١٩٦٠

عمار : عباس ، المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ١٩٤٦

عكوش: محمود ، مصر فى عهد الاسلام القاهرة ١٩٤١م

عون : عبد الرؤف ن الفن الحربى فى صدر الاسلام ، القاهرة

١٩٦١

فيصل: شكرى ، المجتمعات الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٢

الكاشف : سيدة اسماعيل ، مصر فى فجر الاسلام من الفتح

العربى الى قيام الدولة الطولونية القاهرة ١٩٤٧

كحاله : عمر رضا ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ط ثانية

بيروت ١٩٦٨

ماجد: عبد المنعم ، موقف المصريين من الماليك فى العصور

الوسطى حوليات كلية الاداب، جامعة عين شمس العدد ١٢ عام

١٩٦٩

ماير: (ل.أ.) للملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيشي ، القاهرة

١٩٧٢

مبارك: على باشا ، الخطط التوفيقية ط القاهرة ١٣٠٥

النجار: عبد الوهاب ، الخلفاء الراشدون، القاهرة ١٩٦٠

هاشم: محمود أحمد، الامام الشعرائي ، القاهرة ١٣٩١هـ = ١٩٧٠م

يونس: عبد الحميد، الملامية في التاريخ والادب الشعبي

القاهرة ١٩٥٦ الظاهر بيبرس في القصص الشعبي المكتبة

الثقافية رقم ٢

المراجع الأجنبية

Abd arrazik (Ahmad) : La femme au temps de
mamelouks en Egypte, le Caire 1973

Gibb(A.R).a) The Rise of saladin in kenneth n'setton
(editor).

b) A history of crusades, philadelphia 1958

Lane poole : a) Saladin and fall of the kingdon.
Zerusalem, Beirut 1964.

b) The story of Cairo, London 1924 .

Margais (G.) La berberia musulmane et l'orient au
meyen age, paris 1964.

Oldenbourg (zoe) the crusades newyork, 1966.

Wiet, L'Egypte Ararbe Encys Isl. 1,11

((الفهرس))

الصفحة	الموضوع
١	المقدمة :
٢٧	<u>الباب الاول: انتشار العرب في مصر وأهم أعمالهم</u>
٢٨	الفصل الأول: القبائل العربية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي
٦٣	الفصل الثاني: اندماج العرب بأهل مصر
٧٧	<u>الباب الثاني: القبائل العربية في خدمة الجيوش</u> الأيوبي والمملوكي
٧٨	الفصل الأول: دور العرب الحربي في الدفاع عن حدود مصر زمن الأيوبيين
٩٦	الفصل الثاني: دور العرب الحربي في الدفاع عن مصر زمن المماليك
١١٩	<u>الباب الثالث: ثورات العرب في مصر في عصر</u> المماليك
١٢٢	الفصل الأول: موقف العرب من المماليك عند قيام دولة المماليك في مصر

الصفحة	الموضوع
١٣٩	الفصل الثانى: ثورات العرب فى مصر على المماليك
	والأسباب والنتائج
٢١١	<u>الباب الرابع: حياة العرب الاجتماعية والحربية</u>
٢١٢	<u>أولا: حياة العرب فى السلم</u>
٢٣٦	<u>ثانيا: حياة العرب فى الحرب</u>
٢٤٤	الخاتمة :
٢٥١	الصور:
٢٥٣	الخرائط:
٢٦٥	المصادر والمراجع العربية:
٢٧٧	المراجع الأجنبية :